داليا عاصم

كلية فيكتوريا

صناعة الملوك والأمراء والمشاهير



Jadawel جداول

الكتاب

يروي هذا الكتاب سيرة وتاريخ مدرسة فكتوريا في الأسكندرية على مدى 111 عامًا، ويتضمن مواقف وحكايات وأسرار عن ملوك وأمراء ومشاهير درسوا في هذه المدرسة من أمثال الملك حسين بن طلال وملك اليونان وملك ألبانيا وملك بلغاريا والصادق المهدي، وكبار الفنانين كعمر الشريف وأحمد رمزي ويوسف شاهين وشادي عبد السلام، وكُتَّاب ومفكرين من أمثال إدوارد سعيد والسير مايكل عطية.

يتضمن الكتاب لقاءات مع «الفيكتوريين القدامى» الذين احتفظوا بأسرار عن الحياة داخل أسوار تلك القلعة البريطانية التي استُغلت أحيانًا للتجسس على كبرى العائلات في العالم العربي وأفريقيا، وعن قوانينها الصارمة وطرق العقاب، وكيف تحولت تلك المدرسة وأفل نجمها بعد تأميمها، ليكون تاريخها صورة مُثلى لما بلغته القيم الليبرالية من أوْج، كما أنه - في الوقت نفسه- مشهد محزن ومأساوي لانحسار تلك القيم ومبادئ التحديث في العالم العربي.


ISBN 978-614-418-221-5



كلية فيكتوريا

صناعة الملوك والأمراء والمشاهير

داليا عاصم

كلية فيكتوريا

صناعة الملوك والأمراء والمشاهير

Jadawel جداول

الكتاب: كلية فيكتوريا.. صناعة الملوك والأمراء والمشاهير
المؤلف: داليا عاصم

جداول
للنشر والترجمة والتوزيع
رأس بيروت - شارع كراكاس - بناية البركة - الطابق الأول
هاتف: 746638 1 00961 - فاكس: 746637 1 00961
ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان
e-mail: d.jadawel@gmail.com
www.jadawel.net

الطبعة الأولى
كانون الثاني/ يناير 2014
ISBN 978-614-418-221-5

طبع في لبنان

Caracas Str. - Al-Barakah Bldg.
P.O.Box: 5558-13 Shouran
Beirut - Lebanon
First Published 2014 Beirut

تصميم الغلاف: محمد ج. إبراهيم

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

❖ إلى أمي وأبي.. تعجز كلمات الدنيا عن الوفاء بحقكما عليّ

❖ إلى زوجي العزيز محمد مصطفى.. فارس أحلامي ورفيق عمري

❖ إلى ابنتي الغالية سلوى.. زهرتي اليافعة وإكسير حياتي

❖ إلى الإسكندرية التي كانت.. إلى كلية فيكتوريا ذات الـ 110 أعوام

12 كانون الأول/ ديسمبر 2012

المقدمة

جدران رطبة مشرّبة بملوحة رذاذ البحر.. عتيقة من زمن أممي (Cosmopolitan) جميل.. تهمس لبعضها في أنين، وكأنها تترحّم على تاريخ مضى.. جدران لا تزال محتفظة برائحة بصمات أطفال أبرياء وضعوا بصماتهم على تاريخ العالم. فها هو طالب أردني من نسل النبيّ الكريم يمارس رياضة السلاح مع زميله السوداني من عائلة المهدي، وذاك يوناني يقود فريق كرة القدم، المكوّن من إيطاليين وأرمن وإنكليز وفرنسيين ولبنانيين أو شوام، وأثيوبيين... وها هو مدرّس إنكليزي بهيئة «إدواردية» غاية في الأناقة يلقي درسًا على طلابه المسلمين والمسيحيين واليهود. في الفسحة.. مجموعة شباب يتبادلون النكات بالإيطالية واليونانية والإنكليزية وآخرون يلقون بالعامية المصرية نكتة مصرية فإذا بهم يلقون عقاب تحدثهم بلغة غير الإنكليزية داخل كلية فيكتوريا.

إنها مدرسة الملوك والأمراء والمشاهير.. هكذا عُرفت كلية فيكتوريا أو (Victoria College) العريقة بالإسكندرية التي شيّدت عام 1902، تلك الكلية التي تُعدّ ظاهرة تاريخية اجتماعية نادرة في الشرق الأوسط، ربما لن تتكرر.

كانت كلية فيكتوريا المدرسة الوحيدة في الشرق الأوسط التي كانت تعلّم أبناءها لعبة الكريكيت، وتعطي وقتًا لرياضة كرة القدم بشكل احترافي، وعلى أيدي مدربين مَهَرة في ملاعب قانونية، إلى جانب ألعاب ركوب الخيل والسباحة وألعاب القوى والسلاح والتنس، وأيضًا قاعة جمنازيوم. بالإضافة إلى مهارات الزراعة والنجارة وتربية النحل والكشافة، والتمثيل.

يمكننا القول بأن فيكتوريا انتقت طلابها وتوسّمت فيهم الطموح والإرادة والعزيمة على النجاح، شذّبتهم وهذّبتهم وجعلت الانضباط ناموس حياتهم، وفيها تفتحت آفاقهم وتعالت طموحاتهم حتى أصبحوا نخبة فريدة قلّ أن يوجد لها مثيل في العالم.

تلك المدرسة بما قدّمته من أبنائها يمكننا القول دون مبالغة إنها لعبت دورًا فاعلًا في تاريخ منطقة الشرق الأوسط بل وأفريقيا، فعلى مدار أكثر من مئة عام، هي عمر المدرسة، تخرّج فيها شخصيات عالمية بارزة وملوك وأمراء كتبوا تاريخ تلك المنطقة.

فضمّت بين طلابها حوالي 55 جنسية من مختلف أنحاء العالم، وصهرت كل هؤلاء الطلاب داخلها ليخرج منهم أمثلة ونماذج مشرفة في كل المجالات ومن خريجيها مثلًا من السعودية: الأمير عبد الله ومحمد وفيصل آل سعود، والملياردير عدنان خاشقجي وإخوانه والشيخ كمال أدهم مدير المخابرات السعودية وغازي وغسان شاكر وعبد اللطيف

الجميل وأبناء الشيخ محمد بن لادن، ومحمد وحسن العطاس، ووزير النفط هشام الناظر وأبناء عائلات الصبان والشبكشي والشربتلي والشوربجي.

ووفد إليها من السودان عائلات المهدي ومنهم الإمام الصادق المهدي رئيس وزراء السودان الأسبق، وشقيقه إسماعيل المهدي، وعائلة الميرغني وأبو العلا ومحافظ البنك المركزي السوداني ووزير المالية، ومن لبنان أبناء عائلات مسقاوي وغندور والحميضي وحمدان والصلح، ومن فلسطين وإدوارد سعيد وهمّام الشوا ورفيق الحسيني، وكان من العائلات الفلسطينية التي أدخلت أبناءها كلية فيكتوريا في ثلاثينيات القرن الماضي: أبناء عاصم بك السعيد عمدة يافا، ومصطفى بك خاليدي عمدة القدس، وعائلة النشاشيبي، ثم دخلت عائلات مستقيم والفاروقي والدباغ.

وكان من أوائل الطلاب القادمين من الأردن حيدر الركابي، كان ابن رضا باشا الركابي رئيس وزراء الأردن 1922 ـ 1924، والذي أصبح فيما بعد مدرّسًا للغة العربية في كلية فيكتوريا. ثم توالت أفواج الطلاب الأردنيين الذين تولوا فيما بعد مقاليد الحكم في المملكة الهاشمية ومنهم : الأمراء زيد بن شاكر ورعد بن زيد ورئيس مجلس الوزراء والأعيان زيد الرفاعي وسفير الأردن في القاهرة ووزير التجارة والصناعة الأسبق هاني الملقى، ورجل الأعمال ومؤسس البنك العربي الراحل خالد شومان، والوزير الأسبق المحامي عمر النابلسي

والوزير حازم نسيبة وزير الخارجية وأبناء عائلة طوقان ومراد وعازر ورصاص وغيرهم من الأردن.

احتضنت فيكتوريا الإسكندرية طلابًا من الكويت وعلى رأسهم جاسم وناصر الخرافي، وعبد اللطيف الحمد والعديد من أبناء آل الحمد وآل الغانم والأمير على الصباح ود. عبد الله النفيسي، ومن أشهر العائلات الليبية التي درس أبناؤها في الكلية عائلات السنوسي وبوغازيا وبلتمر وبن حليم وبن كاطو وبو نخيله والمهرك، ومن العراق الأمير عبد الإله ولي عهد العراق، ووزير المالية العراقي محمد الحديد، وعدنان الباجه جي وزير الخارجية العراقي السابق ومستشار رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة حاليًا. ومن سوريا واليمن وغانا ونيجيريا وإيران وباكستان وغيرها[1].

كلية الأمراء والمشاهير.. اسم لم يأتِ من فراغ أو للمباهاة بل هي حقيقة، فبين سجلات طلاب كلية فيكتوريا قائمة من ملوك وأمراء العرب أشهرهم من الراحلين العاهل الأردني الملك الحسين والعاهل العراقي الملك فيصل، أما من لا يزالون في عالمنا فمنهم: الملك سيمون من بلغاريا والملك قسطنطين من اليونان وملك البانيا، وسلطان زنزيبار وعدد من أمراء آل الصباح الأسرة الحاكمة بالكويت وعدد من أمراء آل سعود بالمملكة العربية السعودية.

(1) هذا الحصر للعائلات تمّ بمساهمة كريمة من د. عبد الفتاح طوقان من الأردن.

كما خرّجت كلية فيكتوريا عددًا من أبناء الطبقة الأرستقراطية المصرية والقيادات التي تمتعت بقدر كبير من الوطنية برغم تعليمهم البريطاني ومنهم: الفريق فؤاد ذكري قائد القوات البحرية مستشار الرئيس المصري الراحل أنور السادات العسكري، وقائد الأسطول البحري في حرب أكتوبر عام 1973، وحسن عيسى نائب رئيس المخابرات المصرية الأسبق، والفريق إسماعيل شيرين وزير دفاع مصر السابق وعديل شاه إيران والأميرة شويكار والدكتور أدهم النقيب زوج الملكة ناريمان وابنه أكرم، وفرغلي باشا أمبراطور صناعة القطن، وعائلات حمادة رواد صناعة الغزل والنسيج في مصر والشرق الأوسط، فضلًا عن أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي وأبنائه وحسين سري رئيس الوزراء، وعدد كبير من أكبر العائلات ومنهم: آل دليل، والبدراوي وشعلان والنقيب والعلايلي باشا والكرداني والجمال ورضوان ودوس وبقطر وقطري ومقار ويوسف «للمجوهرات والألماس» ووالي ومصطفى ونوفل والجزيري ولطفي والكسنيان وبليكيان وغوريب وباسيلي وغيرهم.

خرّجت فيكتوريا عباقرة في الفن ومنهم محمود سعيد، وفي عالم السينما نجومًا وعلى رأسهم المخرج يوسف شاهين وتوفيق صالح وعمر الشريف وشادي عبد السلام وأحمد رمزي وأخيرًا نرمين الفقي وعلا غانم.

في الحقيقة واجهت صعوبة شديدة في الولوج إلى عالم

قدامى الخريجين أو كما يسمون أنفسهم «Old Victorians»، فهم فضلًا عن أنهم مواطنون عالميون لهم بصماتهم في شتى المجالات وفي جميع أنحاء العالم... فقد وجدتهم أشبه بمجتمع مغلق له طقوسه وعاداته وتقاليده بل تكاد تكون شخوصهم متوحدة ومتماثلة في السلوكيات والتصرفات.. هم أناس ينتمون لزمن جميل لا زالوا متشبثين بأطرافه.. فكانت الصعوبة في بداية تعاملي معهم.. لا أقصد أنهم متعالون أو فظّون ولكنهم حريصون جدًا ربما هم يحفظون كنوزًا من الذكريات التي لا تخصّ كلية فيكتوريا وحدها وإنما تخصّ إسكندرية كفافيس وداريل... إسكندرية التي نسمع ونقرأ عنها نحاول أن نقتفي أثرها في أماكن تراثية خلفها زمن جميل.. تلك الإسكندرية وجدتها في وجوه الخريجين القدامى في سلوكياتهم المهذبة وأحاديثهم الغنية التي تطربك بشتى لغات العالم.

وهنا يطرح السؤال نفسه: ما أهمية أن يتحدث كتاب عن تاريخ مدرسة؟، وما الذي قد يجعل مدرسة مهما كانت عراقتها تحظى بمثل تلك الأهمية؟

ولكن إذا مررنا بنظرة فاحصة لجميع الخريجين سنرى أن هناك شيئًا ما يجعل هؤلاء الخريجين مختلفين عن غيرهم، فمثلًا ما الذي يجعلهم فخورين بها بمثل هذا الشكل لدرجة أنهم يتباهون بها في أي مكان في العالم وفي أي مناسبة دولية؟ ومن هم الفيكتوريون القدامى؟ وما الذي تعلمه هؤلاء الطلاب في الكلية ليجعلهم يحتلون أرقى المناصب في العالم؟ كيف حرصت الكلية على أن تكون صلتها بأولياء أمور الطلاب وطيدة إلى هذا الحدّ وإعلامهم بكل صغيرة وكبيرة؟

وبمجرد أن بدأت رحلة التنقيب في تاريخ كلية فيكتوريا تولدت أسئلة ملحة هي: هل هم قلة أتيحت لهم فرصة نادرة للحصول على تعليم لا مثيل له في الشرق الأوسط؟ هل هم أبناء الطبقة الثرية المرفهين المدلّلين الذين تربوا على الطريقة الإنكليزية؟ هل هم بريطانيو الهوى ولكن مقيمون في مصر؟ هل قامت كلية فيكتوريا بعمل غسيل مخ لهم لكي يصبحوا تابعين لكل ما هو بريطاني بل وتجعلهم متمسكين بالتقاليد البريطانية العتيدة؟ أم أنهم ربما كانوا أكثر وطنية وحاربوا بريطانيا العظمى بأسلوبها؟ هل كشفت لهم الحروب عن الوجه الاستعماري القبيح لبريطانيا مما جعلهم ينقلبون على كل ما هو بريطاني؟

وستبرز لدينا عدة تساؤلات حاولنا الإجابة عن بعضها في تلك الصفحات التي بين يديكم، ولكنها تحتاج المزيد والمزيد من البحث والتنقيب في أسرار وأغوار تلك الكلية وفي حياة خريجيها، فقد كان عامل الوقت عائقًا أمام المحاولات المستميتة للوصول لأغلب الخريجين القدامى، كما أن أغلبهم قد توفاه الله، والآخرون مرتحلون حول العالم، ولا يستخدمون الأنترنت، أما الاتصالات الهاتفية فأغلبهم لم يقم بتحديث بياناته لدى جمعية الخريجين في الإسكندرية التي تمثّل الجمعية الأم لكل الخريجين، لذا فقد وضعنا ما استطعنا جمعه من حكايات من كبار الخريجين في مصر بين دفتي هذا الكتاب، الذي لم يكن ليرى النور لولا المساعدة والدعم الذي قدمته

جمعيتي خريجي فيكتوريا بالإسكندرية والقاهرة، وإمدادهم لنا بالصور الأرشيفية والنادرة لكلية فيكتوريا. وهنا نخصّ بالذكر كل من السيدة إيمان رزة والسيد فرنسيس والأستاذ علي النقيب من جمعية خريجي فيكتوريا الإسكندرية، ومن القاهرة المهندس علي صالح، والآنسة نرمين والآنسة دعاء من جمعية خريجي فيكتوريا القاهرة.

كذلك نخصّ بالذكر رئيسي مجلسي إدارة جمعية خريجي كلية فيكتوريا بالإسكندرية زكي الجزيري، والقاهرة المهندس إسماعيل عثمان، ومدير كلية فيكتوريا الحالي الأستاذ أسامة جنيد، ومن مجلس إدارة المدرسة الأستاذ ناصر فتيحة، والطالبين هشام ممدوح مصطفى، ومحمود صبحي سالم، وأستاذ مصطفى كامل مدرس أول اللغة العربية لما قدمه لنا من مجموعة من الصور الخاصة والنادرة عن طلاب نيجيريا تحديدًا.

نخصّ بالذكر أيضًا معالي السيد منصور حسن رحمه الله، الذي شجعني لمواصلة محاولات التنقيب عن الخريجيين ولم يبخل بوقته في إمدادي بالمعلومات واقتراح أسماء الخريجين بل وأرقام هواتفهم. كما أشكر الإمام الصادق المهدي، ومساعده السيد محمد زكي. كذلك لا يمكن أن أغفل معالي السيد أكرم النقيب، لما قدمه لنا من توجيه وقيامه بترشيح العديد من الشخصيات الفيكتورية لنا، والأستاذ إلهامي حسين نائب مدير كلية فيكتوريا الأسبق الذي كان له الفضل في فتح

نافذة الأمل بالنسبة لي للبحث وإمدادي بمجموعة كبيرة من الصور والمعلومات القيمة التي كانت بمثابة أولى خطوات جمع المادة لهذا الكتاب.

ولا يمكنني القفز على دور الدكتورة الفاضلة سحر حمودة لما قدمته من مساندة وتعاون وإمدادي بالمعلومات التاريخية القيمة سواء عن الإسكندرية الكوزموبوليتانية بشكل عام أو عن فيكتوريا بشكل خاص، كذلك المعماري المخضرم د. محمد عوض الذي أنار لي الطريق ووجهني لكي أقف على النقاط والمراحل الهامة في تاريخ كلية فيكتوريا، فضلًا عن أنهما بمثابة مرشدين للأجيال الجديدة لتاريخ الإسكندرية في عصرها الذهبي، وقد شرفت بأن جمعتني بهم سنوات عملي بمكتبة الإسكندرية، فكانت محاضراتهما نبراسًا لي، فلهما مني كل التقدير والاحترام.

ووراء هذا الكتاب مجهود كبير لأناس آخرين أعتبره دينًا في رقبتي، تحملت أكثره والدتي ثم والدي اللذين لهما الفضل بعد الله عزّ وجلّ في تقديم الدعم المعنوي والرعاية والاعتناء بي وبابنتي الرائعة سلوى التي كانت هي الحافز الأكبر لي لإتمام هذا العمل، ولم يكن الكتاب ليخرج أبدًا، دون المساندة والتشجيع اللذين أمدني بهما زوجي العزيز ورفيق رحلة الكفاح الصحفي محمد مصطفى، والذي تحمل الكثير وذلّل العقبات للوصول لبعض الخريجين، فلم يبخل بالجهد أو الوقت أو النصيحة، وصديقتي المخلصة كارولين كمال التي

كانت تجمعنا مناقشات عديدة حول تقنيات الترجمة من الإنكليزية إلى العربية والعكس، وأخيرًا وليس آخرًا أشكر أستاذي العزيز وأبي الروحي الشاعر المبدع جمال القصاص الذي رشحني ودعمني ليخرج هذا الكتاب الذي بين أيديكم بهذه الصورة. فجزيل الشكر لهم جميعًا.

الفصل الأول

حكاية كلية فيكتوريا

في نهاية القرن التاسع عشر كانت البداية، كانت الإسكندرية في تلك الحقبة «أميركا الشرق الأوسط» أرض الحلم وأرض الميعاد لجميع الجنسيات، وكانت تنطبق عليها حقًا مقولة الفيلسوف اليوناني الإسكندري فيلون «عدة مدن داخل مدينة واحدة»، وكان تعداد سكانها عام 1897 يبلغ حوالي 315.844 نسمة. وهو العام الذي وُلدت فيه فكرة تشييد كلية فيكتوريا.

كان إجمالي تعداد الأجانب في تلك الفترة 40 ألف نسمة أي حوالي خمس السكان وفقًا للتعدادات السكانية في ذاك العام. فكان اليونانيون يشكّلون 10 آلاف نسمة، والإيطاليون 8 آلاف، والفرنسيون 6 آلاف، والإنكليز 4800، والشرقيون (السوريون وغيرهم) 4800، والألمان والسويسريون 2200، و3200 جنسيات أخرى[1]. آنذاك كانت الجالية الإنكليزية على قناعة تامة بأنها أرقى الجاليات

(1) Omar Toussuon, Alexandrie en 1863, Alexandrie, 1933, p3.

في مصر ولا يمكن أن تجدهم في مهن عادية بل كلهم كانوا في مناصب قيادية.

ورغم أن الجاليات الأجنبية كبيرة جدًّا ومتنوعة لكنها كانت تشكّل جدارية متماسكة مترابطة لدرجة تجعلك تعتقد أن كل شعوب العالم كانت موجودة في الإسكندرية مما جعل لها طابع كوني جعل الرحالة والمستشرقين يقولون «اخرج من الإسكندرية كي تذهب إلى مصر».

وبرغم الزخم اللغوي الذي كان يغمر الإسكندرية إلا أن اللغة الفرنسية كانت هي لغة الطبقة الراقية من المجتمع المصري واللغة السائدة لدى أغلبهم، بل كان العامة والباعة الجوّالون يتحدثونها إلى جانب خليط من الكلمات واللهجات من مختلف أنحاء العالم. وكانت الإسكندرية مركزًا صناعيًّا وتجاريًّا نشطًا في ذاك الوقت، لذا فضلتها العديد من العائلات البرجوازية والعائلات الأرستقراطية، والذين استقطبتهم كلية فيكتوريا فضلًا عن علية القوم من أبناء الطبقة الحاكمة والحاشية والسياسيين والدبلوماسيين من مختلف أنحاء مصر والعالم.

ونظرًا لوجود كل تلك الجاليات كانت كل جالية تحرص على تعزيز وجودها وتقديم الخدمات لأعضائها، فكانوا يشيّدون المستشفيات والملاجئ ودور المسنين والنوادي والمطاعم والمحال التجارية، وكانت أهمها المدارس فكانت هناك مدارس الجالية اليونانية والأرمينية والألمانية والإيطالية والإنكليزية والاسكتلندية وغيرها، التي تضمن عدم إرهاق

أعضاء الجالية بمصاريف تعليم أبنائهم. لكن أغلب المدارس في تلك الفترة كانت ذات طابع تبشيري يقوم على الإرساليات الأجنبية كاثوليكية أو بروتستانتية.

ومع مرور الوقت وزيادة الاختلاط بين الجنسيات ورغبة الكثير من الأهالي في احتكاك أبنائهم بالجاليات الأخرى، ظهرت الحاجة إلى مدارس ذات طابع علماني بعيدة عن الدين وعن الانتماءات العرقية، وكان من بينها كلية فيكتوريا التي كان لها تأثير كبير في المجتمع المصري بل في الشرق الأوسط كله.

فيكتوريا وشراسة كرومر

في يوم من الأيام عام 1897، في منزله الفخم بمنطقة بولكلي برمل الإسكندرية، طرأت على ذهن السير تشارلز كوكسون، القنصل العام البريطاني، فكرة تشييد مدرسة إنكليزية في الإسكندرية، وفكر في طرحها على عدد من أعضاء الجالية الإنكليزية والجاليات الأجنبية التي كانت تشكل مجتمع الإسكندرية الكوزموبوليتاني[1]. فالتقى السير هنري باركر، رئيس الجالية البريطانية بالإسكندرية آنذاك، والذي سيصبح فيما بعد رئيس مجلس إدارة كلية فيكتوريا لمدة 30 عامًا، وصاحب فكرة إنشاء مدرسة الإنكليزية للبنات EGC بمنطقة الشاطبي بالإسكندرية.

وإذا بهما يلتقيان بأعيان المجتمع الإسكندري آنذاك مقدمين

(1) Armand Kahil, The origin and Purpose of Victoria College, old Victorian association alexandria magazine, spring 1986, p: 4.

لهم الفكرة، والتي لاقت حماسًا شديدًا من الجاليتين الإنكليزية واليهودية، إلا أن أحدًا لم يتخذ خطوات جدية لتنفيذ الفكرة.

وقد تحمس لفكرة تلك المدرسة البريطانية حتى النخاع عدد كبير من الأعيان ورجال الأعمال في الإسكندرية وكان أغلبهم أعضاء في القومسيون البلدي الإسكندري، ومنهم: القاضي ليونيل ساندرز، ورجل الأعمال جورج ألدرسون، والسير هنري باركر، وكان عضو الغرفة التجارية البريطانية، والسيد سيدني كارفر، أحد أكبر تجار القطن، والسيد هاري كينغهام مدير بنك الأنكلو أيجيبشن في الإسكندرية، والسيد روبرت موس، أحد أباطرة صناعة السفن في الإسكندرية، والسيد آرثر بريستون، المحامي البريطاني العام في مصر ما يماثل منصب النائب العام، ودكتور مارك آرماند روفر، رئيس المجلس الصحي، وإ. فورستر، وألفريد ألبان، وج. توريل[1]، إلى جانب كل هؤلاء الإنكليز كان هناك رجلان مرموقان من أهم الرجال المؤثرين في تاريخ الإسكندرية في عصرها الذهبي: أولهما هو البارون اليهودي جاك دو منشا رئيس غرفة التجارة الأسترالية الهنغارية، وعميد الجالية اليهودية في الإسكندرية، وله قصر لا يزال قائمًا حتى الآن في الإسكندرية بحي محرم بك، وسُمِّي الشارع الذي كان يقطن فيه باسمه، ورجل الأعمال الشامي الإسكندري جوزيف سابا باشا رئيس

---

(1) Sahar hamouda, Colin clement, Victoria College- A history revealed, second printing, 2004, AUC Press, P:18.

الهيئة العامة المصرية للبريد. والذي لا يعرف الإسكندريون عنه الكثير سوى أن هناك منطقة راقية تقع ما بين ستانلي وجليم سُمِّيت باسمه، وهو من عائلة سورية هاجرت إلى مصر منذ عام 1774 وما بعدها، كما تشير بذلك سجلات كنيسة الروم الكاثوليك بالقاهرة، وهو من مواليد عام 1852 القاهرة. ولما أتمّ علومه التحق بوظائف الحكومة المصرية، فعيّن في مصلحة البريد عام 1872، واستمر يرتقي درج الوظائف إلى أن عيّن مديرًا للبريد في الفترة من 3 كانون الثاني/يناير1887 إلى 15 أيلول/سبتمبر 1907. تقلد منصب ناظر المالية في نظارة محمد سعيد الأولى (23 شباط/فبراير 1910 ـ 5 نيسان/أبريل 1914). كما أوفدته الحكومة المصرية لتمثيلها في مؤتمرات بواشنطن وفيينا وروما. وتولى إدارة كثير من الشركات والبنوك المالية. وكان عضوًا في لجنة الثلاثين التي سنّت الدستور المصري في نيسان/أبريل عام 1922. وعيّن عضوًا في مجلس الشيوخ. وتوفي في عام 1924[1].

نعود إلى الغرض الأساس من إنشاء المدرسة وهو خدمة الجاليتين اليهودية والإنكليزية في الإسكندرية، كذلك الاستفادة المادية حيث كان الآباء الروحيون لهذا المشروع أهم وأغنى رجال أعمال في الإسكندرية ومصر. فكان تأسيس المدرسة بشكل أساس نوع من أنواع الأعمال يديره كبار رجال الأعمال

(1) عبد الوهاب شاكر، تاريخ البريد فى بر مصر، سلسلة ذاكرة مصر المعاصرة، 2013، مكتبة الإسكندرية.

في مصر آنذاك لذا حرصوا على أن تكون المدرسة غير خاضعة لجهة سيادية أو بعثات دينية. فكانت التابوهات المحرّمة لكل من اختار الدراسة بتلك الكلية هي الدين والسياسة والعرق.

وبالفعل اجتمعوا في 13 كانون الثاني/يناير من عام 1900، مشكلين جمعية عمومية تضمّ القنصل البريطاني العام بالإسكندرية، ورئيس الغرفة التجارية البريطانية، الذين اعتبروا الفكرة مشروعًا استثماريًا ناجحًا جدًّا في مدينة مثل الإسكندرية التي كانت مدينة عالمية، ورغم ذلك توقف المشروع لفترة بسبب التمويل.

وإذا بوفاة الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى وإيرلندا، في كانون الثاني/يناير من عام 1901 التي خرج من نسلها ملوك أوروبا وحتى اليوم، تحيي فكرة تشييد شيء يخلد ذكراها لدى الجالية البريطانية. وبالفعل اجتمع المساهمون بالمشروع وقرروا منحها اسم الملكة لتحظى المدرسة طوال ما يزيد عن قرن بمجد يماثل مجد فيكتوريا الملكة.

وبالفعل قام هؤلاء الرجال بجمع تبرعات من مختلف أطياف الإسكندريين قدرت بـ 544. 570. 3 جنيه، إلا أنهم كانوا في حاجة إلى مزيد من الأموال لاستكمال الإنشاءات.

ففكر عدد منهم في طرح الفكرة على اللورد كرومر المفوض السامي البريطاني في مصر آنذاك، لكنهم صدموا حينما رفض كرومر تخصيص مبلغ من السلطات البريطانية وأسدى لهم نصيحة بأنه طالما سيتم إنفاق أكثر من 3000 جنيه

على المباني فإنه من الأجدى تأجير شقة أو منزل كبداية، وقال لهم: عليكم بالاستعانة بأحد الموظفين الإنكليز بنظارة المعارف ليدير المدرسة لمدة عام وتدفع المدرسة راتبه[1].

رفض كرومر لم يكن أمرًا مستغربًا، فقد اتسمت الفترة الأولى من عهد كرومر بإهمال التعليم وتقليص ميزانيته لأقصى حدّ. وقد اعترف كرومر بأفكاره الاستعمارية في كتابه «Modern Egypt» أن الإنكليز قد أخذوا في أيديهم عملية تعليم المصريين في وقت حرج فقد صاحب وقت احتلال البريطانيين لمصر صحوة فكرية».

كانت مصر في ذاك الوقت تحت الاحتلال البريطاني، وكانت مصر تابعة اسميًا للأمبراطورية العثمانية، ويتولاها الخديوي بشكل صوري ولكن تحت إشراف إنكليزي. وكان اللورد كرومر (سير إفلين بارينج) أول معتمد بريطاني في مصر والحاكم الفعلي بها في الفترة ما بين عامي 1900 و1907، ولم يكن مستريحًا لما يراه من طموحات وخطوات المصريين الشرفاء للنهوض بالوطن واللحاق بقطار النهضة مرة أخرى كباقي الدول المتحضرة، ووضع كرومر نصب عينيه هدفًا استعماريًا ألا وهو أن تتمّ نجلزة(*) كل شيء في مصر إداريًا ولكي يتحقق ذلك حرص كرومر على أن يكون التعليم بالإنكليزية والحدّ من تعليم الفقراء وتدمير الطبقة الوسطى المثقفة.

(1) Sahar Hamouda, Victoria College, p: 19-20.

(*) المقصود جعل كل شيء إنكليزيًا.

كانت السياسة العامة في كافة المستعمرات البريطانية هي إبقاء شعوب تلك المستعمرات في مستنقع الجهل حتى يظلوا خاضعين لهم مبتعدين عن العمل بالسياسة وإبعاد حلم الاستقلال، كذلك إهمال التعليم الفني وتوجيه المصريين إلى الاشتغال بالزراعة فقط، في حين كان يتمّ تدريس كل الحرف في كلية فيكتوريا كما علمنا من خريجيها حيث كانوا يتعلمون النجارة والزراعة وتربية النحل وغيرها.

وكان كرومر لا ينفذ عمليًّا آرائه في ضرورة الاهتمام بالتعليم، وكان غالبًا ما يحتجّ بنقص الموارد وأن الإصلاح في التعليم لم يحن وقته. وكانت سياسته أن يكون هناك تعليم للأغنياء وتعليم آخر للفقراء.

ويذكر كرومر ذلك صراحة في خطاب أرسله للورد Lunsdowne عام 1904 يقول فيه «إن الجمعية العمومية المصرية عبّرت عمّا تريد، وهي أن يدرس القرآن بحرية أكثر وتلغى المصروفات والضرائب والامتيازات الأجنبية، وأن يقام برلمان على النظام الأوروبي، وهو برنامج واسع قد يتحقق جزء بسيط منه عام 2004»[1].

وكان كرومر موفقًا في اختيار من يحقّق سياسته، وكان قسيسًا اسكتلنديًّا يعيش بالإسكندرية يدعى دوغلاس دنلوب، كان يعمل مدرّسًا للعلوم ثم ناظرًا للمدرسة الاسكتلندية

(1) جرجس سلامة «أثر الاحتلال البريطاني على التعليم القومي في مصر 1882 - 1922»، مكتبة الأنجلو مصري، الطبعة الأولى، عام 1966، ص 49.

بالإسكندرية والتي كان مقرّها محطة الرمل، وتمّ تعيينه 1890 مستشارًا لوزارة المعارف وكان معروفًا بتعنته ضد المصريين والوطنين منهم خاصة إلى أن أطلق عليه «قيصر المعارف» وهو الذي كان معارضًا لحصول نبوية موسى على شهادة الثانوية العامة، وظل يدمر كل ما قدمه محمد علي باشا للنهوض بالتعليم في مصر حتى بداية الحرب العالمية الأولى عام 1914.

وأول ما أمسك بزمام الأمور أخذ على عاتقه محو الثقافة الفرنسية السائدة، فجعل اللغة الإنكليزية هي لغة التعليم القومي في مصر، وأطاح بالمدرّسين الفرنسيين واستبدلهم بالإنكليز، وأخذ في طريقة الإيطاليين الذين كانوا يشغلون العديد من الوظائف الحكومية أيضًا، ثم أخذ يطيح بالمصريين أيضًا واحدًا تلو الآخر من الوظائف الحكومية، واستهل قراراته المدمرة بإبعاد علي باشا مبارك، ثم قرر أخطر القرارات عام 1902 بإلغاء مجانية التعليم في مصر، وطالب الجمعيات الخيرية بأن تنتقي من تدفع لهم المصروفات وتلحقهم بالتعليم. فكانت النتيجة تخلّي الكثير من أبناء الشعب المصري عن حلمهم في استكمال تعليمهم. وسعى أبناء الطبقة الغنية إلى إلحاق أبنائهم بالمدارس التبشيرية والخاصة بالجاليات الأجنبية التي كانت تسمح بذلك.

وطرأت تغييرات حينما تولى سعد زغلول نظارة المعارف 1906 وانتهى عهد كرومر، حدثت انفراجات وتحققت نداءات الأصوات الوطنية بضرورة الاهتمام بالتعليم. واستطاع الزعيم

الوطني حينها إحلال اللغة العربية محل الإنكليزية، وشاركت حينها الجمعيات الخيرية الإسلامية والمسيحية في تحسين حال التعليم الشعبي، لكن تمّت محاربته كثيرًا من «دنلوب» وهو ما ذكره سعد زغلول في مذكراته مشيرًا إلى سياسة المستر دنلوب التي سار عليها منذ تعيينه والتي ترمي إلى «تضييق دائرة التعليم حتى لا تشمل إلا عددًا محصورًا من المتعلمين، ومقدارًا محدودًا من المعلومات، وإلى أن تكون وظائفه محصورة في الإنكليز خاصة. .؟»[1] وحينما دقّت طبول الحرب العالمية الأولى حاولت قوات الاحتلال استرضاء المصريين بإدخال تحسينات طفيفة على التعليم.

ويبيّن الكاتب الإنكليزي السير فالنتين Valentine Chirol الذي أرسلته جريدة التايمز اللندنية لدراسة أحوال مصر في كتابه «المسألة المصرية» مفسرًا إهمال الإنكليز لحالة التعليم في مصر بأن عددًا قليلًا جدًّا من الرجال المسؤولين هم الذين اهتموا بأمر التعليم، وأكّد أن سياسة الاحتلال التعليمية لم تكن لصالح الدولة «وهي دون نزاع أسوأ ما فشلنا فيه» وأنه تمّ تجاهل الاحتياج الشعبي للتعليم[2].

كانت العقبات التي وضعها كرومر أمام بناء كلية فيكتوريا كالسدّ المنيع، وهنا تدخل مستر جورج ألدرسون متبرعًا بقطعة

(1) مصطفى النحاس، مذكرات سعد زغلول، كتاب روز اليوسف، 1973، ص73.

(2) جرجس سلامة، مرجع سابق، ص 101.

أرض في مواجهة الميناء الشرقي العتيق بمساحة 25 ألف متر مربع، كانت تلك أرض الأزاريطة التي شهدت ولادة كلية فيكتوريا، وتبرّع بمبلغ مالي كبير لاستكمال إنشاء مباني المدرسة، كان يقدر بحوالي 2500 جنيه[1].

كان من الضروري اختيار مدير إنكليزي على أعلى مستوى لتلك المدرسة يضطلع بمهمة رسم مسارها ورؤيتها ونظمها التربوية ونسقها التعليمي الذي من المفترض أن يكون الأفضل على الإطلاق بين المدارس في مصر. ففكر المساهمون في نشر إعلان في الجرائد اليومية الإنكليزية وعلى رأسها التايمز اللندنية يطلب تعيين مدير للمدرسة في الإسكندرية.

وتضمن الإعلان تحديدًا للراتب الذي قدر بأنه 500 جنيه سنويًا، غير شامل تكاليف الإقامة، وكان من متطلبات الوظيفة أيضًا أن تتوافر لدى المرشح لها عدة مواصفات ضرورية وهي أن يكون علمانيًا - بمعنى ألا تكون لديه توجهات تبشيرية أو أي تعصب ديني - وأن يكون حاصلًا على درجة جامعية، وأن يتراوح عمره ما بين 25 و40 سنة، ولا بدّ أن يكون لديه اهتمام رياضي بممارسة الكريكيت وكرة القدم وغيرها. وتعكس الشروط ومتطلبات الوظيفة الفكر المستنير للإسكندريين في ذلك الوقت.

ووقع الاختيار على مستر تشارلز لياس Mr.Charles Lias

(1) Armand Kahil, The Victorian magazine, Ibid, p:4.

خريج King's College بكامبريدج، ليصبح أول مدير لكلية فيكتوريا وعلى مدار 20 عامًا، خلق فيها شخصية الكلية وروحها التي استمرت على مدار أكثر من قرن. وتمّ العمل على قدم وساق وأوصي بتولي تشييد مباني الأزاريطة للمعماري Mr.H.Favarger، وشركة البناء McClure and Dorling(1).

وما أن أصبحت المباني جاهزة، تنامى إلى سمع كرومر انتهاء مشروع تشييد مدرسة بريطانية بالأزاريطة، فقرر أن يقوم بوضع حجر الأساس لها في 15 نيسان/أبريل 1901. وعلى الفور تمّ تشكيل أول هيئة تدريس لتضم: شيخ محمد حامد لتدريس اللغة العربية، ومسيو جورج دومو للغة الفرنسية الرفيعة. ومستر موستارد ومستر ألفريد موريسون، ومستر أوبري. واقترح المساهمون أن يشرف على إدارة كلية فيكتوريا: مجلس أمناء المدرسة والذي كان على رأسه المندوب السامي البريطاني أو المفوض السامي والسفير فوق العادة، وقنصل بريطانيا العام بالإسكندرية، ورئيس الغرفة التجارية البريطانية. ووضعت المدرسة نظامها التعليمي الذي سيكون وفقًا لنظام التعليم البريطاني العام، والمطبق في المدارس النخبوية بها، وتمّ تدريس المناهج وفقًا لمناهج جامعتي أوكسفورد وكامبريدج، لكي يكون الطلاب على أعلى مستوى يمكنهم بالالتحاق بأي جامعة في العالم.

(1) Sahar Hamouda, Victoria College, 21p.

كل شيء أصبح جاهزًا الآن، المباني والمدرّسون، وأجريت المشاورات لتحديد موعد افتتاح الكلية التي ذاع خبر التجهيز لافتتاحها بين العائلات الأرستقراطية الإسكندرانية وباتوا يتنافسون على إدراج أسماء أبنائهم ضمن أول المنضمين إلى صفوفها.

ولكن وبعد عشرات السنين من وجود كلية فيكتوريا والعثور على بعض الأوراق الخاصة بالطلاب وجميع التفاصيل الحياتية عنهم، وبعد أن كشف بعض الخريجين عن أسرار وخفايا هذه القلعة البريطانية، لم يكن خافيًا أن السلطات البريطانية استغلت «كلية فيكتوريا» لجذب العائلات المنخرطة في العمل السياسي في مصر والدول العربية والأفريقية ممن يمكنهم الاعتماد عليهم في بسط المزيد من هيمنة الأمبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس، وكان ذلك يخدم سياستها وأيديولوجية «الإمبريالية الجديدة» والتي بدأت منذ عام 1870 وكان هدفها السيطرة على أفريقيا. وأعدت قوائم بأسماء أبناء كبار العائلات لكي يتمّ إلحاقهم بالكلية البريطانية وهو ما سنكشف عنه في الفصول اللاحقة.

سرت أخبار افتتاح المدرسة البريطانية الجديدة وتقدم الطلاب للمدرسة وكان عددهم قبيل افتتاحها 26 طالبًا من بينهم 11 طالبًا يهوديًا وثلاثة مصريين وثلاثة يونانيين، وطالب بريطاني واحد فقط وبقية الطلاب من الشوام، كان بينهم جورج أنطونيوس، أول مؤرخ للقومية العربية، وأشقاؤه مايكل وألبرت وكونستانتين أنطونيوس، وهم أبناء حبيب أنطونيوس أحد كبار

ملّاك الأراضي الشوام بمصر. أما المصريون فكان أول المنضمين منهم لفيكتوريا حسن ويوسف سري أولاد إسماعيل بيه سري، الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للأشغال العمومية[1].

ووضعت الكلية قاعدة هامة هي أن يتمّ تسجيل كل شيء خاص بها، سواء يوم وتاريخ دخول الطالب وجنسيته وعنوانه وديانته، وكل التفاصيل المتعلقة به، حتى تخرجه والجامعة التي ذهب للدراسة فيها سواء في إنكلترا أو أي مكان في العالم، وتاريخ وصول المدرسين والسيرة الذاتية لهم، كل ذلك بخط إنكليزي غاية في الروعة، هذا فضلًا عن الصور، وتمّ وضع تقليد الصورة السنوية للطلاب، مما ساهم في خلق أرشيف ضخم وفريد من نوعه لمدرسة! وبالتأكيد كان ذلك جزءًا من العمل الاستخباراتي بالمنطقة العربية.

وكان من الطريف أن نجد في سجلات المدرسة التي وضعت مرقمنة على موقع جمعية خريجي كلية فيكتوريا الإسكندرية على الأنترنت أو الموجودة في مقرّ الجمعية بوسط الإسكندرية، تصنيف الطلاب: للمسلمين «مسلم - محمدي - مسلمًا» و«إسرائيلي» لليهود، و«شامي» للشوام المنتمين بطبيعة الحال لسوريا ولبنان وفلسطين، و«يوناني أرثوذوكس»، أو «أرمني كاثوليكي» وهكذا. ولكن وفقًا لرغبة مؤسّسي الكلية كانت دروس الدين اختيارية وفقًا لرغبة الآباء، ولكنها ليست

(1) انظر سجل الطلاب المنضمين للكلية عام 1902، على موقع جمعية خريجي فيكتوريا الإسكندرية: www.thevictorian.net.

مادة للامتحان. فكان يدرّس الدين للمسلمين مدرّس اللغة العربية، وأحد قساوسة كنيسة سانت كاترين للدين المسيحي، والحاخام اليهودي من معبد إلياهو حنابي للديانة اليهودية.

وسنرى على مدار تاريخ كلية فيكتوريا الطويل أنه لطالما صاحبت المفارقات نشأة كلية فيكتوريا، فحينما تقرر بدء الدراسة فيها في تشرين الأول/أكتوبر من عام 1902 لم يتمّ ذلك بسبب وباء الكوليرا الذي اجتاح مصر للمرة الثانية، وحصد وفيات وقتها تقدر بـ 35 ألف ضحية.

وفي يوم الأحد الموافق الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر 1902، افتتحت كلية فيكتوريا أبوابها رسميًا. وكانت المصروفات المقررة هي ثلاث جنيهات في الشهر تشمل وجبة الغداء، وتمّ تحديد الإجازة الأسبوعية للكلية من منتصف يوم السبت ويوم الأحد بأكمله[1].

في السنة الثانية لافتتاح الكلية كان عدد الطلاب 27 طالبًا، من بينهم ثمانية من اليهود، ويونانيان اثنان وثلاثة مصريين وطالب واحد إنكليزي والباقي شوام، وكان عدد طلاب القسم الداخلي سبعة طلاب جاؤوا من القاهرة، وواحد من طنطا وأبو كبير بالشرقية، وأصبحت فيما بعد تستقطب الكثير من المصريين والأجانب من ربوع مصر مما استوجب

(1) Armand kahil, the Victorian magazine, centenary reunion, October 2002, p:7.

إحداث توسعات لاستيعاب الطلاب. وفي العام الثالث استقبلت المدرسة 70 طالبًا، ومع إلحاح الأسر استجابت إدارة الكلية لأن يتمّ افتتاح فصل للحضانة للبنين تحت رعاية شقيقة Mr.Lias، وذلك عام 1904.

ومع تضاعف الأعداد بشكل كبير، اجتمع مجلس الأمناء لبحث حلّ لمشكلة، وقدم الحل كعادته مستر ألدرسون على طبق من فضة، فقد قام بشراء أرض في ضاحية السيوف ـ كما كانت تسمى في ذلك الوقت ـ مساحتها 18 فدانًا. وطلب من مجلس الأمناء أن يتمّ نقل المدرسة لتتوسع وتستطيع استيعاب أكبر عدد من الطلاب، لكن أثار ذلك الحلّ جدلًا واسعًا بين الإدارة ومجلس الأمناء. فكيف يعقل أن يتمّ نقل المدرسة من مكان في قلب المدينة إلى منطقة مهجورة!

كان أول المعارضين المدير مستر لياس، الذي كان يخشى المجازفة بسمعه المدرسة التي بناها خلال أربع سنوات، فقد ظنّ أن الكثير من أولياء الأمور لن يقبلوا بإلقاء أبنائهم في وسط الصحراء، فقد كانت السيوف في ذاك الوقت أراض فضاء يقطنها بعض الأعراب يسكنون الخيام المصنوعة من الخيش ويقومون بتربية الأغنام.

حتى عام 1907 لم يكن هناك بعد ضاحية الرمل، بل كانت قرى قريبة من الإسكندرية وكانت إداريًا تابعة لمحافظة البحيرة، فكان الطابع الريفي يغلب على قاطنيها، ومع تزايد العمران انصهرت تلك القرى مع وفود العديد من السكان

الإسكندريين، وتحولت مع الوقت إلى ضاحية الرمل ودخلت حدود الإسكندرية عام 1927[1].

استقرت الآراء على أن يتمّ نقل الطلاب والمدرسة والتوسع بها لكي تصبح على نسق كلية «إيتون» الإنكليزية العريقة، وأن يكون بها قسم داخلي كبير مجهز على أعلى مستوى، وأن تطبق الأسلوب الإنكليزي في التربية والتعليم.

من السيوف.. إلى فيكتوريا!

في صباح 24 أيار/مايو 1906، شهدت ضاحية السيوف حدثًا تاريخيًا عظيمًا، تخلّده ـ أمام غرفة التربية الفنية الفسيحة وأسفل المبنى المبهر الخاص بالمعامل ـ لوحة رخامية تذكارية محفور عليها بالحروف الإنكليزية «كلية فيكتوريا.. شيّدت في ذكرى الملكة فيكتوريا لتقدم التعليم الحرّ لأبناء الطبقة الأرستقراطية من المصريين أو المقيمين بها، وتأهيلهم للمناصب القيادية في البلاد بغضّ النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية أو الجنسية». في ذلك اليوم وضع اللورد كرومر حجر أساس المدرسة الجديدة في يوم ذكرى ميلاد الملكة فيكتوريا نفسه، في حضور مئات من الضيوف المرموقين وعلى رأسهم: قناصل الدول، وحاكم الإسكندرية أو محافظها وقتها مصطفى باشا عبادي، وبطريرك بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم

(1) انظر فتحي أبو عيانة، «جغرافية سكان الإسكندرية»، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص 4 ـ 6.

الأرثوذكس، والحاخام الأكبر بالإسكندرية، ويعقوب باشا أرتين، سكرتير وزارة الأشغال العمومية، والذي كان له دور هامّ في الإصلاحات التعليمية في مصر، وتشييد العديد من المدارس وتشجيع المصريين على تعليم أولادهم. كما كان من بين الحضور أيضًا رئيس المحكمة المختلطة، ورئيس ميناء الإسكندرية، مايكل سينادينو، نائب رئيس الجالية اليونانية بمصر وغيرهم.

وكان افتتاح فيكتوريا حدثًا عالميًا مدويًا ووثقت هذا الحدث الصحف العالمية والمصرية الناطقة بالإنكليزية، من بينها: الإيجيبشن جازيت المصرية، والإيفينج بوست الناطقة بالإنكليزية والصادرة في نيوزلاند والتي أبرزت الحدث تحت عنوان «كلية مصرية AN EGYPTIAN COLLEGE» ولكن الكلية فتحت أبوابها فعليًا للطلاب في 15 تشرين الأول/ أكتوبر من العام ذاته.

تحدث في حفل الافتتاح قنصل بريطانيا العام في الإسكندرية السيد غولد Mr.E.B Gould، والبارون جاك دو منشا ممثلًا عن مجلس أمناء الكلية، مفسرًا الأسباب التي دفعتهم لتشييد المدرسة، ألا وهي زيادة الفرص التعليمية المتاحة في مدينة بعظمة الإسكندرية. فقد كانت تلك المدينة التي منها بدأ كل شيء على طريق النهضة في مصر. فمنها التقطت أول صورة فوتوغرافية، ومنها بدأت أول صحيفة، ومنها بدأت السينما.. والقائمة تطول.

وكان خطاب اللورد كرومر كالتالي:

خطاب اللورد كرومر في حفل إرساء حجر الأساس في ضاحية السيوف

في 24 أيار/مايو عام 1906

السيد جولد، سيداتي، آنساتي، سادتي.

حينما أُنْشِئت مدرسة كلية فيكتوريا، أعرب البعض عن توجسهم حيال مستقبلها، ولكن هذه التوجسات قد تمّت إزالتها ولنا الآن أن نقول إن هذه المؤسسة قد تعدّت المرحلة التجريبية. فنحن مجتمعون هنا في ذكرى ميلاد ملكتنا الموقرة لإرساء حجر الأساس لمؤسسة أكبر وأكثر كمالًا عن سابقتها، وأوعز هذا النجاح المؤكد والمشهود لسببين أساسيين: أولهما، المجهودات الحثيثة التي قامت بها هيئة المدرسة، وأذكر بالأخص كرم مواطني الذي أنعم على مدينة الإسكندرية عبر طرق شتى. لا يغيب عنكم بالطبع أنني أقصد السيد أولدرسُن. أما السبب الثاني، فهو استقدام الخاصية التي قد تكون الأفضل في نظام التعليم العام البريطاني. قال السيد لياس في تقرير حديث محورًا مقولة الناظر الفاضل د. أرنولد إنه علينا أن نجعل من هذه المدرسة «عصارة البيت». قد يكون من الأفضل أن نلجأ لتسمية «نموذج للبيت»، فهذا بالفعل هو ما يتمّ هنا، فالأساتذة يحتكون بالتلاميذ عن قرب وبصورة مستمرة. وحسب فهمي، قررت هيئة المدرسة بحكمتها استقدام نظام رئاسة المنازل المدرسية، مما يزيد من انغماس مساعدي الأساتذة في شؤون المدرسة. يحضرني أيضًا في هذه المناسبة ملحوظتان

أكثر عمومية: أولًا أنني أثق في قيام جميع الأشخاص المؤثرين ببذل قصارى جهدهم لمنع روح الطائفية الدينية الخبيثة من الوقوف في طريق تطور التعليم. يسعدني أن أقول إنه بالرغم من تعدد العقائد في هذه البلد، إلا أن هذه الروح لم تظهر بوجه ملحوظ. هنا نجد مدارس تعلم القرآن وأخريات يتمّ فيها التعليم من خلال الإنجيل من قِبَل المذاهب المسيحية المتعددة. كما تعلمون، فإن التعليم الديني ليس إجباريًا في هذه المدرسة، بل يتمّ تقديمه للتلاميذ حسب طلب الآباء الراغبين فيه ويدرّسه معلمون من اختيار الآباء ذواتهم.

سادتي، إن مصر تتسع لمدارس تتسم بكل هذه المواصفات المختلفة، وأضيف أيضًا إنني رغم حثّ الكثيرين لي لدفع الحكومة المصرية لوضع سياستها التعليمية على أساس مختلف وأكثر عقلانية من الناحية النظرية عن الوضع الحالي، إلا أنني كنت دائمًا أرى ـ ولا زلت ـ أن هذه حالة ينطبق عليها بشدة المثل التقليدي القائل «دعه وشأنه»، فإن أهم الاعتبارات في رأيي هو ترك التعليم ليتقدم ـ وهو يتقدم بالفعل بخطوات واسعة وثابتة ـ بدون نشر نيران الفتنة الطائفية.

أما النقطة الثانية التي تركت عندي انطباعًا عميقًا، هي أن تكوين هذه المدرسة يمثل نموذجًا مصغرًا للمجتمع المصري الكوزموبوليتاني، فقد تمّ إعلامي أنه من أصل 186 تلميذًا، 90 منهم مسيحيون، و67 من بني إسرائيل (يهود)، و39 مسلمون. أما بالنسبة للجنسيات، فنجد تلاميذ من مصر، وتركيا، وسوريا، وأرمينيا، ومالطا، واليونان، وإنكلترا،

وفرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا، وهولندا، وسويسرا، وبلجيكا. هناك العديد من المدارس المماثلة في مصر، ولا مفرّ من أن يكون لهم أثر طيبٌ، فمبدئيًا، بالنسبة للعلاقات بين الأوروبيين وأهالي مصر الأصليين، فلديّ أمل كبير أن ينبثق عن هذا الاندماج العرقي بمرور الوقت نوع من التأثير ينتج عنه إزالة سوء الفهم الذي يغذي الكراهية العرقية أكثر من أي اختلافات واقعية في الرأي. أما بالنسبة للعلاقات بين الأوروبيين وبعضهم البعض، فلنا أن نأمل أنه كلما اختلطت الأجيال الصاعدة من الجنسيات المختلفة، كلما زاد تقديرهم لحقيقة أراها أنا ومنذ سنين، ألا وهي أن الأوروبيين المقيمين في مصر (والذين تعتمد عليهم البلد بشكل كبير في تقدمها المادي والأدبي) تجمعهم مصلحة مشتركة. أعتقد أنني لحظت خلال الأعوام القليلة الماضية نقصًا واضحًا في الروح التنافسية والاحتقان الدوليين اللذين تسببا في الكثير من الضرر. إنني آمل بصدق أن هذه الحركة الصحية سوف تتطور بسرعة وأن يرى جميع الأوروبيين المتعلمين في هذه البلد أنهم يقفون معًا ممثلين للحضارة الغربية. لهذا السبب ولأسباب أخرى، أرحّب بإنشاء كلية فيكتوريا كمؤسسة تستحق اسم الملكة التي تحمل اسمها.

أثق أن هذه الخطوة ستساعد إلى حدّ ما في المزيد من الاندماج السياسي والاجتماعي للأعراق المختلفة التي تسكن وادي النيل. قد لا يكونوا كلهم مصريين بالمعنى المحدود للكلمة، إلا أنهم يستحقون هذه التسمية بمعناها الأوسع والأكثر صدقًا، فكلهم يعيشون في مصر وكلهم مهتمون

بمصلحتها. إنني أرى أن توجيه وتسهيل هذا الاندماج يجب أن يكون مصب جهود كل الحالمين بالإصلاح في مصر»[1].

. . . .

وهكذا، جاء خطاب كرومر ليدشن الكلية التي كانت مسخَّرة تمامًا لتكون رمزًا للهيمنة البريطانية في الشرق الأوسط، عبر هؤلاء التلاميذ الذين سيصبحون وسيلة الإمبراطورية في السيطرة على جموح العرب وسعيهم للحكم الذاتي. وبالفعل انتقل الطلاب المنتمون إلى أرقى طبقات المجتمع وإلى ديانات وجنسيات مختلفة تصل إلى 22 جنسية إلى مباني السيوف المهيبة، لكن كانوا ينظرون بحرص وحذر إلى هذا العالم الآخر المختلف تمامًا عن حياتهم، خارج الكلية، حيث يرعى الأعراب الأغنام ويتحركون بواسطة الإبل التي تسير في هوادة حول المكان.

وكان أهالي الإسكندرية ينظرون إلى تلك المباني الضخمة باعتبارها قلعة بريطانية عتيدة، وينظرون لطلابها باعتبارهم «خواجات» حتى لو كانوا مصريين من الصعيد! بل كانت الكلية من المعالم التي تستحق التوثيق الفوتوغرافي

---

(1) للاطلاع على المزيد من المعلومات حول نشأة وبداية كلية فيكتوريا، انظر كتاب د. سحر حمودة وكولين كليمنت، **Victoria College- A history revealed**، الذي يروي بالتفاصيل التاريخية الدقيقة كل مرحلة من مراحل كلية فيكتوريا، وقد تمّ الاعتماد على هذا المرجع بشكل أساس نظرًا لأن كل من عاصروا نشأة كلية فيكتوريا منذ عام 1897 لم يعد لهم وجود الآن.

لدرجة أن المطابع المتخصصة في صناعة البطاقات البريدية (Cartes Postales) التي كانت رائجة في الإسكندرية الكوزموبوليتانية، بدأت في عرض مجموعة من الصور للكلية الإنكليزية. ومنذ افتتاح كلية فيكتوريا تحول اسم المنطقة من ضاحية السيوف إلى فيكتوريا.

محطة ترام فيكتوريا

قد يعتقد البعض أن تلك المحطة التي تُعدّ نهاية خط ترام الرمل، سُميت كذلك تيمنًا باسم الكلية الشهيرة أو لأنها أشهر ما في تلك المنطقة، ولكن لا يعلم الكثيرون أن تلك المحطة شيّدت خصيصًا لنقل طلاب الكلية ذهابًا وإيابًا نظرًا لأنها كانت تعتبر بعيدة جدًّا عن المناطق السكنية التي ينتمي إليها الطلاب، مما جعل نصف مباني السيوف الضخمة خاوية من الطلاب، فقامت شركة ترام الرمل الإنكليزية بحل تلك الأزمة بمدّ خط الترام إلى ضاحية السيوف مقرّ كلية فيكتوريا وتكون تلك المحطة نهاية خط الترام حتى يومنا هذا، ومن هنا سُمّيت تلك المحطة باسم فيكتوريا. حتى بعد أن تغيّر اسمها إلى «محطة ترام النصر» فلا يزال الاسم الذي خلعته كلية فيكتوريا على تلك البقعة مرتبطًا بكل ما فيها، فإذا أردت أن تذهب إلى كلية فيكتوريا يجب أن تطلب الذهاب إلى ميدان فيكتوريا، أو تقول محطة ترام فيكتوريا!.

وقد وصفها الكاتب الإنكليزي إ. م. فورستر في كتابه الإسكندرية تاريخ ودليل: «محطة فيكتوريا وهي نهاية الخط..

وتوجد هنا محطة سكة حديد لخط أبو قير وخط رشيد، وتوجد في هذه المحطة كلية فيكتوريا «كلية النصر» وهي مبنى ضخم وتقوم بتعليم المواطنين في مصر على طريقة المدارس الإنكليزية الحكومية بغضّ النظر عن عقيدتهم أو جنسهم، وقد دعمها اللورد كرومر الذي قام بتقديم منح دراسية بها»[1].

الشركة الإنكليزية بالطبع لن تقدم خدمة عادية لمواطنيها، فكان منها أن أدخلت لأول مرة الكهرباء لتسيير عربات الترام بعد أن كانت تجرّها الخيول ثم سيرت بقوة البخار، لتكون تلك نزهة محببة لطلاب الكلية ومدرّسيها تحفل بذكرياتهم وأوقاتهم المرحة على مدار أكثر من قرن من الزمان، فما زال الكثير منهم يحملها معه حتى بعدما هرم وضرب الشيب رأسه.

وعن الترام يحدثنا الكاتب والمهندس الأردني د. عبد الفتاح طوقان، (تخرّج VC 1975) عن ذكرياته مع الترام «القاطرات التي كانت تمثل متعة التنقل لنا كطلاب كلية فيكتوريا، والشريان الحيوي الذي، أيام الدراسة، كان في الصباح يماثل عربات خاصة مليئة بطلاب يلبسون السترة الزرقاء والبنطال الرصاصي للقسم الثانوي، والسترة والبنطال الرصاصي للمرحلة الإعدادية والابتدائية».. كانت عربات الترام شبه قطاع خاص لطلاب كلية فيكتوريا وكانت المدرسة تُعيِّن مشرفين في الصباح

---

(1) إ. م. فورستر، الإسكندرية تاريخ ودليل، ترجمة حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص 218.

والمساء لمتابعة الطلبة والحفاظ على سلامتهم، وكان الترام جزءًا من المدرسة لا خارجًا عنها ويحمل اسمها. وفي تلك الرحلات كثيرًا من الذكريات وقصص الحب والمغامرات، إنها متعة لا تجدها في أي بقعة مواصلات، حيث قرب الترام الطلاب وجمعهم في رحلة صباحية ومسائية. وربط بينهم وبين المدارس الأخرى على الخط، ولتلك قصص أخرى وحكايات».

وفضلًا عن الترام، وتعمير ضاحية السيوف شرق الإسكندرية؛ كان من ثمار كلية فيكتوريا إنشاء كلية إنكليزية للبنات EGC ذات مستوى تعليمي يضاهي تعليم البنين في فيكتوريا، وهو المطلب الذي كان ملحًّا للأسر الأرستقراطية. وكانت أيضًا «كلية فيكتوريا» سببًا في دفع اللورد لويد عام 1929 لإنشاء مدرسة النصر للبنين بالشاطبي E.B.S، لأبناء الرعايا البريطانيين غير القادرين على دفع المصروفات الباهظة لكلية فيكتوريا في ذلك الحين.

افتتاح الدوق البريطاني للمدرسة

وتعود كلية فيكتوريا لتسطّر لنفسها مكانًا متميزًا في حنايا التاريخ، ففي 27 آذار/مارس 1909، أقيم حفل افتتاح ملكي للكلية في حضور دوق كونوه ابن الملكة فيكتوريا، الذي رافقته زوجته الدوقة وابنتهما الأميرة باتريشيا. وكانت من عبقرية الإدارة أن تجعل تسليم الشهادات احتفالًا رسميًّا يتسلّم فيه الطلاب شهاداتهم من يد الدوق شخصيًّا، والذي ألقى كلمة

للطلاب أعرب خلالها عن سعادته بافتتاح المدرسة التي تحمل اسم والدته الملكة والتي تمنح خريجيها شهادات من أوكسفورد وكامبريدج، حفزّهم فيها على مواصلة التعلم والاجتهاد في طلب العلم، ثم قام بجولة لتفقد مباني الكلية التي صمّمها المعماري الإيطالي الإسكندري هنري جورا، على الطراز الإنكليزي الممزوج بملامح فن العمارة الإسلامية، لتعبّر عن طبيعة المدرسة العالمية. وكان جورا من أمهر المعماريين في العالم وهو مصمّم المدرسة المركزية في باريس، وأضفى عليها طابع العمارة الإسلامية من مقرنصات وزخارف مما أعطاها سحرًا شرقيًا ممزوجًا بعمارة عصر النهضة الإيطالي.

وقد برع جورا باستغلاله لمساحة 18 فدانًا تقع على بعد 300 متر من البحر، في تصميم ستة أبنية، تضمّ فصولًا دراسية تسع 22 تلميذًا، ومكتبة رحبة، ومكاتب إدارية، وصالة طعام شاسعة تسع 500 طالب، ومطبخ عملاق ملحق بها، وسكن لطلبة القسم الداخلي، والمعامل التي جيء بكل معداتها من إنكلترا ولا تزال موجودة حتى الآن، إضافة إلى تطويع التصميم بحيث يتيح للطلاب الاستمتاع بمساحات شاسعة من الملاعب والحدائق الوارفة الأشجار التي لا تزال تحتضن مجموعة تخلب الألباب من الأشجار النادرة والعتيقة التي لا مثيل لها. وكان يوجد بالكلية أربعة ملاعب قانونية لكرة القدم فضلًا عن ملاعب أخرى لكرة الطائرة وكرة السلة وكرة اليد وملاعب للتنس والكريكيت، ولم يكن بها حين شيّدت حمام السباحة الأولمبي، ولا المسرح ولا الجمنازيوم ولكنهم شيّدوا فيما بعد بناء على تبرعات من كبرى العائلات الإسكندرية.

وعلى مدار عقود، في تلك البقعة النائية بضاحية السيوف بالإسكندرية، كان طلاب كلية فيكتوريا يمثّلون جدارية من الثقافات والديانات والأعراف انصهرت تحت مظلة الثقافة البريطانية. فقد اعتبر القائمون على إدارة تلك الكلية أنها تجمع ما بين الفضائل المأخوذة من دولتين عظميين، هما المملكة المتحدة ومصر، فأخذت أفضل ما في الثقافتين.

الآن وبعد كل هذا التاريخ ورغم ما حاق بالمدرسة من فساد وإفساد، لا يزال الطلاب يفخرون بأنهم ينتمون إلى تاريخ عمره 111 عامًا، إلى ذلك المكان الأسطوري الذي صنع بريق قادة العرب. ففي السنوات الأخيرة تعرضت كلية فيكتوريا للنهب والسلب، وسرقت معظم الصور النادرة والأشياء والمقتنيات الثمينة التي كان عمرها يزيد على المئة عام، حتى أن جرس المدرسة الضخم الذي كان أشبه بجرس كاتدرائية عتيقة.. قد سرق!.

ورغم كل ذلك التدهور الذي حاق بمصيرها وأفولها على مدار أكثر من 20 عامًا، فها هي تنجب المبرمج العبقري عمر عوبيه، الذي تمّ تصنيفه دوليًا ضمن أفضل 30 مبرمجًا شابًا على مستوى أفريقيا وأوروبا وشمال آسيا في معرض «غوغل» للعلوم.

وأصبح طلابها يتحاشون العبث بأي من مبانيها أو مقتنياتها احترامًا للمجد الذي كانت عليه يومًا، فهم يحسبون عمر مدرستهم الأثيرة التي بلغت في 2 تشرين الثاني/نوفمبر 2012، 40150 يومًا، و963600 ساعة، و110 أعوام.

الفصل الثاني

الحياة داخل أسوار كلية فيكتوريا.. القلعة البريطانية في الإسكندرية

والآن سنقطع تذكرة لركوب آلة الزمن ونضبطها لنعود بها 111 عامًا إلى الوراء، كانت تلك القلعة البريطانية لها نواميسها وقوانينها التي لا يمكن تخطيها، فهي لا تقبل سوى أبناء النخبة والطبقة الراقية، بغضّ النظر عن جنسيته أو هويته، وكان دخول كلية فيكتوريا يعني مبدئيًا الولاء للزي المدرسي وشعار الكلية.. لا انتماء لأي مكان آخر، كما يعني تخلّي الطالب عن اسمه الأول، فسوف يُنادى باسم أبيه أو اسم العائلة. وهو تقليد اتّبعته بعض المدارس فيما بعد. وكان هذا التقليد سببًا في أن تكون معرفة الطلاب ببعضهم على أساس عائلاتهم. فكان من الطبيعي أن تجد ترابطًا وتآخيًا بين العديد من العائلات التي قد أدخلت أبناءها المنتمين لمراحل عمرية مختلفة والذين قد يجمعهم مقعد دراسي واحد.

وكان ما يميّز كلية فيكتوريا عن باقي المدارس والمعاهد آنذاك هو استقطابها لأجيال عديدة من أبناء كبرى العائلات في

الشرق الأوسط، فكان يمكن أن تجد الجدّ والأب والابن والحفيد ضمن كشوف طلاب كلية فيكتوريا، كانت العائلات الأرستقراطية ترسل أبناءها جيلًا وراء جيل إلى هذه الكلية، لتأكدهم من أن أبناءهم سيلقون الرعاية والاهتمام نفسهما اللذين كانوا يلقونهما، وكان كذلك حال «الفراشين» أو «الدادات» الذين تمّ انتقاؤهم بعناية شديدة من قبل إدارة الكلية، والتي كانت تحرص على أن يعمل أبناؤهم أيضًا من بعدهم لثقتها في إجادتهم التعامل مع أبناء الملوك والأمراء والنبلاء من جميع أنحاء العالم، مما جعل الكلية أشبه بمجتمع عائلي كبير مغلق، حيث كان الشعور الذي ما زال يغمر الخريجين أن كلية فيكتوريا هي بيتهم الذي شهد ذكريات عائلية أكثر منها مدرسية.

كان ناموس كلية فيكتوريا المقدس ينصّ على آداب الملبس والهندام، التي تتطلب ضرورة استخدام ربطة العنق، الحذاء البراق، القميص ذي الياقة المنتشية والشعر المصفف بعناية شديدة، تحريم التعطر بعطر فواح، أو ارتداء حلي سواء من ذهب أو فضة، والأظافر المقلمة، الهيئة الرياضية وتنسيق القوام.. آداب المائدة.. كل ما يلزم لكي يصبح الطلاب في قمة الأناقة التي تليق بأبناء العائلات الملكية والأمراء.

وكان عدم الالتزام بالزي المدرسي يمثل أحد الكبائر التي قد تستوجب الطرد من الكلية تمامًا كقلعة حربية عسكرية. لذا كان الطلاب يبتاعون الزي المدرسي من محلات «دافيز برايان» الإنكليزية التي كان مقرّها في شارع شريف بوسط الإسكندرية في أحد العقارات التي لا تزال موجودة حتى الآن

وكان للمتجر فروع في القاهرة والإسكندرية والخرطوم. وكان لديه خياطون إنكليز وكل الخامات كانت من بريطانيا. والتي كانت توفر بلوفرات وجوارب ذات صوف إنكليزي لم تكن لها مثيل ولم تكن تُباع في الإسكندرية.

شعار المدرسة .. كلمة السر بين الفيكتوريين

حياة طلاب فيكتوريا تتخذ من شعار الكلية عنوانًا لها. فشعار المدرسة متميز وهو مكتوب باللغة اللاتينية، يدلّ على عالمية المدرسة، ولا يزال يتردد في أرجائها ولا يزال خريجوها يردّدونه في كل المحافل بل ويعتبر كلمة السرّ التي تجمعهم على اختلاف أعمارهم.

يعود الفضل في اختيار هذا الشعار الذي يعكس سياسة الكلية في التعامل مع الطلاب، ويعكس الروح السائدة بين الطلاب، إلى مستر لياس Lias أول مدير لكلية فيكتوريا والذي وجد أمامه أولادًا من جنسيات وديانات مختلفة وظل حائرًا كيف يوحّد انتماءاتهم، وإذا به وهو في غمار الأفكار تطرأ على ذهنه قولة شهيرة للشاعر الإسكندري كلوديان (Cuncti Gens Una Sumus)، والذي يعني بالعربية «معًا كلنا واحد» وبالإنكليزية «Together we are one»، أي إن كل منا يشبه الآخر وكلنا نشكل فردًا واحدًا بعيدًا عن أي تمييز.

وتكمن عبقرية لياس في اختيار هذا الشعار أنه استطاع جمع كل الطلاب وكأنهم ينتمون لشيء أسمى وأرقى من كل المسميات العنصرية وأنهم بشر متساوون في الحقوق

والواجبات. استطاعت كلية فيكتوريا خلق نوع جديد من الانتماء وهو «الانتماء الفيكتوري» الذي تلمسه واضحًا بين خريجيها في تجمعاتهم السنوية والشهرية وفي فخرهم بانتمائهم إليها في أي محفل. وبقدر سعادتهم للحصول على لقب خريجين فيكتوريا «Old Victorian» إلا أنهم يشعرون بالحزن لمغادرة المدرسة ويفتقدون أيامها.

استمرت الروح التي بثّها مستر لياس في خريجي الكلية، لذا فقد ولد شعار جديد لقدامى الفيكتوريين، هو «Almae Matris Alumni Fideles» ويعني «الإخلاص للمدرسة الأم»، وحاليًّا اتخذ الخريجون الجدد شعارًا آخر يعزِّز هذا الانتماء ألا وهو «Loyal Victorians».

شارة المدرسة «البادج»:

تلك الشارة التي كانت تعني الانتماء لتلك الكلية الإنكليزية، حيث كان «البادج» المميز على الزي المدرسي دائمًا مصدر فخر للطلاب وهو يحمل دلالات بليغة على أيديولوجيتها، فهو تتوسطه التموجات البيضاء التي ترمز للنيل وتتوسطها ثلاثة من زهور القطن، كدلالة على مصادر ثروة مصر، وأسفل ذلك توجد مساحة باللون الأزرق القاتم «الكحلي» وهو لون أوكسفورد، تخترقه شارة ذهبية مفرغة من الداخل على شكل حرف V مقلوب، تمثل رمال الصحراء. أما الأزرق الفاتح الذي يغمرها فهو يمثّل لون جامعة كامبريدج، وتحيط بتلك الشارة ثلاثة أشكال لمقياس النيل رمز الاستقرار في مصر القديمة.

فيكتوريا.. إيتون الشرق الأوسط

كانت فيكتوريا كلية الصفوة بحق.. فجميع أنشطتها وأحداثها تصبح مثار حديث وثرثرة السيدات والباشوات والبكوات. وبالفعل استحقت لقب «إيتون» الشرق بل كانت لتتفوق على كلية إيتون البريطانية للبنين التي يفصلها نهر التايمز عن بلدة ويندسور، وتأسّست عام 1440 بأمر من الملك هنري السادس. وهي مدرسة داخلية خاصة للبنين تخرّج منها 18 من رؤساء الحكومة البريطانية، والأميران وليام وهاري ابنا ولي العهد الأمير تشارلز.

كانت كلية فيكتوريا نموذجًا مثاليًا للمؤسسات التعليمية في العالم، فكان العربي يدرّسه شيخ من الأزهر أو خريج دار العلوم، والفرنسي يدرّسه مدرّس فرنسي الجنسية، والإنكليزي يدرّسه إنكليزي متمكّن من اللغة وعلى درجه عالية من العلم والثقافة، وكانت العائلات الملكية في العالم العربي وفي أوروبا وأفريقيا ترسل أبناءها ليتم وضع خطة تعليمية لهم أشبه بالدورة التأهيلية لتمكنهم من الإلمام باللغات والعلوم والآداب والبروتوكولات الملكية، فكانت القصور الملكية العربية تلجأ إلى مدير كلية فيكتوريا لاستشارته في كيفية إعداد ملوك العرب والكتب التي يجب أن يطلعوا عليها.

تذكر الكاتبة عزة هيكل في مقال لها بمجلة أمكنة: «كطلاب جديرين بكلية فيكتوريا نشأ إخوتي على نسق طلاب «إيتون» فعلموا أصدقاءهم الكريكيت وتنس الريشة والإسكواش، وكان نزاعًا أبديًّا بيني وبينهم: وضع التعليم الفرنسي والإنكليزي

في مواجهة. كنت أعود إذن من المدرسة منهكة القوى ولدي جمل للإعراب وشعر للحفظ، والتعليق على النصوص التراثية الرصينة، ومسألة الرياضيات تنتظر حلًّا وخريطة يجب رسمها وللترجمة نصّ لاتيني، أما أخوتي فيعودون من المدرسة مرتاحي البال لدرجة لا توصف، وبحسب تعبيرهم: ريلاكس، يُعدّ أحدهم قفازات الملاكمة، ويدندن الآخر مقطوعة من أوبرا «ريجوليتو» (السيدة المتقلبة) التي تعلمها في درس الموسيقى، والثالث غارق في مطالعته للسلاسل الكوميدية الإنكليزية ذات الرسوم، وأغتاظ من هذا الظلم الفادح، كانوا من الصفاقة لدرجة أن يعيدوا عليّ مقولة علمتها لهم أنا بنفسي وهي: (الرأس المعدّ جيدًا أفضل كثيرًا من الممتلئ تمامًا).

مرة كل عام أحضر اليوم الرياضي لكلية فيكتوريا، وهو حدث مهم في الإسكندرية، يماثل أهمية نهائيات دوري التنس في «رولاند جاروس»، وأشجع بحماس فريق أخوتي «بيرلي هاوس»، ذا اللون الأزرق، وألتقي بالعديد من صديقات الفصل الآتيات ـ هن أيضًا ـ لتشجيع أخوتهن، ماجدة تشجع «باركر هاوس» الأسود، ملك «بارك هاوس» الأخضر، باتريشيا «أولدرسون» الأحمر، هدى وفيكي «ريدر الأصفر»، وهكذا فقد كان تقليدًا سائدًا في الإسكندرية أن يسجل الصبيان في مدرسة إنكليزية والبنات في مدرسة فرنسية»[1].

(1) عزة هيكل، مقال بعنوان «عمارة هيكل»، مجلة أمكنة، العدد السابع، كانون الأول/ديسمبر 2005، ص 124.

بالفعل كان حال بيوت الطبقة الراقية كذلك غالبًا ما تكون إما في حالة مواجهة ومزيج من التعليم الفرنسي والإنكليزي، أو أن يذهب الصبية إلى كلية فيكتوريا والفتيات إلى EGC، فكبر أبناء تلك العائلات وترعرعوا في الدائرة الأرستقراطية نفسها وظلّت علاقاتهم على مدار عشرات السنين أقرب للعلاقات الأسرية. كانت المواد التي تدرّس بالكلية اللغات اليونانية والفرنسية والإنكليزية والعربية والرياضيات والجغرافيا والتاريخ الإنكليزي.

والطريف أن عقبة من العقبات التي واجهت المدرّسين الإنكليز في كلية فيكتوريا كانت أن الطلاب كانوا متفوقين في اللغة الفرنسية أكثر من الإنكليزية ويتحدثونها بطلاقة، كما لو كانوا فرنسيين برغم اختلاف جنسياتهم وبالأخص أبناء الإسكندرية الذين كانوا يتقنون تلك اللغة، كما أنها كانت لغة العديد من المؤسسات والهيئات الحكومية والتي لم تخضع للهيمنة الإنكليزية بعد، فضلًا عن أنها كانت لغة أبناء الطبقة الراقية التي يتحدثونها ويمارسونها في الحياة اليومية عند طبيب الأسنان وعند التسوق وفي المطاعم بينما يتحدثون مع بعض المصريين بالعربية، وداخل المدرسة بالإنكليزية، فكان الطلاب يتعايشون عبر ثلاث ثقافات فرنسية وعربية وإنكليزية تتلاقح بشكل مستمر. وهو ما أكّده أحد الطلاب في عدد مجلة «ذا فيكتوريان» الصادر عام 1913 الذي يؤكد أن اللغة الغالبة بين الطلاب هي الفرنسية برغم أن الكلية التي ينتمون إليها إنكليزية» وكان ذلك بعد مرور أكثر من عشر سنوات على تأسيس كلية فيكتوريا!.

يوم العلم Speech day

وكان من أبرز إنجازات مستر لياس Lias أول مدير لكلية فيكتوريا، الطقس الاحتفالي السنوي الذي يُقام ليجمع المفوض السامي البريطاني وكبار الوزراء بالدولة والشخصيات العامة المصرية والأجنبية ونخبة المثقفين فيما يعرفه جيدًا جميع الخريجين كيوم مميز في حياتهم بـ Speech day، ليظل محفورًا في ذاكرتهم حتى يبلغون أرذل العمر. وكانت البداية عندما حضر دوق كونوه وتسلم الرعيل الأول من أبناء كلية فيكتوريا شهاداتهم منه، فكان لذلك أثر عظيم في أنفسهم وفي تحفيزهم للتفوق، ثم أخذت الكلية في تطبيق هذا الطقس الذي أصبح أحد تقاليدها التي لم تتخلَّ عنها، بداية من عام 1910 حينما تسلّم الطلاب شهادات تخرّجهم من يد السير إلدون جورست الذي خلف اللورد كرومر كمندوب سامٍ بريطاني. ودائمًا ما كانت الجرائد والصحف المصرية الصادرة بالعربية والإنكليزية تهتم بتغطية ذلك الحدث الهام.

وكان يوم العلم في فيكتوريا يومًا مشهودًا، فقد شهد حضور شخصيات مرموقة، ومنها على سبيل المثال: السير مايلز لامبسون المندوب السامي البريطاني، الأدميرال سير دادلي بوند، قائد أسطول القوات البريطانية، ورئيس الوزراء المصري محمد محمود باشا، وخليفته علي ماهر باشا والأمير عمر طوسون والأديب الكبير طه حسين وغيرهم من كبار الشخصيات.

وأتصور أن مقابلة الطلاب اليافعين لشخصيات لها ثقل سياسي أو ثقافي كان له عظيم الأثر في تشكيل شخصياتهم المؤثرة وتأهيلهم لقيادة الوطن العربي فيما بعد.

اليوم الرياضي Sports day

يبدو أن طبيعة المجتمع الإسكندري الكرنفالية في ذاك الوقت قد طبعت على فيكتوريا بعضًا من تقاليده وعاداته، فقد كان مجتمع الإسكندرية لا يكاد ينتهي من مهرجان إلا ويدخل آخر فكل جالية كانت لها كرنفالاتها فضلًا عن الاحتفالات الدينية التي كانت تجوب الشوارع ويشارك فيها المسلمون والمسيحيون واليهود، هذا إلى جانب سباقات للخيول ومهرجان ملكة جمال القطن ومهرجان الزهور وغيرها، ولكن كان يوم «sports day» الخاص بكلية فيكتوريا يحفل بكل الأنشطة الرياضية وحدثًا يرجّ الإسكندرية رجًّا، إذ كان يخلق حالة احتفالية كالتي تعيشها المدن عند تنظيم دورة ألعاب أولمبية! لا مبالغة في هذا فقد كانت تعدّ العدّة لإجراء سباقات الخيول، وألعاب القوى والكريكيت، والوثب العالي، وألعاب القوى، وكرة القدم التي كانت تحفل بمباريات مع مدارس الجاليات الأجنبية في مصر، إلى جانب مسابقة للطلاب البدناء مما كان يضفي أجواء مرحة ويجعل هناك مشاركة حيوية لكل طالب من طلاب فيكتوريا.. فلا تهميش إلا لمن يأبى أن يتقدم دراسيًّا.

وقد كان يومًا ينتظره أهالي وعائلات الطلاب المنتمين لكلية فيكتوريا ليسعدوا بأبنائهم ويفاخرون بهم أمام المجتمع الإسكندري. وبخلاف ذلك كان هناك أيضًا يومًا للموسيقى يتبارى فيه الموهوبون في العزف أو الغناء مع الفرق الموسيقية من مختلف المراحل الدراسية، كذلك كان يقام معرضًا سنويًّا للنشاط الثقافي والفني والعلمي.

عامًا بعد عام، أثارت كلية فيكتوريا انبهار كبرى العائلات بمستواها التعليمي المتميز، وشعرت الطبقات الراقية بضرورة تعليم بناتهن بالمستوى نفسه، لكن لم تكن بالإسكندرية مدرسة إنكليزية مماثلة لتعليم الفتيات، ونظرًا لإلحاح الأهالي على إرسال بناتهم مع أشقائهم البنين للحضانة ذاتها بكلية فيكتوريا، استقبلت كلية فيكتوريا عام 1933، 12 فتاة وكان ذلك في عهد مديرها الثاني مستر ريد Mr. Reed.

من هنا ظهرت الحاجة الماسة لكلية إنكليزية مماثلة لكلية فيكتوريا لاستيعاب الخريجات من الفتيات لاستكمال تعليمهن بالإنكليزية، لذا ولدت الكلية الإنكليزية للبنات EGC على يد سير هنري باركر Sir Henry Barker عام 1935 والتي تخرّجت منها ملكة إسبانيا الملكة صوفيا، والتي لا تزال الرئيسة الشرفية لجمعية خريجات الكلية.

أول فريق كشافة في مصر

شهدت كلية فيكتوريا أول فريق كشافة يتمّ تكوينه في مصر وذلك عام 1912، وكان أول فريق كشفي أسّسه اللورد بادن باول في إنكلترا 1907، والذي كان موظفًا كبيرًا في الخارجية البريطانية.

وقد كانت لكلية فيكتوريا الريادة في ذلك وهو أمر انتقل منها إلى باقي المدارس في شتى أنحاء مصر. وكانت مواقع التخييم في حديقة سان ستيفانو كازينو، وشاطىء سيدي بشر، وفي المندرة بالقرب من حدائق قصر المنتزه.

ويروي اليوناني لوكاس ج. كالوغيروس، الذي كان زميل أمين عثمان باشا في كلية فيكتوريا، ذكرياته حول أيام الكشافة على شاطىء سيدي بشر والذي كانت تُقام به معسكرات الكشافة الصيفية لطلاب فيكتوريا مع مستر بارك هاوس، قائلًا: «كان هذا المخيم في الأساس مخصّصًا لاحتجاز المساجين في أيام الحرب العالمية الأولى، وكان المكان محاطًا برمال صحراوية، والتي كانت تبدأ بعد مسجد سيدي بشر. وكنا نرى من هذا الموقع أشجار حدائق قصر المنتزه. وكنا نعمل في الصباح الباكر لتجهيز وجبة الإفطار وبعدها يكون هناك الوقت للاستمتاع بالاستحمام في البحر».

ويحكى أنه «أحيانًا تقيم الكلية اليوم الرياضي» «Sports day»، على شاطىء البحر الميت بأبي قير، وكانت تتمّ دعوة «النقيب» ألدرسون، والذي كان دائمًا ما يرعى الكلية ويدعمها ماديًا، وكنا كثيرًا ما نقضي وقت ما بعد الظهيرة نحتسي الشاي في منزله على الشاطىء هناك».

«كان ألدرسون قد اعتاد قضاء الصيف هناك، شاخصًا إلى الموقع الذي وقعت فيه معركة أبي قير البحرية، وكان يقضي معظم يومه على سطح سفينة تابعة للبحرية راسية في الخليج، والتي كنا نتسابق أمامها بالمراكب الشراعية. وقد توقفت تلك الرياضة بعد وفاته»[1].

---

(1) خطاب مرسل لمحرر مجلة «ذا فيكتوريان» وتمّ نشره في عدد المجلة الصادر بمناسبة اليوبيل الماسي لها بتاريخ أيلول/ سبتمبر 1983.

صالة الألعاب الرياضية:

حتى عام 1927 لم تكن كلية فيكتوريا توفر لطلابها صالة للألعاب الرياضية «جيمنازيوم» إلى أن تبرع السيد إدوين جوار Edwin Goar بقطعة أرض والمعدات اللازمة لتأسيس قاعة متكاملة تساعد الطلاب على استكمال النشاط الرياضي. وكانت فيكتوريا إلى وقت قريب هي المدرسة الوحيدة التي تضمّ صالة جيمنازيوم.

الحياة الثقافية في كلية فيكتوريا:

1 ـ مكتبة كلية فيكتوريا

تعتبر مكتبة كلية فيكتوريا من أعظم وأكثر المكتبات الموجودة قيمة في مصر، فهي تضمّ آلافًا من الكتب المتنوعة والتي يعود عمر بعضها إلى أكثر من مئة عام. بدأت نواة تكوين تلك المكتبة العريقة عام 1904 بإشراف مستر باركهورست أول أمين للمكتبة، الذي استطاع الحصول على إهداء مادي سخي من مستر ألدرسون الذي كان دائمًا صاحب فضل في وجود تلك الكلية العريقة، وأيضًا جمع عددًا من الإهداءات من مختلف أطياف المجتمع الإسكندري الذي كان معروفًا بنهمه للثقافة. وبالفعل اقتنت الكلية مئات الكتب. تزايدت بعد ذلك وتمّ إضافة الموسوعة البريطانية كاملة والعديد من دوائر المعارف بالإنكليزية والفرنسية واللاتينية. وبمجرد دخولك من بوابة المكتبة الخشبية العملاقة سيجذب انتباهك ألواح خشبية عتيقة معلقة داخلها، محفور عليها أسماء أمناء المكتبة منذ

افتتاحها وحتى الآن، تقديرًا لدور الشخص الأمين على تلك الكنوز. ويصل عدد الكتب حاليًا إلى أكثر من 100 ألف كتاب في مختلف المجالات، وتكمن روعة المكتبة التي صنعت أرففها من أخشاب الزان في تصميمها الراقي والذي تمّ تطعيمه بالحيوانات المحنطة التي يزيد عمرها الآن عن 111 عامًا مما يجعلها مكتبة فريدة حقًا.

ولعلها لعبت دورًا هامًا في أن يكون أهم ما يميّز طلاب كلية فيكتوريا حبهم وشغفهم بالعلم وبالقراءة، فكان من الطبيعي أن تجد الطلاب يجلسون يقرأون كتبًا ومجلدات ضخمة في مختلف المجالات.

2 ـ مسرح بيرلي هول:

بدأ النشاط المسرحي عام 1937 بعد أن قام الزوجان مستر ومسز بيرلي بإهداء كلية فيكتوريا قاعة مجهزة لتصبح مسرحًا فخمًا، وأطلق عليه «بيرلي هول» تشبيهًا بـ «ألبرت هول»، وأصبح يشهد سنويًا مسرحية للكاتب الإنكليزي شكسبير، وكان يشترك فيها أحيانًا بعض المدرّسين الإنكليز والطلاب من مختلف الجنسيات، وأخرج هذا المسرح المواهب الكامنة لدى عمر الشريف «ميشيل شلهوب»، وأحمد رمزي، ويوسف شاهين، توفيق صالح وشادي عبد السلام، ود. إبراهيم الكرداني، والمذيع أسامة كمال والفنان كريم كوجاك والفنانتين نرمين الفقي وعلا غانم. وقد زار المسرح عمر الشريف ويوسف شاهين وكانوا يتفقدون كل شبر فيه.

«المسرح حاليًّا أصبح يقدم مسرحيات باللغة العربية، ولم يعد يقدم مسرحيات إنكليزية كمسرحيات شكسبير وأوسكار وايلد، ولم تعد ملابس العروض بالفخامة التي كانت.. وأصبحت المسرحيات التي يشهدها المسرح مسرحية «صلاح الدين الأيوبي، ومسرحية «وا إسلاماه»، ومعظم ما يقدمه الطلاب غالبًا ما يكون من المنهج الدراسي وهو عكس ما كان عليه الحال في بدايات كلية فيكتوريا» هكذا لخصت أستاذة راوية عبد الرحيم المشرفة على النشاط المسرحي حال مسرح «بيرلي هول»، إلا أن فريق مسرح فيكتوريا حصل على المركز الأول على الجمهورية على مدار ست سنوات متتالية.

مجلة الكلية «The Victorian»

صدر العدد الأول منها في كانون الأول/ديسمبر عام 1912، وكانت بصمة خاصة لمستر رالف ريد Mr. Ralph Reed، والذي انضم للكلية في العام ذاته كمدرس تاريخ إنكليزي، وكان رئيس تحريرها. وقد كان قارئًا نهمًا للكتب ومحبًّا للشعر وكان يمارس النقد الأدبي لما يكتبه طلابه من محاولات طفولية لدخول عالم الشعر والقصة.

وكانت «ذا فيكتوريان» مجلة فصلية، تصدر ثلاث مرات سنويًّا حيث يصدر العدد كل فصل دراسي، وكان ثمنها ثلاثة قروش، والاشتراك السنوي 12 قرشًا، وكانت تُرسل عبر البريد مجانًا لأي مكان في العالم. وكانت تصدر عن دار نشر

Whitehead and Morris وهي الدار التي قامت فيما بعد بنشر رائعة الكاتب الإنكليزي الشهير إي. أم. فورستر «الإسكندرية تاريخ ودليل».

سخّر مستر ريد المجلة لكي يشجع طلابه الموهوبين في الكتابة بمختلف أشكالها، وكان ينشر لهم ما يكتبونه بعد أن ينقحه، وكان ذلك بمثابة تشجيع ودفع لهم لمزيد من الإبداع، وهو هدف تربوي تفتقده الكثير من المدارس الآن. وحينما تولى مستر ريد إدارة الكلية عام 1922 ظلّ يساعد في تحرير المجلة حتى 1929 وعندها قرر أن يتولى تحرير المجلة أحد الطلاب وكان هذا جزء من تدريب الطلاب على الاعتماد على النفس وتولي المناصب القيادية، مما أكسبهم خبرات حياتية كبيرة في سن مبكرة.

والحقيقة أن متصفح تلك الأعداد سيندهش من الأسلوب اللغوي الإنكليزي البديع الذي كتب به الطلاب واصفين الأحداث السياسية والظروف التاريخية التي مرّت بها الكلية، ولكنه سيلحظ أنهم بجنسياتهم المختلفة أصبحوا يكتبون كما لو كانوا طلابًا إنكليزًا يصفون المناظر الطبيعية والتفاصيل الحياتية الإنكليزية، بل يتحدثون عن الحرب العالمية الثانية وكأن بريطانيا متمثلة فيهم.

وهو ما لم ينكره أمين عثمان باشا وعبّر عنه بوضوح في العشاء الذي أقامه قدامى الفيكتوريين في الزقازيق عام 1933، مشيرًا إلى أنه أشيع أن طلاب كلية فيكتوريا تعلموا

أن يعشقوا كل ما هو إنكليزي، ولكن الحقيقة أنهم يهيمون به، لأنهم تعلموا أفضل ما في إنكلترا والفضائل الإنكليزية. وهو ما لم يؤثر على حبهم لبلادهم، لأنه إذا لم تكن وطنيًّا فإنك لن تكون أبدًا من «الفيكتوريين»[1].

مقتطفات من مجلة The victorian

نستعرض هنا مقتطفات من المجلة التي كانت ترصد نجاحات طلاب كلية فيكتوريا وأخبارهم، وكانت ترصد التغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية في مدينة الإسكندرية.

فعدد آذار/ مارس 1940 من مجلة ذا فيكتوريان، خصّ بالذكر عشاء الفيكتوريين القدماء في بغداد، برفقة الأمير عبد الإله، وبابا علي، وشفيق حداد، وجاك عبودي شابي، والإخوة عبد الأحد من البصرة : كامل ونوري وفيليب، وحيدر الركابي وأحمد صفوت، وحسن طه، وتوفيق طاليب. وتمنّى العديد من زملائهم نجاح هذا اللقاء وأرسلوا لهم التلغرافات ومن مستر سكوفيل نيابة عن المدرسة ومستر هنري باركر.

وجاء في عدد مجلة «ذا فيكتوريان» الصادر عام 1930 ما يبرز سياسة كلية فيكتوريا من خلال محاضرة ألقاها د. هارلو في 19 كانون الأول/ديسمبر من عام 1930، والتي يحثّ فيها الطلاب على العيش معًا كأخوة تضمهم عائلة واحدة، قائلًا : «المدرسة لا تمدّكم فقط بالتعليم الضروري وإنما تفعل شيئًا أكثر من ذلك إنها تعلمكم كيف تحبون بعضكم البعض. هنا

(1) Sahar Hamouda, Victoria College, p:50-51.

أنتم تعيشيون معًا كأخوة تضمهم أسرة واحدة، بحب وسلام. ليس كيهود ومسيحيين ومسلمين، فإلقاء الحجارة على بعضكم البعض الآن، قد يتحول حينما تكبرون إلى تشابك بالأيدي أو بالأسلحة، أتمنى أن تكنّوا لبعضكم الحبّ والمودة، وفوق كل هذا أن تكونوا متحابين. فالحرب ليست لكم».

كانت تلك المجلة قد توقفت لفترة خاصة بعد تأميم الكلية إبان ثورة 1952، ولكن أعادت جمعية الخريجين هذا التقليد وعكف أرموند كحيل سكرتير جمعية خريجي كلية فيكتوريا بالإسكندرية على تحريرها، وتلك الأعداد التي حررها يوجد منها نسخ في مقرّ الجمعية بالإسكندرية، وهي التي اعتمدنا عليها في الوصول للكثير من المعلومات حول حياة طلاب كلية فيكتوريا.

وللأسف تلك المجلة التي تعتبر سجلًا تاريخيًا هامًا تناثرت أعدادها، فلا يوجد أرشيف لها مثل أرشيف كلية سان مارك التي قامت برقمنة «Digitizing» كل أعداد مجلة «اللوتس» التي كانت تصدرها باللغة الفرنسية والعربية، أما مجلة «ذا فيكتوريان» فلا توجد كل أعدادها لدى قدامى الخريجين أو جمعية الخريجين وبالكاد يحتفظ بعض منهم بقصاصات وعدد أو اثنين، رغم الأهمية الكبيرة لما تحتويه تلك المجلة.

النسق التعليمي في كلية فيكتوريا:

خلق التميز لفيكتوريا كان عماده وضع نظم تربوية وتعليمية جديدة لم تكن موجودة في مدارس الشرق الأوسط في ذاك الوقت، واستمد كل تفاصيله من النظام الإنكليزي

الجامد والجدّي الذي لا مجال فيه للعواطف أو التعاطف، فلا مجال للصفح والمغفرة أو التهاون في أي خطأ أو سوء تصرف قد يقع فيه الطلاب.

واعتمدت إدارة الكلية على قاعدة أساسية هي أن ما يحدث في المنزل يؤثر على الفصل الدراسي وما يحدث داخل الفصل الدراسي يؤثر بدوره على ما يحدث خارجه. وبالتالي حرصت الإدارة على مراسلة أولياء الأمور بشكل منتظم ودوري، كذلك كانت تحتفظ بكل وثيقة تخصّ الطالب منذ لحظة دخوله الكلية وحتى خروجه منها والجامعة التي انضم إليها في ملف يحتوي على كل درجاته وشهاداته وتقييم لسلوكه وتطور ونمو شخصيته ونقاط القوة والضعف عنده، بل وقد تنبأت تلك التقارير بمواهب وعبقرية العديد من الطلاب الذين سيصبحون بالفعل عظماء.

فقد وضع نظام تعليمي يهدف لتأهيل الطالب ليتبوأ مكانة عليا في وطنه الأم كما تؤهله لأن يتقلد أعلى المناصب في المؤسسات الدولية، فكان الاهتمام بمستوى ثقة الطالب في نفسه وفي طريقه تعبيره عن إمكانياته لا يقلّ عن الاهتمام بحصوله على الدرجات النهائية في مختلف المواد الدراسية. وكانت كلية فيكتوريا تستبعد الطالب «غير المجتهد» أو الذي لا يتطور مستواه فلم يكن هناك مجال أبدًا لوجود طالب غير متفوق.

كانت الامتحانات تأتي في أظرف مغلقة من جامعتي كامبريدج وأوكسفورد، وكانت النتائج تعلن في جريدة التايمز

اللندنية. وكانت نتائج كلية فيكتوريا تفوق الكليات الإنكليزية المماثلة لها، مما أثار انبهار واندهاش القائمين على العملية التعليمية في بريطانيا.

نظام «الأسر المدرسية» «House system»

بدأ هذا النظام عام 1906 واعتمدت الكلية على نظام «الأسر المدرسية» «House system»، لخلق الانصهار والانسجام بين آلاف الطلاب المتحدرين من أصول مختلفة ولهم خلفيات ثقافية متضادة ومتصادمة في أحيان كثيرة، وبالفعل كان هذا النظام كفيلًا بتلاقح عقول كل هؤلاء الطلاب العرب من المحيط إلى الخليج، والعرب مع اليهود والأفارقة والأرمن والهنود والأوروبيين وغيرهم.

وكانت الأسر في البداية مسمّاة بأسماء الألوان باللغة الإنكليزية، مثل جرين «أخضر»، وريد «أحمر» ويلو «أصفر»، وبعدها تغيرت لتصبح باسم كبار المعلمين بالكلية أو المعلمين المشرفين عليها مثل: بارك هاوس، ريد هاوس، أو تسمى بأسماء كبرى الشخصيات البريطانية التي لعبت دورًا في غزوها للعالم ومنها: درايك، وكيتشنر، وكرومر هاوس.

قائد المدرسة Head boy

كذلك كان اختيار الـ «Head Boy» الطالب القائد أو كبير المدرسة، الذي كان عليه أن يساهم مع إدارة الكلية في ردع الطلاب المتمردين أو المشاغبين وأن يحافظ على تطبيق قوانين

المدرسة وأمره مطاع لدى جميع الطلاب بكافة مراحلهم العمرية. وكان اختياره يتمّ على أساس تقدمه في النواحي الاجتماعية والثقافية ونمو شخصيته القيادية وليس التفوق الدراسي فحسب. وكانت الكلية تخصّص له مكتبًا يمارس منه مهامه الإدارية، وكان لذلك النظام أثرًا كبيرًا في تفريخ القيادات والساسة في الوطن العربي فيما بعد. وكان «Head Boy» أو «الألفا» ينادى بـ «كابتن» وكانوا يشرفون ويساعدون زملاءهم من المقيمين بالقسم الداخلي في الانتهاء من واجباتهم ومذاكرة دروسهم لمدة ساعة بعد الانتهاء من اليوم الدراسي. وكان الطالب الذي يتمّ اختياره ليحمل هذا اللقب معروفًا لدى الطلاب من مختلف المراحل العمرية ويصبح كذلك مثالًا أعلى لهم.

كان الـ «Head Boy» يرتدي علامة تميّزه عن باقي تلاميذ المدرسة، وهي شريط فضي حول الكاب المدرسي أو حول ذراعه، وكان يجيبه الطلاب بـ «yes sir»، captain.

كذلك كان هناك أيضًا system Prefect وكان هؤلاء هم الولاة إلى جانب المراقبون monitors كلهم مهمتهم الحفاظ على النظام والانضباط داخل الكلية.

تعليم العربية

رغم أن القاعدة التي لا تقبل الكسر في كلية فيكتوريا هي عدم التفوه بأي كلمة عربية، إلا أنها اهتمت جدًّا بتدريسها لجميع طلابها، ومنذ افتتاحها درس طلابها العربية على أيدي

شيوخ من الأزهر إلى أن تمّ فيما بعد الاستعانة بمدرسين من خريجي دار العلوم، وكان مستر لياس أول مدير للكلية ضليعًا في العربية وكان يعلم الطلاب الترجمة الدقيقة من العربية إلى الإنكليزية والعكس. وكانت إدارة الكلية حريصة على توفير مدرسين لتدريس اللغة العربية للمصريين والعرب والمتحدثين بالعربية، وتدريس العربية للأجانب.

طرق العقاب

نرى الآن هجومًا على بعض المعلمين بسبب استخدامهم للضرب كوسيلة لمعاقبة الطلاب إذا أخطأوا أو لتقويمهم، ولكن هل علموا أن تلك المدرسة البريطانية الصارمة خرّجت أجيالًا من العباقرة في شتى المجالات والذين قد تلقوا عقابهم إذا خالفوا تعاليم الكلية أو أهملوا في أناقتهم وزيهم المدرسي أو نظافتهم الشخصية، أو إذا تناولوا طعامهم بشكل غير لائق، أو إذا تأخروا عن طابور الكلية، وإذا تغيّبوا عن الدراسة أو إذا شوهدوا يسلكون سلوكًا سيئًا حتى لو خارج المدرسة في الطرقات أو في وسائل المواصلات؟!. كان تدخين السجائر سلوكًا يستوجب الطرد حتى لو لم يكن الطالب مرتديًا زي الكلية، وكذلك إذا لم يحترموا معلمهم أو الطالب القائد الـ «Head Boy» أو تعاملوا معه بالطريقة اللائقة، ووفقًا لقواعد الكلية الإنكليزية إذا تحدثوا العربية.

فكان العقاب إما الضرب بالعصا «Stick» وهو عقاب شهير جدًا وكان يحمل نوعًا من الإهانة للطالب الذي قطعًا كان

قد ارتكب جرمًا كبيرًا تخطى فيه حدود اللياقة، فكان الطالب ينحني ليتلقى ثلاث ضربات بالعصا على مؤخرته من ناظر المدرسة في مكتبه، وكان هذا العقاب الشنيع له صيته بين مدارس الإسكندرية فلم يكن هذا العقاب موجودًا إلا في كلية فيكتوريا. ولكن لنتوقف هنا لحظة لأن إدارة الكلية كانت حريصة على أن يكون ذلك العقاب بعيدًا عن أعين الطلاب وفي سرية حفاظًا على كرامة الطالب.

أما وسيلة العقاب لمن يتحدث اللغة العربية داخل حرم كلية فيكتوريا أو أي لغة أخرى غير الإنكليزية فكان عليه أن يقوم بكتابة مضاعفات المئة من 100 إلى 500، فمثلًا إذا تحدث بالعربية في المدرسة كان عليه أن يكتب 300 جملة في كراسة يقول فيها «لن أتحدث العربية في المدرسة مرة أخرى»، وهكذا أو قد يكلّف الطالب بكتابة 500 سطر ينقلهم عن كتاب ضخم قد يكون قاموسًا أو فهرس تليفونات، أو أن يدفع من مصروفه المقنن وفقًا لقواعد الكلية غرامة مالية يوقعها عليه المعلم أو المدير.

وإذا ارتكب طالب خطأ سلوكيًا فعقابه مثل معسكرات الجيش هو حرمانه من الخروج من الكلية يوم الخميس للترفيه عن نفسه.

وكل طالب من طلاب كلية فيكتوريا يحمل في طيات ذاكرته مواقف بعضها اتسم بالطرافة والآخر بالغلظة، كان أبطالها زملاء لهم تمّ عقابهم فيها بأشكال مختلفة حيث تختلف

وسائل العقاب وفقًا للموقف وحجم الخطأ. ومن أشهر المواقف التي عوقب فيها طلاب، الموقف الذي يرويه أحد أبرز الفيكتوريين القدامى الثمانيني «ميشيل ماركو» الذي قصّ علينا حكاية صديق يوناني له كان يدعى كاسكاليس وهو يقطن حاليًّا بمرسيليا، وكان يكبره بعامين. يقول: «كان كاسكاليس حارس مرمى وجاء يومًا وهو تاركًا شعره يطول فيما يشبه موضة «الخنافس» فإذا بمستر «بارك هاوس» يمسك بماكينة قصّ شعر حصانه، ويحلق له شعره أمامنا، كما كان ممنوعًا أن يتباهى الطالب بشعره أو يضع أي نوع من أنواع العطور، فالتربية كانت منضبطة جدًّا.

الملك حسين يعاقب بتنظيف ملعب كلية فيكتوريا

كذلك يتذكر ماركو الذي كان «Head Boy» على الملك حسين أثناء وجوده في كلية فيكتوريا أن مدير الكلية آنذاك طلب من الملك حسين أن يقوم بتنظيف ملعب كرة القدم بالكلية وطلب من ماركو أن يقوم بإعطائه الأوامر لينفذ الأمر، وبالفعل يقول ماركو: «كان الملك حسين قمة في الانضباط وقال لي «yes sir» أذكر جيدًا أنه جمع بعض أوراق الأشجار المتطايرة ونفذ الأمر، فلم يكن هناك أي استثناء من تطبيق قواعد كلية فيكتوريا لا أمراء ولا ملوك». والغريب أنه لم يتأفف الملك حسين يومًا من صرامة الكلية بل بالعكس كان عاشقًا لها رغم مكوثه عامين بها فقط لكي يستكمل تعليمه في لندن، وسنروي تفاصيل حبه لها في الفصول القادمة.

وكان الطرد عقابًا فوريًا لمن يثبت أنه مشاغب ومفتعل للمشاكل وقد تعرض له إدوارد سعيد، ومنصور حسن، رغم تفوقهم العلمي والدراسي، ورغم ذلك كتب عنها إدوارد سعيد جزءًا لا يُستهان به في مذكراته وظل منصور حسن يتباهى بانتمائه لها حتى قبيل وفاته بأيام قليلة. إلا أن قوانين الكلية تغيرت بمرور الزمن ولم يعد عقاب الطرد مطبقًا ولكن توجد أساليب عقاب عادية كالتي توجد في باقي المدارس.

والمثير في كلية فيكتوريا أنه برغم صرامتها، فقد أجمع جميع الخريجين على أن التعليم فيها كان متعة لا يمكن مضاهاتها بأي متعة أخرى، ويودون لو عاد بهم الزمان وتوقف لكي يظلوا في كنفها.

لا للفتنة

كان من الممنوع أن يقوم الطلاب بالتجسس على بعضهم البعض أو أن يقوموا بالتبليغ عن أي أمر قام به البعض والعقاب يكون دائمًا على المبلِّغ وليس على المخطىء. حيث كان يُعتبر التجسس والتبليغ سلوكًا غير لائق يستحق المعاقبة.

وكان المبدأ الأساس لدى جميع المعلمين فيها هو عدم الاهتمام بزجّ المعلومات في أدمغة الطلاب، ولكن في أن يأخذوا معهم تلك المعلومات فيما بعد.

لا للغش

وكان عقاب الغش أيضًا الضرب بالعصا على المؤخرة،

وكان يتمّ اعتبار الغشاش ومن يساعده كاللصوص، وفقًا للمثل الإنكليزي «To help a thief is as bad as to steal» فكان يطالهما العقاب معًا.

الولاء

الولاء والانتماء لفيكتوريا كان يعني الانتماء لوطن واحد يجمع شعب واحد مختلف في كل شيء، فكل الطلاب عليهم أن يساعدوا بعضهم البعض، كبار الخريجين يقدمون المساعدة لمن لا يزالون طلابًا، التواصل ما بين الطلاب والمدرّسين هذا ما كان يعنيه ولا يزال التعليم في كلية فيكتوريا، فلن تفاجأ أبدًا من أن ضابطًا مهيبًا يدخل مبنى الكلية ويخترقه كطفل صغير باحثًا عن معلمه ليطمئن على أحواله ويقبّل يديه. هذا النوع من الولاء يعتبر جزءًا من شخصية كلية فيكتوريا الفريدة. وهو ما تشير إليه بعض المراسلات بين الطلاب والمديرين من ناحية وأولياء الأمور من الملوك والوزراء مع إدارة الكلية من ناحية أخرى.

لا أتحدث هنا عن ولاء الطلاب بل والمعلمين للمدرسة.. لكلية فيكتوريا. فالكل هنا ينسى من أين جاء وما هي ديانته ولا حتى إلى أي أصول عرقية وسامية ينتمي.. تلك كانت فيكتوريا كانت قادرة على صهر الجميع بداخلها.

بالطبع كان ينتاب الطلبة شعور بالاغتراب ريثما تطأ أقدامهم الصغيرة أرض كلية فيكتوريا، فذلك النظام الشبيه بالنظام العسكري كان ليرهب الطلاب الصغار الأثرياء، لكن فيكتوريا

كانت تبتلع كل تلك المشاعر السلبية وسرعان ما تتمازج مشاعر الطلاب جميعًا وتترجم إلى شعور حميم بالانتماء والولاء.

وكانت تلك المعادلة الصعبة في ظل الأجواء التنافسية الحادّة فيها سواء على مستوى المواد الدراسية أو على مستوى الألعاب الرياضية، فكان يتمّ تكريم المتفوقين وتبجيلهم ويتمّ أيضًا إقصاء المتراخين والكسالى. فكان يتمّ تعليمهم تقبل الهزيمة والروح الرياضية كأحد الدروس الهامة في الحياة، كما كان جميع الطلاب كمعلميهم يبجلون ويقدرون الطالب المتفوق في أي مجال لأنهم فيما يبدو تعلموا عدم اليأس من النجاح والإصرار على الفوز.

وإلى جانب الولاء الذي نلمسه في أحاديث الخريجين، كانت العلاقة بين الطالب والمعلم مثالية، فقد كان الطلاب يقتدون بمعلميهم بل ويعتبرونهم الأقرب إليهم حتى من ذويهم نظرًا للفترات الطويلة التي كانوا يقضونها بالمدرسة. وكان من أبرز اللفتات الإنسانية والتي تؤكد مدى حميمية العلاقة ما بين الأستاذ أو المدير والطلاب، الاحتفال الذي قام به الخريجون القدامى المقيمون بلندن لمستر بارك هاوس، احتفالًا بعيد ميلاده الثمانين، وقدموا خلاله طبقًا قيّمًا من الفضة. وذكر مستر ريدر «Rider» أنه أعطاه هذا الطبق لكي يعطيه لرئيس جمعية الخريجين بلندن منير شلبي لكي يحتفظ به».

القسم الداخلي:

شهد هذا القسم مبيت العديد من الأمراء والملوك

والوزراء فيما بعد، وقد بدأ عام 1906 نظرًا للإقبال المحلي والعالمي على الكلية. رغم أن أول طالب مقيم بالكلية جاء من طنطا عام 1902 وكان بريطانيًّا يدعى Edwin Harle وفقًا لسجلات الكلية، لتتوالى أسماء الطلاب الذين أقاموا فيه وأصبحوا فيما بعد قادة العالم العربي ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: الملك حسين وزيد الرفاعي وزيد بن شاكر، والأمير رعد، ومن العراق الأمير فيصل، والأمير عبد الإله الذي التحق بالكلية عام 1928 وظل بها حتى عام 1932.

والطريف أن بعض العائلات بالإسكندرية والتي كانت تقطن في أماكن بعيدة عن الكلية ومنها مثلًا محرم بك كانت تدخل أبنائها القسم الداخلي لتعفيهم من معاناة الذهاب والإياب كل تلك المسافة يوميًّا.

وكان طلاب القسم الداخلي يعتبرون أنفسهم الأكثر تميزًا وتملكهم شعور بأنهم أصحاب كلية فيكتوريا بينما الطلاب الآخرون مجرد زوار لها، كانوا يعتدّون بأنفسهم باعتبارهم الفيكتوريين الحقيقيين، ولم لا فكل مباني كليتهم الأثيرة مسخّرة لخدمتهم كفندق سبع نجوم، فهم يستذكرون دروسهم تحت إشراف أمهر المدرّسين، ثم يلعبون مباراة كرة قدم، أو يمارسون الكريكيت مع مدرّسيهم، ويتسامرون مع المشرفين والفرّاشين والعمال وغيرهم، فكانت العلاقة التي تربطهم بالكلية قوية لأبعد حدّ، وهذا ما يجعل أي منهم عند زيارته لها يشعر بالحنين إلى منزله القديم أو بالأحرى إلى موطنه.

يشرف على طلاب القسم الداخلي فريق من المشرفين

المقيمين إقامة دائمة لخدمة الطلاب، وكان يضمّ القسم الداخلي عنابر مجهزة وفقًا للقواعد الصحية، فهي عنابر جيدة التهوية وملحق بها دورات مياه، وقاعة للمذاكرة، وقاعة للألعاب الترفيهية، ومجهزة بتليفزيونات وفيديو. وكان هناك نظام رقابي دقيق لمتابعة الطلاب يقوم به فريق مدرب يتحمل مسؤولية استخراج تصاريح لخروج الطلاب، وكان ذلك لا يتعارض مع محاولة جميع المدرسين والعاملين إسعاد الطلاب وتعويضهم عن الجو الأسري والحنان الأبوي.

وكان من شروط القبول بالقسم الداخلي ألا يزيد عمر الطالب عن اثني عشر عامًا، وأن يكون لديه كفيل في الإسكندرية يكون مسؤولًا عنه كوليّ أمره ويتسلّمه إذا تمّ فصله من الكلية إذا ما خالف أي من تعليمات الكلية. كما كان الطالب يخضع لكشف طبي شامل قبل قبوله كطالب بالقسم الداخلي. وكان محظورًا تواجد الطلاب غير المقيمين بالقسم الداخلي تحت أي ظرف. وكان مدير الكلية أو أي من المشرفين يقومون بحملات تفتيش لمتعلقات الطلاب للاطمئنان على التزامهم.

وكانت مصروفات القسم الداخلي بالكلية وفقًا لدليل الكلية الصادر للعام الدراسي 95/ 96، تبلغ حوالي 2500 دولار شاملة الإقامة والتغذية، فضلًا عن 1500 دولار مصاريف التعليم والكتب وكيّ الملابس وغيرها. كما كان ولي الأمر يترك مبلغًا من المال تحت تصرف إدارة الكلية يكفي لتغطية مصروف ابنه والأدوية والرحلات والدروس الخصوصية التي كانت توفرها الكلية لمن يرغب. وكانت الكلية تضع قائمة

الأدوات والملابس التي يحتاجها الطالب طوال فترة إقامته بالكلية للعام الدراسي.

وكان من أشهر الوجوه بالنسبة لطلاب القسم الداخلي، الأستاذة محاسن المشرفة على القسم الداخلي التي كانت شخصية عالمية بحكم اتصالها بذوي الطلاب من الرؤساء والأمراء والملوك من مختلف أنحاء العالم.

ونظرًا للظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية التي مرّ بها العالم العربي ومصر خاصّة تمّ إلغاء القسم الداخلي في نهاية الثمانينيات، ثم عاد مرة أخرى في عهد مدير الكلية السابق يوسف الأرناؤدي، ولكن في قسم الشهادات العليا الأميركية، وكان يتسع لعدد محدود فقط كان أغلبه طلابًا نيجيريين إلى جانب قلة من العالم العربي من لبنان أو من سوريا.

طلاب نيجيريا يقضون ليلتهم على أشعار إيليا أبو ماضي وأمير الشعراء

يروي الأستاذ مصطفى كامل إبراهيم، مدرّس أول اللغة العربية بالقسم الإعدادي بالكلية والذي كان يشرف على تعليم الطلاب غير المتحدثين بالعربية في القسم الداخلي منذ عام 1984، ذكرياته التي جمعته بالعديد من الطلاب وبالأخص النيجيريين.

بحنين أبوي يتحدث عن علاقته بطلاب عائلتي «ماي ديربي» أصحاب مناجم الذهب في نيجيريا، وعائلة «أنديمي» كبرى العائلات النيجيرية أيضًا. يقول «أتذكر جيدًا يوسف

وإبراهيم ماي ديربي اللذين أصبحا من كبار رجال الأعمال في أوروبا. كذلك مؤخرًا عام 2005 كان هناك طالبًا يدعى مصطفى عتيق أبو بكر وهو كان ابن نائب الرئيس النيجيري والذي كان مرشحًا للرئاسة، وكان أهالي هؤلاء الطلاب يرغبون في تعليمهم اللغة العربية وتمكنهم منها برغم إعفائهم من الامتحان في اللغة العربية ولكنهم كانوا يرغبون في إتقانها لإتمام حفظ القرآن الكريم.

بعد انتهاء اليوم الدراسي، كان الأستاذ مصطفى يقوم بإعطائهم دروس اللغة العربية في قاعة الاستذكار بالقسم الداخلي، وبمرور الأيام توطدت العلاقة فيما بينهم، كانوا يطلبون منه أحيانًا بعض الأكلات المصرية التي يرغبون في تناولها، واعتبره الطلاب أخًا أكبر لهم وكانوا ينتظرون بفارغ الصبر حصة اللغة العربية خاصة وأنه اتبع أسلوبًا تعليميًّا مسليًا. حيث كان يسجل لهم دروس الشعر والقراءة على شرائط كاسيت، وكان هذا أمر يحبونه جدًّا، وأحيانًا كثيرة كانوا يقومون بإعادة سماعها مرات ومرات كانت تخفّف عنهم وكانوا يتسلحون بها للقضاء على وحشة الليل.. فكانت أشعار إيليا أبو ماضي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم تتردد في أرجاء العنبر الفسيح حتى يغلبهم النعاس.

وقد عرضت عائلة ماي ديربي على الأستاذ مصطفى كامل الانتقال للتدريس في نيجيريا مقابل مبالغ طائلة من المال لكنه رفض لارتباطه بكلية فيكتوريا.

الأستاذ مصطفى مؤمن أن التعامل مع الطلاب هو «أمر سهل ممتنع» ولكي ينجح المعلم في كسب ودّ الطالب يجب عليه أن يدرك جيدًا أن الطالب الذي أمامه غاية في الذكاء ويستطيع أن يعرف شخصية المعلم وهل هو أمين عليه أم لا؟، لكن إذا استخف بعقلية الطالب فشل تمامًا في مهمته.

ويستطرد الأستاذ مصطفى في حديث الذكريات، قائلًا: «كان الطلاب من عائلتي ماي ديربي وأنديمي أصدقاء جدًّا وكان عددهم كبير جدًّا، وكانوا جميعًا يعتبرونني كأخ لهم، وقد قمت بتدريسهم اللغة العربية على مدار سنوات الدراسة الثلاث بالقسم الإعدادي، وكنت أعرف أجيالًا من كلتا العائلتين، وأذكر أنهم كانوا يوم الجمعة يحرصون على ارتداء الزي الوطني النيجيري، وكانوا يخرجون من كلية فيكتوريا لأداء صلاة الجمعة.. كان منظرهم رائعًا. كانوا حريصين جدًّا على إقامة الصلاة فكانوا يستأذنون دائمًا لأدائها في وقتها».

ويمكن التعرف على الروح التي خلقتها الكلية ما بين الأستاذ والطالب من خلال الزيارات التي يقوم بها من فترة لأخرى وفد من الطلاب الأفارقة بحثًا عن الأستاذ مصطفى.

الفصل الثالث

فيكتوريا في مهب الحروب العالمية

كانت كلية فيكتوريا منذ ولادتها قد شهدت العديد من الأحداث التاريخية الجسيمة التي أثرت في تاريخ البشرية في القرن العشرين، والذي نشبت فيه أكثر الحروب شراسة ووحشية، وأعيد فيها كتابة تاريخ الأمم. ونظرًا لأن مصر كانت تحت سيطرة بريطانيا العظمى فقد رافقت الحروب العالمية الأولى والثانية تغيرات اجتماعية كبيرة أثرت على حياة الجاليات الأجنبية المقيمة بالإسكندرية، فإن وفود جاليات أوروبية هاربة من أوروبا وأيضًا هجرة الكثير منهم لمصر أثرت على تعداد الطلاب في كلية فيكتوريا ما تسبب في مرورها بأزمات مالية كبيرة. ولكن دومًا كان أبناء فيكتوريا بجوارها يدعمونها بجلب التبرعات وتوفير النفقات اللازمة لاستكمال رسالتها التعليمية، وذلك إما عن طريق المسابقات أو السباقات الخيرية لكي لا يتداعى ذلك الكيان الذي باتوا يشكلون جزءًا منه.

وكأنه كان قدر كلية فيكتوريا أن تعاني عبر القرن العشرين من آثار الحروب بل وكانت لكونها القلعة البريطانية بالإسكندرية تتحول إلى مستشفى عسكري لجرحى الحرب.

وكانت بداية تأثير الحروب على طلاب كلية فيكتوريا، حينما نشبت حرب البلقان الأولى (تشرين الأول/أكتوبر 1912 ـ أيار/مايو 1913) التي نشبت بين الدولة العثمانية واتحاد البلقان الذي تألف من بلغاريا وصربيا واليونان والجبل الأسود، وفوجىء الطلاب بأن دولهم الأم في حالة حرب بينما هم يدرسون في الفصل ذاته ويتقاسمون عنبر النوم نفسه! وبالرغم من قواعد الكلية الصارمة التي تنأى بالطلاب عن أي انتماءات سياسية، إلا أن الحروب العالمية عصفت بها وشكلت من آن لآخر عنصرًا يحاول إفساد ما أرسته الكلية من قواعد. لكن إدارة كلية فيكتوريا واضحة في أهدافها وهو «تعليم بلا توقف» فقد تغلبت المدرسة على أحلك الظروف وتحايلت على الحروب العالمية حتى لا تتوقف الدراسة وانتقلت من مقرّها عدة مرات كأنه كان مقدرًا عليها الترحال.

الحرب العالمية الأولى:

في شباط/فبراير 1915 زار الكلية سير هنري ماكماهون، وفي آذار/مارس كانت المدرسة مكتظّة بالقوات الفرنسية الاستطلاعية.. وتحولت الكلية في نيسان/أبريل إلى مستشفى وعاد الطلاب إلى مباني الكلية القديمة في الأزاريطة التي كان يطلق عليها في ذلك الوقت «المزاريطة» وقد فقدت الكلية خلال تلك الفترة العديد من طلابها ومدرسيها الذين تطوعوا لخدمة جيوش بلادهم. وتغيّرت نسب الطلاب الإنكليز وقلت بسبب مشاركة بعض الآباء في الحرب العالمية الأولى. لذا تمّ إلغاء

بعض المواد والأنشطة، وكانت المدرسة تستعين بمعمل المدرسة المرقسية بالإسكندرية.

ونظرًا لأن المباني لم تكن لتتسع لطلبة القسم الداخلي تمّ تأجير شقة لهم وكانت في الدور الخامس من مبنى يطل على محطة الترام، وكان أمام المدرسة والمستشفى الحكومي، والتي أصبحت فيما بعد مقر إقامة مستر ريد. وقد لعب مستر ريد بشخصيته الكاريزمية دورًا هامًّا في حياة طلاب كلية فيكتوريا. كان من الطريف أن يلتف الأولاد حول مستر ريد أثناء مروره المسائي ليطمئن أنهم يخلدون للنوم في سلام، وكان يعوض عنهم الفقر في المؤن والمواد الغذائية حيث كانوا يستمعون بشغف كبير لحكاياته عن أوكسفورد وإنكلترا، لتتعالى طموحاتهم وآمالهم. كان ريد يحتضن الطلاب وهيّأ لهم أجواء أسرية في شقته حتى اجتازوا معًا فترة الحرب بعدها ارتحلت كلية فيكتوريا من «الأزاريطة» وعادت أدراجها إلى مقرّها المهيب بالسيوف وكان ذلك في شهر حزيران/يونيو 1919.

وحينما أعلن انتهاء الحرب، جاء الطلاب من منازلهم مبكرًا عن موعد طابور الصباح ليبلغوا طلاب القسم الداخلي بانتهاء الحرب، وكان الجميع مبتهجًا وطالبوا مستر لياس بيوم إجازة وكان لهم ذلك.

في شهر آذار/مارس من العام نفسه كانت قد اندلعت الشرارة الأولى لثورة 1919، والمظاهرات التي صاحبتها قد أثارت العديد من التساؤلات لدى الطلاب الصغار الذين لم

يفهموا حينها لماذا يثور الشعب ضد الإنكليز في حين أنهم يرون في معلميهم الإنكليز القدوة الحسنة؟!!

ولأول مرة سُمعت هتافات ضد الإنكليز «يسقط الاحتلال ويحيا سعد» وبدأت تساؤلات الطلاب تلحّ على معلميهم الإنكليز، فهم حائرون لا يعلمون هل ينبغي أن يكونوا مع الثورة أم ضدها؟! وكان هذا بسبب أفقهم المتفتح مما جعلهم ينشغلون بكل صغيرة وكبيرة.

وكان الطلبة المقيمون بالقسم الداخلي ينتظرون الأخبار بلهفة، فكانوا ينتظرون الطلاب أثناء دخولهم فناء المدرسة ليتابعوا أخبار ثورة 1919. لكن الكلية كانت على حياد في تلك المسألة لحساسية الموقف، ولكن مع إلحاح الطلاب؛ أعلن مستر ريد موقفه الرافض للثورة، فقد كان ضد الثورات والديماغوجية ومع الأرستقراطية، ونظرًا لما يمثّله للطلاب من قدوة فكان أن انحاز بعض الطلاب لرأيه.

كانت تلك الفترة حرجة جدًّا في علاقة فيكتوريا بطلابها، ولكن كان غالبية الطلاب يعتقدون أن كلًّا من طبقة الفلاحين وطبقة المثقفين الراقية سعداء بأن يظلّوا تحت الحكم الإنكليزي وكان هذا يتفق مع عشقهم لشكسبير ومستر ريد، فكانوا يتساءلون كيف يتخذون جانب الغوغاء والجهلة ضد إنكلترا المتمثلة أمامهم في مستر ريد وشكسبير؟!!

البعض حدث له انبهار بالثقافة والفكر البريطاني والانتصارات والقوة العسكرية البريطانية وكل ما يخصّ بريطانيا العظمى. وكان هذا ما عبّر عنه كشاهد على العصر إدوار عطية

اللبناني المسيحي الذي كان من الرعيل الأول من خريجي كلية فيكتوريا، عن حياة الطلاب وعلاقتهم بمديريهم الإنكليزي بأسلوب أدبي رائع في كتابه «An Arab tells his story» «عربي يروي قصته» الصادر في لندن عام 1946، يروي عطية العلاقة الحميمية التي خلقها مستر ريد مع الطلاب في القسم الداخلي حينما كان يقضي معهم كل ليلة من 10 إلى 15 دقيقة يلقي النكات ويتبادل الضحكات والذكريات قائلًا: «حينما كان يأتينا مستر ريد في زيارته المسائية إلى عنبر النوم، كنا جميعًا نلتف حوله نتسامر ونضحك، من منا كان يشعر بأنه مصري أو أرمني يتحدث لمدرس بريطاني؟ كنت أسمع أن الإنكليز يحتقرون المصريين وأن المصريين يكرهون الإنكليز، ولكن هنا لم يكن هناك كراهية أو ازدراء.. كان هناك ودّ ومودة واحترام.. نعم كان هذا من طالب لمعلمه وليس من شرقي إلى غربي».

ولعل أروع ما يجسد تلك العلاقة الحميمية التي جمعت بين الطلاب ومعلميهم الإنكليز هو الإهداء الرقيق الذي خطّه عطية على غلاف كتابه، والذي أهداه لمستر لياس Lias، ومستر Reed ووضع صورة ريد في صفحة من كتابه. فمن خلال ما يرويه عطية من تفاصيل تعكس مدى تطبع الطلاب بطبائع وعادات مستر لياس ومستر ريد على وجه الخصوص، حتى أن عطية يروي كيف أن حبه للكبيبة وحلقات البصل تبدل!! وأصبح ينظر للبصل باعتباره طعامًا للسوقة وغير المتحضرين لكنه لم يكن يعرف أن مستر ريد والبريطانيين يتناولونه أيضًا!! وهي دلالة على أنه دون أن يدرك أراد أن ينسلخ من كل ما هو عربي لكن بدافع ذاتي دون تدخل،

فلم تتمّ نجلزته عمدًا لقد رأى في بريطانيا كل شيء مثاليًا وبدأ في تحقير كل ما هو عربي. كما كان بداخله صراع بين جذوره الشرقية ووالده الذي يرتدي «القفطان» وبين ما يرغب أن يكون عليه . . أن يكون مثل مستر رييد بكل قيمه ومبادئه الإنكليزية وأناقته الأوروبية.

ولعل ما رواه عطية عن قصة دخوله لكلية فيكتوريا، يكشف قيمتها في ذاك الوقت. فهو روى كيف انبهر بحديث أحد الأثرياء في السودان عن مدرسة إنكليزية بالإسكندرية يمارس فيها أبناؤه لعب كرة القدم والكريكيت والتنس، وكيف أنهم سعداء جدًا فيها، ويجسد ما أصابه من أحلام اليقظة التي انتابته بمجرد أن رأى إعلانًا عن الكلية يصور مبانيها المهيبة وأسماء المدرّسين القادمين من أوكسفورد وكامبريدج، وحينما استوقفه اسم مستر رييد Reed معلم التاريخ. وكيف أن الطلاب يحصلون على شهادات من أوكسفورد وكامبريدج مشيرًا إلى أنها كانت بمثابة حلم بعيد المنال خاصة وأن الحرب العالمية الأولى كانت متأججة ولم تنتهِ ولم يعلم أحد متى ستنتهي. ويذكر حينما رجا والدته أن تقنع والده أن يذهب إلى كلية فيكتوريا في الإسكندرية كيف صرخت في وجهه بسبب خوفها عليه من أن يبتعد عنها في ظل تلك الظروف. ورغم المصاريف الباهظة تكبد والده المصروفات، وذهب عطية إلى فيكتوريا، وهنا تعرف إلى أول مبادىء وقوانين كلية فيكتوريا أن الكل فيها واحد لا فرق بين مسلم ومسيحي أو يهودي ولا مجال للحديث عن الجنسيات والأعراق والأنساب.

كما تبدّد لديه انطباعه المسبق بأن الشعب المصري شعب

ذليل، والانطباعات المسبقة عن المسلمين بل وجعلته الحياة في فيكتوريا يعشقهم كأبطال ويشجعهم حينما كانوا يلعبون في الفريق الأول لكرة القدم. فالكل توحد حول هتاف حماسي «Buck up, College».

ومن الأمور التي يجب أن تستوقفنا في ذكريات عطية ما صدمه حينما زار الكلية لأول مرة، وهي أن الطلاب برغم ثقافتهم الإنكليزية فإنهم كانوا يرتدون الطربوش، وقد كان يتوقع أن تكون هيئتهم كالإنكليز. أيضًا اختباره قبل قبوله بالكلية في الكتابة باللغة الفرنسية، وكانت صدمته الكبرى أن يكون الـ «Head Boy » «قائد الطلاب» بالكلية الإنكليزية «مصريًا مسلمًا» وكان هو أمين عثمان باشا، الذي أصبح ـ كما ذكر في كتابه ـ أحب إليه من كل الشوام المسيحيين في العالم، وكيف كان محبوبًا من جميع الطلاب.

دخل عطية كلية فيكتوريا في تشرين الأول/أكتوبر 1918، وكانت الحرب لا تزال رحاها دائرة، وكوّن العديد من الصداقات مع طلاب أرمن ومصريين ومالطيين، ويونانيين، وشوام ويهود، وحسب وصفه «كنا كعائلة كبيرة واحدة»، وكتب عن حزنه الشديد حينما قرر أهله الرجوع إلى بيروت وأخبروه أن عليه الالتحاق بالجامعة الأميركية هناك مقارنًا بين بيروت ذات الشوارع الضيّقة والضحلة والطابع الشرقي وبين الإسكندرية ذات الطابع الغربي المتحضر المبهر وأجوائها الثقافية والفكرية، وحلم الدراسة في أوكسفورد أو كامبريدج الذي غذّاه وكبّره كل من مستر ريد ومستر لياس باعتبار أن

الدراسة فيهما مفتاح الحياة وأنهما «الطاقة» التي ستفتح المجال أمامه لكي يكون مساويًا لأي رجل إنكليزي، كما ستفتح له باب الوظائف المرموقة في أي مكان في العالم، حينما حصل عطية على شهادة اجتيازه الاختبار للسنة النهائية في كلية فيكتوريا سأله مستر لياس ماذا سيفعل في السنة المقبلة؟

هذا يكشف لنا ما اعتاد عليه لياس ورييد من التخطيط مع طلابهم لمستقبلهم وما هي الكلية الأفضل لهم. فأخبره عطية بأن والده لن يستطيع تأمين نفقات دراسته في أوكسفورد لذا فسيظل بمنزله يدرس القانون، وما أنقذه من الذهاب هو حصوله على منحة دراسية لأوكسفورد كانت كلية فيكتوريا تمنحها للطلاب تحت السادسة عشرة، والتي استطاع مستر ريد من خلالها تحقيق حلم عطية[1] بالالتحاق بأوكسفورد وأمّن له منحة بمقدار 150 جنيهًا استرلينيًا سنويًا لمدة ثلاثة أعوام جمعها من الخريجين القدامى الذين أصبحوا في مناصب عليا، وأيضًا حصل له على خطاب توصية من اللورد اللنبي المفوض السامي البريطاني الذي كان صديقًا حميمًا لمستر ريد، فيما كان على والده أن يؤمن مبلغ 50 جنيهًا سنويًا لاستكمال باقي المصروفات.

قبر ديميش لغز من ألغاز كلية فيكتوريا

والأمر الذي لا يعلمه الكثيرون، أن الكاتب الشهير **مانويل ديميش** وكان صحفيًا وروائيًا وشاعرًا وفيلسوفًا من

---

(1) للمزيد الرجاء الاطلاع على كتاب إدوارد عطية: **An Arab tells his story:** a study in loyalties (autobiography) London: Murray, 1946.

مالطة، وُلد في كانون الثاني/يناير 1860، تمّ دفنه في فناء كلية فيكتوريا، حيث كان معتقلًا من قبل السلطات البريطانية وكان منفيًا في مصر بسبب معاداته للهيمنة البريطانية واتهم بأنه يعمل جاسوسًا لحساب الألمان، وكان معتقلًا في معتقل بريطاني بسيدي بشر، ثم تمّ نقله إلى كلية فيكتوريا إبان الحرب العالمية الأولى ليتلقى العلاج بعد أن تدهورت حالته الصحية حيث كان قيد الاعتقال لسنوات طويلة ولم يفرج عنه حتى مماته، مكث فيها للعلاج أثناء الحرب، وكان قد كتب آخر رسائله في حجرة من حجراتها، لكنه ظل يعاني من آثار الجلطة التي أصابته حتى وافته المنية في 17 نيسان/أبريل 1921، وتمّ دفنه بدون لحد حتى أن كل المحاولات للبحث عن جثته باءت بالفشل. ومؤخرًا قام كاتبان مالطيان بجمع ما كتبه أثناء فترة نفيه في مصر في كتاب «Aphorisms» وهو يتضمن مجموعة من الحكم والأمثال التي كان ديميش قد كتبها في قصاصات ورق استطاع تهريبها أثناء مكوثه في الإسكندرية[1].

في تلك الفترة المظلمة من تاريخ العالم، كانت الكلية قد فقدت العديد من أبنائها ومدرسيها بسبب الأمراض والأوبئة التي انتشرت في تلك الحقبة وعلى رأسها الكوليرا والتيفوئيد فأودت بحياة الكثير منهم. ولكن في أعقاب نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1920، كانت الكلية في أوج مجدها وكان عدد الطلاب والمدرسين في تزايد مطرد.

---

(1) انظر: http://en.wikipedia.org/wiki/Manwel_Dimech
وأيضًا موقع .http://users.onvol.net/98560/site/about_us/dimech

وقد تعالى صيتها بسبب ما قام به كل من مستر لياس ومستر ريد مدير المدرسة في بدايتها حيث قاموا بدفع وتشجيع الطلاب لاستكمال دراستهم في أكبر جامعات بريطانيا. لياس كان يطلب مدرّسين من خريجي كامبريدج التي ينتمي إليها ويحثّ الطلاب على الالتحاق بها، بينما كان مستر ريد يطلب تعيين خريجي أوكسفورد ويرسل خطابات توصية لطلابه تساعدهم في الالتحاق بها، وكان من بينهم أمين عثمان حيث التجأ إلى اللورد اللنبي ـ المفوض السامي ـ للحصول على خطاب توصية يضمن دخوله Brasenose college العريقة في أوكسفورد، والتي تأسست في عام 1509 وتخرّج منها كبار الشخصيات العامة البريطانية ومنهم على سبيل المثال ديفيد كاميرون رئيس وزراء بريطانيا.

المدرسة إبان الحرب العالمية الثانية:

واستجابة لقدرها، عاودت كلية فيكتوريا الرحيل من مكانها الذي أصبح مستشفى عسكريًّا إنكليزيًّا لعلاج الجنود والمتطوعين للحرب، وصدم القائمون على المدرسة حينما أمروا بإخلاء المدرسة والانتقال إلى مقرّ آخر. وبالفعل تمّ تعديل المباني لتصبح مستشفى وتمّ بناء عنابر على الطراز الإنكليزي والتي تشبه الأكواخ يعلوها القرميد الأحمر لتستوعب الجنود الإنكليز والجرحى من جنود الحلفاء، والتي تحولت فيما بعد لفصول الحضانة.

فقد استغلت الأمبراطورية البريطانية الإسكندرية كقاعدة استراتيجية في الحربين العالميتين، مما عكّر صفو الإسكندريين

ودمّر حياتهم. وانتقل مقر المدرسة وفقًا لطلب إدارتها من السلطات الإنكليزية ليكون كازينو وفندق سان ستيفانو مقرًّا لها، ورغم اعتراض إدارة الفندق وقتها إلا أن السلطات الإنكليزية طلبت من محافظ الإسكندرية إصدار قرار بذلك.

طلاب فيكتوريا يحتلون كازينو سان ستيفانو

بدأ الطلاب مع المعلمين في جمع اللوازم المدرسية والملفات والأوراق مع الكتب وأدوات الطعام وأنابيب الاختبار ومعدات المعامل وشدّوا الرحال إلى كازينو سان ستيفانو، بعد تحول مدرستهم إلى مشفى عسكري، تفوح منه رائحة الموت ويسمع منه أنين الجرحى، احتل طلاب كلية فيكتوريا سان ستيفانو الذي كان وما زال من أرقى وأفخم أماكن الترفيه في الإسكندرية، ومكانًا لاجتماع الوزراء والباشوات وعلية القوم والفنانين والأدباء منذ أن افتتحه الخديوي توفيق في 26 حزيران/ يونيو 1887. وكان وقتها تحفة معمارية عبّرت عن مدى عشق الكونت زيزينيا لتلك المدينة. وقد أقيم الفندق على مساحة 30 ألف متر مربع، وتميّز بشرفاته ذات المشربيات الخشبية المصنوعة من الأرابيسك، وكشك الموسيقى الذي كان يعزف طوال الوقت أجمل المعزوفات العالمية، وحدائقه الخلفية، وملاعب التنس[1]

ومن الطرائف التي حدثت على إثر انتقال فيكتوريا إلى

(1) داليا عاصم، «فوسيزونز سان ستيفانو»... حكاية حب في الإسكندرية، جريدة الشرق الأوسط الدولية، 16 كانون الثاني/يناير 2008، العدد 10641، متاح في موقع: www.aawsat.com/ details.asp? section = 14 & article = 454203&issue no = 1064/#.Uqtik91wifs.

الفندق، هو أن ذهل النزلاء بوجود مناضد مدرسية في أحد أركان المطعم المخصص للفرقة الموسيقية. وهكذا تحولت كافة مرافق وخدمات الفندق إلى فصول وغرف مدرّسين. وتمّ رفع العلم البريطاني على مباني سان ستيفانو!

ومن المفارقات الطريفة التي عايشها الطلاب آنذاك، وكتبها أحدهم في عدد مجلة «ذا فيكتوريان» الصادر عام 1940 «تحول بار الكازينو إلى حجرة ترفيه للطلاب، أما البار الأميركي فقد أجريت عليه بعض التعديلات ليتحول إلى حجرة قراءة للناظر، وحلّت مكاتب تلاميذ الابتدائي مكان طاولات القمار، وفي آخر لحظة قبل بدء الدراسة قام العمال بإنزال إعلان بيرة ستيلا المعلق على مدخل الفندق».

بدأت الدراسة في سان ستيفانو، وهنا عاش الطلاب تجربة مثيرة ومغايرة عن أجواء كليتهم بالسيوف «فيكتوريا»، فمنهم من لم يستطع التأقلم بسهولة واعتبر أنه نزيل بالفندق، ومنهم من كان دائم النظر لزرقة البحر المتوسط الممتد أمامه، ومنهم من كان يفتقد كلية فيكتوريا ومبانيها، وكان يعوض ذلك ذهابهم من آن لآخر للعب كرة القدم والكريكيت في مباني السيوف. وهناك كانوا لأول مرة يلتقون بجنود من مصابي الحرب وتعرفوا عن قرب على الجنود البريطانيين والهنود، فكان هؤلاء الطلاب ممن حظوا بخبرات حياتية لم تقدمها أي مدرسة أخرى.

كانت حديقة الفندق تستغل لأغراض التخييم وأنشطة

الكشافة، وكان الفارق الجوهري الذي شعر به الطلاب هو وجودهم وسط القصور والفيلات لأرقى طبقات المجتمع الإسكندري، فلم تكن الطبيعة موحشة بالخارج مثلما كان الحال في محيط كلية فيكتوريا بضاحية السيوف. فكان الانتقال من وإلى الكلية أسهل وأفضل.

وكان من بين الطلاب الذي عاصروا كلية فيكتوريا في سان ستيفانو المخرجين الكبيرين توفيق صالح ويوسف شاهين، ويروي اليوناني الإسكندري ميشيل ماركو، الذي بدأت علاقته بكلية فيكتوريا في مقرّها بسان ستيفانو، أنه في يوم من الأيام حينما كان قائد الطلاب «Head Boy» كان من مهامه كأفضل طالب في المدرسة أن يأتي مبكرًا عن موعد بدء الطابور الصباحي، وفي صباح أحد الأيام أثناء الحرب العالمية الثانية، صعد ليمرّ على الفصول ويرى مدى نظافتها قبل حضور الطلاب، فإذا به يجد نوافذ المدرسة كلها محطمة والزجاج مبعثر في كل شبر، ويروي «علمنا أن السبب سقوط قنبلتين بجوار قصر البرنس محمد علي «قصر زيزينيا» المعروف بقصر الصفا حاليًّا. وتمّ إغلاق المدرسة ثلاثة أيام لتغيير النوافذ. وكانت تلك من المرات القليلة التي أُقفلت فيها المدرسة».

فيكتوريا.. إلى القاهرة هربًا من الغارات

عانت مدينة الإسكندرية من ويلات الحرب العالمية الثانية، الحرب الأكثر ضراوة في تاريخ البشرية، وقاست من غارات قوات المحور الجوية، فكانت الغارات

الإيطالية ـ الألمانية تقضّ مضاجع الإسكندريين، وكان القصف الجوي على أشده وكانت البيوت المطلة على كورنيش الإسكندرية وبالقرب من الميناء الشرقي ممن تضرروا بشدة، فلم يكن يجدي اللون الأزرق الداكن الذي اكتست به النوافذ، ولا المخابىء التي انتشرت بالمدينة، وكان الأهالي يهبون من نومهم فزعين بسبب الفوانيس الكاشفة التي كانت تنزلها الطائرات قبل قذف القنبلة والتي كانت تحيل الليل نهارًا، كانت الغارات الجوية مكثفة لدرجة أدّت إلى ترك الكثير من الإسكندريين بيوتهم إلى مناطق بعيدة عن القصف وهو ما أطلقوا عليه «الهجار».

كان هذا حال أهالي المدينة، فما بالنا بأهالي طلاب كلية فيكتوريا من جميع أنحاء مصر والعالم، والذين أرسلوا أبناءهم للتعلم في مدينة تحت القصف الجوي! فما كان من مستر ريد بسرعة بديهته إلا أن طلب من المجلس الثقافي البريطاني توفير مكان لنقل الطلاب إلى القاهرة، وبالفعل تمّ نقلهم إلى المدرسة الإيطالية في «شبرا» الحي الشعبي الشهير بالقاهرة. كانت المدرسة تابعة للجالية الإيطالية وقد تمّ الاستيلاء عليها كباقي الممتلكات الإيطالية في مصر من قبل القوات الإنكليزية.

مارسيل بيحار، أول الطلاب الذين قدموا أوراقهم في فيكتوريا شبرا عام 1940، بعد أن قضى بفيكتوريا سان ستيفانو عامين من 1941 وحتى 1943، يذكر أن أسماء

الأسر كانت بالألوان أصفر وأخضر وأزرق وذلك حتى عام 1942 قبل أن تسمى بأسماء المدرسين أو الشخصيات المؤثرة في التاريخ الإنكليزي[1].

الطلاب الإيطاليون يتركون فيكتوريا

بإعلان روما الحرب، تعرض الإيطاليون المقيمون في مصر في ذلك الوقت للاضطهاد الإنكليزي، وأدّت الاعتقالات الجماعية التي قام بها الإنكليز تجاه الإيطاليين إلى نزوح العديد من العائلات من مصر وكان ذلك هو الحال أيضًا في أعوام الحروب التالية 1956، 1967، و1973، مما أثّر على تعداد الطلاب الإيطاليين في كلية فيكتوريا. فبمجرد إعلان إيطاليا نيتها الحرب، تمّ اتهامهم جميعًا بـ «الشخص الخطير جدًّا». وكان تعداد الإيطاليين المقيمين في مصر في عام 1940 عند إعلان الحرب يزيد عن 50 ألف إيطالي. وتمّ عقابهم من قبل الحكومة المصرية (التي كانت تعمل وفقًا لأوامر بريطانية) وفقًا للمعاهدة المبرمة مع بريطانيا عام 1936، والتي بمقتضاها تمّ عقابهم بالتسريح من العمل، والتجريم المدني، ومصادرة الأموال والمنقولات والعقارات والاعتقال في معسكرات الاعتقال الجماعية شبه العسكرية، وحظر الاجتماع والتردد على الأماكن العامة، ومنع المفصولين من الاقتراب أكثر من 500 متر من أماكن

(1) www.thelastvictorian.com.

عملهم القديم، وحظر ممارسة أي نشاط اقتصادي وتجاري وتسليم أجهزة المذياع للسلطات المحلية، واعتقال الرجال من سن 15 إلى 65 عامًا والنساء اللاتي يمثلن «مصدر خطر» وهو ما جعل إيطاليي مصر أشبه بـ «الخارجين عن القانون».

وكان إعلان دخول إيطاليا الحرب يوم 10 حزيران/ يونيو 1940، قد أثار الفزع في مصر باقتراب الحرب من ديارها للمرة الأولى. فقد كانت الخطة الاستراتيجية الإيطالية هي غارة على قناة السويس لعرقلة الملاحة أمام السفن الإنكليزية، ثم هجوم كاسح من الحدود الليبية لتحطيم المقاومة الإنكليزية والتقدم في الأراضي المصرية[1].

وكان المصريون في قمة الغضب من الإنكليز الذين ظلوا جاثمين على أنفاسهم لمدة 60 عامًا، وتسببوا في جلب ويلات الحرب لهم دون أن يكونوا طرفًا فيها. تلك الويلات التي لا تزال أراضي مصر تعاني منها، فالألغام التي زرعت في صحاريها في وقت الحرب لم يتمّ التخلص منها بعد ولا تزال تعرقل التنمية والإعمار فيها.

كان وقتها فرع فيكتوريا القاهرة قد لاقى إقبالًا كبيرًا، وتضاعف تعداد الطلاب عشرات المرات وأصبح 429، 50 طالبًا منهم بالقسم الداخلي، ممن فضل ذويهم أن يظلوا بالقاهرة. وكان من بينهم منصور حسن.

(1) حسين محمود وأمير سلامة، إيطاليو مصر خلال الحرب العالمية الثانية، الجمعية الأهلية ـ لإيطاليي مصر، الطبعة الأولى، 2009، ص 18، 19، 64، 65.

ويروي سمير فهمي العلايلي «دخلت كلية فيكتوريا عام 1940 وكانت الغارات الجوية أثناء الحرب العالمية الثانية سببًا في أننا تركنا الإسكندرية وذهبنا إلى العزبة، ثم غادرناها إلى القاهرة وتحديدًا في المعادي، ودخلت مدرسة إنكليزية هناك ثم انضممت لفيكتوريا شبرا، وكان زميلي في الفصل نفسه الشيخ كمال أدهم، والفنان عمر الشريف».

هذا الإقبال الكبير على فيكتوريا القاهرة دعا مجلس إدارة فيكتوريا للموافقة على استمراره ولكن بقيود كبيرة على قبول الطلاب القاهريين في القسم الداخلي، وكان ذلك رغبة من أعضاء مجلس الإدارة في الحفاظ على فيكتوريا الإسكندرية، بل كان البعض يرفض وجود فيكتوريا أخرى وكان من بينهم مدير فيكتوريا الإسكندرية في ذاك الوقت مستر بارييت Barrit، والذي كان يعتبر وجود كليتين فيكتوريا في مصر عبثًا، وقد يمسّ بسمعة فيكتوريا الإسكندرية كما كان يرفض أن تستمد فيكتوريا القاهرة نجاحها من نجاح الإسكندرية.

لذا كان أمام فيكتوريا القاهرة تحديات كبيرة أولها هو الحفاظ على السمعة الدولية التي حققتها فيكتوريا الإسكندرية، وتحقيق صيت مماثل في القاهرة بل منافسة المدرسة الإنكليزية في هليوبوليس والتي كانت ذات سمعة طيبة وتستقطب أبناء علية القوم.

وكان لنجاح فيكتوريا القاهرة أيضًا صدى كبير خاصة في بريطانيا العظمى التي استطاعت للمرة الأولى في تاريخها أن

تجعل اللغة الفرنسية تحلّ في المرتبة الثانية في الشرق الأوسط. وهو ما أشاد به الملحق التعليمي لجريدة التايمز اللندنية في أيلول/سبتمبر من عام 1947.

وفي افتتاح المباني الجديدة لفيكتوريا القاهرة في المعادي، في 26 أيار/مايو عام 1949، ألقى وزير التعليم المصري آنذاك علي أيوب بك، خطبة قال فيها إن كلية فيكتوريا تعتبر نموذجًا للأمم المتحدة، وقال ميجور فانر Fanner، رئيس مجلس إدارة فيكتوريا القاهرة، إنه بحلول عام 1947 وصل عدد الطلاب إلى 500 طالب، 50 طالبًا في القسم الداخلي وهو الحدّ الأقصى الذي يمكن أن تستوعبه المدرسة من الطلاب.

وبالفعل تمّ انتقال مباني الكلية إلى أرض تبلغ مساحتها 22 فدانًا تمّ شراؤها من شركة أرض الدلتا. وقام بتصميم المباني الجديدة مهندس معماري إنكليزي له صيت كبير في تصميم المدارس في إنكلترا. جاء التصميم على الطراز الحديث موفرًا كافة المرافق التعليمية من معامل للأحياء والكيمياء والفيزياء، فضلًا عن القسم الداخلي وترك مساحات شائعة للملاعب الرياضية وصلت إلى 13 فدانًا، اتّسعت لست ملاعب كرة قدم، وإسطبل للخيول.

وكان مجلس إدارة فيكتوريا القاهرة يضمّ أيضًا محمود بك أباظة، والذي كان من خريجي فيكتوريا، وكذلك فارس بك ساروفيم. ولكن الكثير من الطلاب كان يجد فيكتوريا القاهرة أقل فخامة من الإسكندرية، وكان طلاب الإسكندرية لا يعتبرون

طلاب فيكتوريا القاهرة فيكتوريون من الأساس، مما كان دومًا يشعل المنافسة بينهم. ولا زال هذا السجال قائمًا حتى الآن!

وبنهاية أكبر نزاع مسلح في التاريخ، انتهت حالة الطوارىء بكلية فيكتوريا أيضًا، وكأنها مرآة تعكس ملامح التاريخ، فعادت فيكتوريا الإسكندرية إلى مبانيها في السيوف 1945، وكان تعداد طلابها 673 طالبًا، وعدد طلاب القسم الداخلي 169.

في التقرير السنوي لكلية فيكتوريا (1944 ـ 1945) بعد انتهاء الحرب وإعادة السلطات البريطانية المدرسة، كانت العودة حتمية إلى الإسكندرية، وتمّت إعادة الطلاب الذين يقطنون خارج القاهرة أو من خارج مصر إلى مباني الإسكندرية، وبالفعل تمّت إعادة 88 طالبًا بالقسم الداخلي إلى الإسكندرية.

حرب 1948

لم تكد كلية فيكتوريا تلتقط أنفاسها اللاهثة من تبعات الحرب العالمية إلا وقد نشبت حرب 1948 والتي كان لها أثر كبير على الطلاب اليهود والفلسطينين داخل كلية فيكتوريا، ولكن تعسّر أهالي الطلاب الفلسطينيين ماديًا وقت الحرب كان أمرًا كارثيًا، لكن بالرغم من ذلك لم تبرز سجلات الكلية تسرب الطلاب الفلسطينيين بل يبدو أن الكلية قد وقفت إلى جانبهم في محنتهم برغم موقف بريطانيا المعروف إزاء فلسطين آنذاك. وهنا يحسب لكلية فيكتوريا مسألة الحياد والالتزام بالتربية والتعليم.

توقفت الدراسة بكلية فيكتوريا لمدة شهرين، فقد تأثرت فيكتوريا التي تنأى بنفسها عن السياسة بسبب الأحداث التي تعرضت لها مصر، أغلقت كلية فيكتوريا أبوابها في تشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر من عام 1951، على إثر الاشتباكات التي حدثت بين الجنود البريطانيين وضباط الشرطة المصريين في منطقة القنال، وهو ما ذكر في تقرير المدرسة عن تلك الفترة.

العدوان الثلاثي:

في تلك الحقبة من تاريخ كلية فيكتوريا كان مستر هيربرت وليام باريت Barritt قد تولى إدارة فيكتوريا في الفترة من عام 1947 وحتى 1956، وكان باريت من خريجي جامعة كامبريدج وتحديدًا كلية بيترهاوس للعلوم، وأصبح بعدها مديرًا لكلية راج كومار في الهند، ومن بعدها أصبح مديرًا لكلية فيكتوريا، ودرست بناته في الكلية الإنكليزية للبنات EGC وظل مديرًا لفيكتوريا حتى العدوان الثلاثي، بعدها غادر إلى إنكلترا مرة أخرى، ثم أصبح مديرًا لمدرسة سان جوليان في البرتغال إلى أن فارق الحياة عام 1967 ودفن في لشبونة. وتروي ابنته شيرلي في نشرة كلية فيكتوريا الصادرة بمناسبة مرور مئة عام على إنشاء كلية فيكتوريا أن «تلك الحقبة التي تولى فيها والدي إدارة الكلية، شهدت توسعات كبيرة في مباني الكلية وإضافة فصول دراسية وتوسعات في القسم الداخلي، وتمّ إنشاء قاعة الجيمنازيوم، وحوض السباحة الذي تبرع به آل باسيلي وعلى

رأسهم تاجر الأخشاب اليوناني الثري باسيلي، لتخليد اسم عائلته الذين درسوا في كلية فيكتوريا وعرفانًا منهم بجميل الكلية، وتضيف شيرلي: «ترتبط كلية فيكتوريا لدي بالعديد من الذكريات السعيدة التي جمعتني بها عبر جمعية خريجي الكلية الإنكليزية للبنات EGC التي أنتمي إليها».

عقب رحيل مستر باريت تولى إدارة كلية فيكتوريا مستر رايدر Mr. Raider مدرّس الرياضيات المحبوب لدى طلاب الكلية. وكان بعض الطلاب قد ترك كلية فيكتوريا نظرًا لظروف الحرب في السويس، كما أن الحكومة المصرية قد قررت آنذاك طرد بعض الرعايا الأجانب وكانت الغالبية من العائلات اليهودية، مما أثر على أعداد الطلاب اليهود المنتمين لكلية فيكتوريا. وقد كان عدد الطلاب اليهود بكلية فيكتوريا الإسكندرية نسبة غير قليلة وكانوا ينتمون لكبار العائلات اليهودية الإسكندرية. وكان التغير الآخر الذي طرأ على كلية فيكتوريا هو تحول مجلس الأمناء إلى مجلس المحافظين.

تعرضت كلية فيكتوريا تدريجيًا إلى أفول نجمها وسط غياب التنوع والتعددية والكونية التي كانت تتميز بها عن سائر المعاهد الدراسية، ونستطيع أن نجزم بأن فيكتوريا ما بعد 1956 قد أصبحت كيانًا آخر مبهمًا بالنسبة لفيكتوريا ما قبل 1956. ففضلًا عن عدم إقبال العائلات العربية الكبرى على إرسال أبنائها للتعليم في مصر بسبب الحرب، فالمنافسة التي تعرضت لها من قبل المدارس الأخرى كانت شديدة، كما وصمت بسبب الشائعات بأنها معقل للجواسيس.

في منتصف الستينيات، بدأ تبدل حال المدرسة وربما بداية الأفول، فكأن شعور الطلاب بتهتك القوانين الصارمة للإدارة الإنكليزية فجّر الكبت الموجود داخلهم تجاهها مما دفعهم لكسر جميع القواعد والتقاليد. فأصبح من المعتاد أن يحدث مشاجرات ومشادات بين الطلاب.

وتكسرت الحواجز التي كانت بين المدرسين والطلاب فأصبح الطلاب يمارسون الشغب الذكوري بحرية كبيرة، مما أدى إلى توتر العلاقة بين المعلمين والطلاب في كثير من الأحيان.

وقد تحوّل مجلس المحافظين إلى مجلس الآباء والمعلمين، وبدأ الآباء يطالبون بتشييد مسجد بكلية فيكتوريا، كان ذلك نتيجة صعود الوازع الديني إلى جانب النزعة القومية أيام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وكان الظرف التاريخي والسياسي دافعًا ليتقدم الحاج نوفل، أحد كبار التجار في الإسكندرية آنذاك، المعروف بتدينه وورعه، بطلب للمجلس بإنشاء المسجد، فلم يواجه بالرفض وبالفعل قام بالتبرع بإنشائه، وسط استغراب بعض الطلاب الذين لم يعتادوا وجود مكان لإقامة الشعائر الدينية داخل كلية فيكتوريا الصرح التعليمي العريق. لكن كان الطلاب المقيمون بالكلية بالقسم الداخلي أكثر سعادة بوجوده.

وتتابعت التغيرات الجذرية على كلية فيكتوريا، وتولّت أول مديرة إدارة كلية فيكتوريا وكانت مسز ليتسا فلورينتس اليونانية الأصل، بعدها تمّ تأميم الكلية مما تسبّب بهجرة الكثير من الجاليات الأجنبية من مصر، وتبعتها الكثير من الدول العربية فقد تخلخلت البنية الطبقية في الوطن العربي.

وكان عنفوان الهيمنة البريطانية في مصر قد بدأ يخفت تدريجيًّا منذ العام 1948 وحتى ظهور حركة الضباط الأحرار التي أدّت لقيام ثورة 1952، مما كان له شديد الأثر على كل ما هو أجنبي في مصر، واعتبر المصريون كل من لا ينطق بالعربية أجنبيًّا عنهم بل وفي وجوده ضرر لهم.

تأميم كلية فيكتوريا

كلية النصر

في عام 1956، الذي كان نقطة تحول في مقدرات الكثير من المؤسسات والهيئات الأجنبية، ونقطة تحول كبرى في تاريخ كلية فيكتوريا، إذ تولى كلية فيكتوريا أول مدير مصري هو أحمد حلمي، بعد أن تحوّل اسمها إلى «كلية النصر». وأصبحت مدرسة تابعة لنظام التعليم المصري، أي تحولت من GCE إلى ثانوية عامة مصرية.

مجلس أمناء بريطاني

وبعد سلسلة التأميمات التي طالت جميع المدارس الإنكليزية، تمّ أخذ أموال التعويضات التي دفعتها الحكومة المصرية للمدارس الإنكليزية في الإسكندرية فكانت قيمة التعويض لكلية فيكتوريا 898. 659 استرليني، والكلية الإنكليزية للبنات 883. 429، والكلية الإنكليزية للبنين 899. 93 استرليني[1]، كانت تلك الأموال نواة لهيئة في لندن

(1) Sahar Hamouda, Victoria College, p:235.

سُمِّيت «مجلس أمناء مدارس الإسكندرية» غرضها إرسال مدرّسين إنكليز يدرسون في المدارس الإنكليزية لضمان الحفاظ على مستواها اللغوي. كان ذلك المجلس أشبه بمجلس ثقة يتولى دعم المدارس الإنكليزية في مصر برئاسة مستر مايكل باركر. وهو المجلس الذي أقيم لحماية أموال التعويضات ولا يزال هذا المجلس قائمًا حتى الآن، وكان يتولى إرسال مدرّسين بريطانيين لتدريس اللغة الإنكليزية أو تقديم الدعم المادي لاستمرار تلك المدارس. وقد تمّ إرسال ديفيد توماس، ونيل كونيلي في منتصف السبعينيات لتدريس اللغة والأدب الإنكليزي في كلية فيكتوريا لمدة 20 عامًا. وكان لهما دور كبير في إخراج عدد من مسرحيات شكسبير على أعلى مستوى وبالتالي كان لهما الفضل في إحياء النشاط الثقافي المسرحي.

وأيضًا في بداية الثمانينيات من القرن الماضي تمّ إرسال آخر مدرّس بريطاني وهو كولين كليمنيت، والذي لا يزال يعيش بالإسكنْدرية حتى يومنا هذا. وقد تحولت الغرف المعيشية التي كان يقيم بها المدرّسون الإنكليز بعد رحيلهم إلى فصول دراسية لتستوعب الكثافة الطلابية.

مجلس الإدارة:

كان مجلس إدارة كلية فيكتوريا على مدار قرن من الزمان يضمّ الباشوات والشخصيات المرموقة وكبار رجال الأعمال مما أعطى لها بريقًا خاصًا. يتشكّل مجلس الإدارة من أولياء أمور الطلاب الذين يتمّ انتخابهم لكي يقوموا بإدارة الشؤون

المالية للكلية وما يتعلق بها من رواتب ومكافآت وتنظيم احتفالات وغيرها.

ويقول أستاذ ناصر فتيحة، أحد أقدم أعضاء مجلس إدارة كلية فيكتوريا «مجلس إدارة الكلية تعاقب عليه الكثير من الشخصيات البارزة من أولياء أمور الطلاب، وقد عمل المجلس مع إدارة المدرسة على تطوير حمام السباحة ليصبح صالحًا للاستخدام في الشتاء، وكذلك الملاعب التي أصبحت على أعلى مستوى مما جعل أكاديمية النادي الأهلي تستأجرها لتدريب المواهب الشابة، كما كانت القنصلية الأميركية تستأجر الملاعب للعب كرة القدم الأميركية».

مجلس الإدارة يتكوّن بالأساس من ستة من أولياء أمور الطلبة (يكون من ملّاك أسهم بالمدرسة) ويتمّ انتخابهم لمدة سنتين عن طريق انتخابات تجديد نصفي، ويعيّن اثنين من المهتمين بالتعليم، ثم تغيّر الوضع ويتمّ تعيين واحد فقط من وزارة التربية والتعليم.

ويختص مجلس الإدارة بالنواحي المالية، ومنها حفلات التخرّج وغيرها. وتمّ استغلال المساحات بالمدرسة وأصبح بها تسعة ملاعب كرة السلة، وحصلت المدرسة على «أيزو» الجودة عام 2011 في نظام التعليم العالي الأميركي.

ولعل أبرز التغييرات التي طرأت على نواميس كلية فيكتوريا وقواعدها بعد أن زالت عنها هيبتها كقلعة بريطانية، أن شروط القبول أصبحت أقل صرامة وأكثر مرونة، وأصبحت كلية

فيكتوريا تجمع بين أبناء الأثرياء وأبناء الموظفين أو حتى العمال والسائقين، ولكنها ظلت تظلّلهم تحت شعار «كلنا واحد» الذي كان يذيب كل الفوارق الاجتماعية.

وكان من التغيرات التي تبعت تلك التغيرات السياسية والاجتماعية بمصر عقب عام 1967، دخول مادة الدين كمقرر رسمي ضمن المناهج التعليمية واعتباره مادة نجاح ورسوب، وكان ذلك تغيرًا جذريًا في كلية فيكتوريا التي لم تكن تعتبر الدين مادة أساسية وكان يدرّس فقط بناء على طلب أولياء الامور، باعتباره أمرًا اختياريًا. وإذا بالطلاب في فيكتوريا يقسمون وفقًا للديانة فكان الطلاب المسلمون يظلّون بالفصول في حين ينضم المسيحيون واليهود في فصل منفصل آخر، وأحيانًا كان بعض الطلاب اليهود أو المسيحيين يبقون في حصة الدين الإسلامي إما لتحسين اللغة العربية أو حبًا في البقاء مع زملائهم.

وفي نهاية الستينيات، حوالي العام 1967، تمّ تعديل لائحة القبول بالكلية وتمّ قبول الفتيات وأصبحت مدرسة مشتركة، وفي منتصف السبعينيات توقف النشاط الثقافي المسرحي، وقد ساهم مجلس أمناء مدارس الإسكندرية في لندن في إحيائه مرة أخرى بدعم مادي كبير. وتمّ إلغاء لائحة قبول الفتيات وعادت كلية فيكتوريا في أواخر الثمانينيات ككلية للبنين فقط، وذلك نظرًا لزيادة المشاكل بسبب اختلاط الطلبة والطالبات وصعوبة السيطرة عليهم، لذلك تمّ إلغاء هذا القرار. وكان وجود الفتيات الصغيرات قد حلّ معضلة أداء البطولات النسائية لمسرحيات شكسبير.

وفي حقبة التسعينيات، تسبّب تنوع المدارس الأجنبية في سحب البساط من كلية فيكتوريا وتبدّدت هذه الأسطورة، لكن سمعتها جعلت الإقبال عليها قائمًا خاصة بعد إدخال نظام التعليم العالي الأميركي بها. وظلّ عدد من طلاب ليبيا والسودان ونيجيريا يقدمون على التعلم فيها.

حاليًّا تضم كلية فيكتوريا حوالي 5000 طالب ولكن المدرسة تحافظ على أن يكون الحدّ الأقصى للطلاب في الفصل 45 طالبًا. ورغم خفوت نجمها في السنوات الأخيرة إلا أنها عادت منذ أربع سنوات ليتخرّج منها الطالب الأول في الثانوية العامة على جمهورية مصر العربية. كذلك أنجب القسم الأميريكي فيها الطالب «عمر عوبيه» الذي صنفته غوغل على أنه من أفضل 30 مبرمجًا على مستوى العالم بعمر 17 عامًا.

كلية فيكتوريا دائمًا عامرة بالزيارات لطلابها القدامى من مختلف جنسيات العالم. فليس غريبًا أن تجد موكبًا بسيارات فارهة وحرس يهرولون يتوسطهم شخصية بارزة، إنه أحد خريجي كلية فيكتوريا يرفل إلى حرمها، أو رجل خمسيني بملامح أوروبية في حرم كلية فيكتوريا برفقة عائلة لالتقاط الصور التذكارية، يتفقد بحنين جارف كل شبر فيها.

جمعية قدامى الخريجين بالإسكندرية

Old Victorian association (OVA)

دشّن هذا التقليد الفيكتوري الرائع في أيار/مايو 1912، والذي حاولت العديد من المدارس تقليده فيما بعد لما له من

صيت وشهرة خاصة وأن أعضاءه من الملوك والأمراء. كانت البداية بتأسيس نادي لقدامى خريجي الكلية وتمّ اختيار J.D.Barda سكرتيرًا فخريًا، وارتفع عدد الأعضاء من 33 عضوًا إلى 60 في أقل من ستة أشهر. وكانت أنشطة النادي متمثلة في الاجتماعات وممارسة الرياضة وتحديدًا لعب كرة القدم وممارسة الكريكيت والسباحة والحفلات الموسيقية.

تشكّل النادي واتخذ أول مقرّ له في 6 شارع اسطنبول بمحطة الرمل بالإسكندرية، وذلك في عام 1913، ثم انتقل إلى مقر آخر في 9 شارع شريف باشا وذلك عام 1929، ثم انتقل أثناء الحرب العالمية الثانية إلى الأزاريطة في المبنى المواجه لمقر القنصلية البريطانية آنذاك. وكانت اشتراكات الأعضاء تبلغ أربعة جنيهات سنويًا. أما نادي قدامى الفيكتوريين في القاهرة فقد افتتح عام 1929 واتخذ له مقرًا في سافوي تشامبرز، ثم انتقل إلى شارع عدلي وهو المقر الذي طاله حريق القاهرة عام 1952.

وكان أول حفل عشاء سنوي في 27 تموز/يوليو 1912 في غرفة الطعام بالكلية، والذي لاقى نجاحًا كبيرًا. وقد أقيم على شرف أسقف لندن الذي زار المدرسة في ذلك العام وأبدى إعجابه الشديد بها وترسيخها للتقاليد الإنكليزية في التعليم مشبهًا إيّاها بكلية إيتون الإنكليزية.

وكان من أشهر الولائم التي أعدت بالكلية عشاء في عام 1938 على شرف أمين عثمان باشا وكيل وزارة المالية، والسكرتير العام للوفد المصري في مفاوضات سنة 1936،

بمناسبة منحه لقب فارس من قبل الملك جورج الخامس (George V)، ملك بريطانيا العظمى وإيرلندا، وإمبراطور الهند وأحد أبناء الملك إدوارد السابع. وأقيم حفل عشاء آخر على شرف أمين عثمان في حضور صديقة الشخصي السير مايلز لامبسون (لورد كيلرن)، احتفالًا بتوليه منصب وزير المالية المصري في حكومة الوفد (4 شباط/فبراير 1942 ـ 8 تشرين الأول/أكتوبر 1944).

في كانون الأول/ديسمبر 1942 أقيم عشاء الفيكتوريين القدامى في القاهرة على شرف الأمير عبد الله، الوصي على عرش العراق، وكان من بين الحضور (لورد كيلرن) ورئيس الوزراء المصري في ذاك الوقت مصطفى باشا النحاس، ونظيره العراقي نوري باشا السعيد.

وبسبب الحروب توقفت أنشطة نادي الخريجين، وفيما بعد نجح كبار الخريجين في تأسيس جمعية مشهرة في كانون الثاني/يناير عام 1978، ولم يكن لديها رأس مال اللهم إلا اشتراكات الأعضاء التي تعتبر زهيدة جدًا، وكانت وقتها خمسة جنيهات للمصريين المقيمين، وعشرة دولارات للمقيمين بالخارج. وبدأت الجمعية تحبو أولى خطواتها بدفع من أعضائها الأثرياء الذين لم يبخلوا عليها وأغدقوا عليها التبرعات لكي تتمكن من تحقيق أهدافها السامية.

وكان لمستر تشارلز حمدي مدرس الكيمياء المحبوب لدى الطلاب والذي كان مديرًا للكلية في ذاك الوقت، الفضل في إحياء الجمعية بعد أن خفت نشاط أعضائها، حيث اقترح

جمع التبرعات من الخريجين القدامى حول العالم لدعم الكلية التي كانت تمرّ بأزمة مالية كبيرة.

بعد ذلك تولى رئاسة الجمعية واحد من أشهر خريجيها هو الدكتور أدهم النقيب، الذي كان طبيب الملك فاروق، مدير مستشفى جمال عبد الناصر «كوتسيكا اليوناني سابقًا»، وبالفعل نجحت الجمعية في تنظيم تجمعات دولية واحتفالات لفتت أنظار العالم ووسائل الإعلام، وكان من أنجحها الاحتفال باليوبيل الماسي لكلية فيكتوريا.

وكانت أفكار د. أدهم النقيب رئيس جمعية الخريجين، تترجم إلى محاولات عديدة لتخليص كلية فيكتوريا من البيروقراطية والروتين اللذين توغلا فيها، دون الإخلال بالقوانين المصرية.

وكانت تلك المحاولات في الثمانينيات، والتي كان من بينها استحضار مشرفة «House Keeping» إنكليزية للقسم الداخلي الذي يجب أن يكون على أعلى المستويات من كافة النواحي. والتي كانت تكلفتها في الثمانينيات عشرة آلاف جنيه في السنة، ومسؤول عن تدريس اللغة الإنكليزية وتكون له خلفية إدارية.

وتسعى الجمعية لترسيخ مبادىء وقيم فيكتوريا التي غرست فيهم وأهمها أن يكون خريج فيكتوريا وفقًا للتعليم الذي حصل عليه مواطنًا عالميًّا رصينًا وناجحًا يعكس صورة مشرّفة للكلية وتقاليدها، وهي الصورة التي تحقق له منافع ومزايا عديدة كونه فيكتوريًّا.

كذلك من القيم التي يجب أن يحملها خريج فيكتوريا هو أن يعوّل عليه في إعادة النهضة الثقافية والحضارية لبلاده وهو ما تمّ تأهيله له جيدًا بسبب حاضنته الكوزموبوليتانية.

كما عليه أن ينتزع احترام الجميع حتى السلطات المصرية التي تقدره، حيث تؤمن التجمعات السنوية للفيكتوريين الذين يصبحون فور تجمعهم في مكان ما أو أي دولة، محط أنظار العالم لما يتقلدونه من مناصب وما حصدوه من جوائز وأوسمة دولية في مختلف المجالات.

وتحاول جمعية فيكتوريا الإسكندرية تمرير تلك القيم والتقاليد الفيكتورية إلى الأجيال الجديدة من خلال تحميلهم بعض المسؤوليات والمهام.

إلا أن هؤلاء الفيكتوريين العظماء تجدهم فجأة وقد ارتسمت ملامح الطفولة على وجوههم يمرحون ويمزحون بلا ألقاب وبلا حواجز، يفتخرون ببعضهم ويفرحون لما وصل إليه بعضهم من مناصب بكل حبّ دون أحقاد، فقد عاد كل منهم لأقرانه وأصدقاء طفولته الأوفياء الذين جمعتهم عشر سنوات ترعرعوا فيها معًا، تلك العلاقة التي تُعتبر أهم علاقة في حياة الإنسان، فأصدقاء الدراسة هم أول جماعة مرجعية ينتمي إليها الفرد، ولقاؤهم بعد كل تلك السنوات إنما يزيل متاعب الزمن، ويستريحون استراحة محارب من مكر الساسة.

ومن الأمر الرائع الذي قدّمته جمعية خريجي كلية فيكتوريا هو مساندتها لجمعية خريجات EGC، والتي شقّت

طريقها وأصبحت النصف الحلو لجمعية الرجال الفيكتوريين، وأصبح التعاون بين الجمعيتين مصدرًا لقوتهما كأقوى جمعيتين للخريجين في تاريخ المدارس في العالم، وتمّ تنظيم العديد من الفعاليات الناجحة التي زاوجت في بعض الأحيان ما بين خريجي المدرستين.

ومن الطرائف التي كانت دائمًا ما تحدث بين الجمعيتين والتي يرويها مستر فرانسيس مساعد مستر آرموند كحيل (1941 ـ VC 45) ذي الأصول اللبنانية، أنه كان السكرتير الفخري لجمعية الخريجين منذ تأسيسها عام 1978 وحتى عام 1998 حتى وافته المنية في أحد التجمعات الفيكتورية في سويسرا، وكان محرر النشرات الخاصة بالجمعية، لكنه كان دائم الشكوى من عدم قدرته على التواصل مع خريجات الكلية الإنكليزية للبنات لعدم قدرتهم على الحديث بالفرنسية!

وهنا تجدر بنا الإشارة إلى أن الملكة صوفيا ملكة إسبانيا إحدى خريجات الكلية الإنكليزية للبنات، لا تزال الرئيسة الشرفية لجمعية الخريجات، وهي لا تبخل بوقتها كلما زارت مصر في أن تجتمع معهم.

وكان أبرز التجمعات التي نظمتها جمعية خريجي كلية فيكتوريا الإسكندرية هو الاحتفالية التي أقيمت ما بين مكتبة الإسكندرية وفندق فلسطين عام 2002، وشهدت حضور كبار الخريجين وأشهرهم وعلى رأسهم : الملك حسين وزيد الرفاعي ورعد بن زيد والفنان الكبير يوسف شاهين والفنان سمير صبري والملياردير عدنان خاشقجي وغيرهم. وكان نتاج

الاحتفال بمئوية كلية فيكتوريا، تدشين موقع إلكتروني يعتبر سجلًا افتراضيًّا لتاريخ الكلية العريقة.

ومن المواقف التي ذكرت في أحد نشرات جمعية خريجي فيكتوريا الإسكندرية الصادرة عام 1988، هو الزيارة المفاجئة لأحد الفيكتوريين القدامى وكان يدعى «ديكران تاجايلكيان» وهو خريج الكلية عام 1933، وهو من الجالية الأرمنية، جاء ومعه شقيقه هاغوب الذي تخرّج من الكلية أيضًا عام 1920، وهاجر إلى كندا، وعاد في عمر 88 مدفوعًا بحنين جارف لمصر ولكلية فيكتوريا، كانت رغبتة العارمة في زيارة منزله ومدرسته التي قضى بها أروع أيام طفولته هي التي جاءت به كل تلك الأميال.

وظل هاغوب يتذكر أول يوم دراسي له، وعلاقته بمستر ريد والمواقف التي جمعتهما ومنها حينما «قفشه» مستر ريد متلبسًا يملأ كراسته برسومات المناظر الطبيعية المحيطة بالمدرسة بدلًا من دروسه، وظنّ أنه سيعاقبه ولكنه شجعه على صقل موهبته، من هنا كانت بدايته مع عالم الفن التشكيلي. ولكن الحزن طغى على هاغوب لحالة التدهور الذي وصلت إليه الإسكندرية.

الفيكتوريون القدماء في لندن

كانت البداية بإعلان صغير جدًّا في جريدة التايمز اللندنية للبحث عن خريجي فيكتوريا الإسكندرية، وإذا بذلك الإعلان يعتبر نواة تكوين جمعية الخريجين في لندن. فقد كانت

الاستجابات غير متوقعة. كان صاحب المبادرة في تأسيس ذلك الفرع في لندن عام 1969 هو منير شلبي والذي رئسها منذ بدايتها، واستطاع تجميع 400 خريج حول العالم لينضموا للجمعية. كانت تلك النواة التي تمخضت عن جمعيات مماثلة في كل من أميركا وكندا وسويسرا واليونان.

وكانت تضمّ الجمعية في عضويتها معالي الشيخ كمال أدهم، مؤسس المخابرات السعودية والمستشار الخاص الملك فيصل بن عبد العزيز، ويعتبر أشهر الأسماء التي تتردد كثيرًا بين خريجي كلية فيكتوريا، وكان معه أحمس خليفة، الذي كان مساعدًا للتايكون السعودي الشيخ كمال أدهم، والذي اغتيل في لندن.

ومن أبرز ما قدمه الخريجون القدامى في لندن، هو قيامهم بجمع تبرعات خلال الاجتماع السنوي للخريجين الذي عقد عام 1982 في العاصمة البريطانية، لصالح ضحايا الحرب في لبنان. وقامت زوجتا اثنين من قدامى الخريجين جورج كاردوش وفتحي لطفي، بجمع 13 ألف جنيه استرليني تمّ تسلميها للصليب الأحمر لهذا الغرض، وقد تسلم كاردوش خطاب شكر من جمعية الصليب الأحمر البريطانية.

وفي التجمع السنوي في لندن عام 1984، حضر الملك حسين وزوجته الملكة نور، وكانت لفتة طيبة أن يمروا على كل منضدة لتحية كل أعضاء جمعية الخريجين القدامى وزوجاتهم، وقد أحيت حفل هذا التجمع الراقصة فيفي عبده التي جاءت مع فرقتها الموسيقية.

ولعب الملك حسين التنس مع الأمير رعد بن زيد في نادي بيني هيل بارك، وعلى الغداء كان على الطاولة الملكية الكونت سيمون رايلسكي، وزيد الرفاعي، وكانت النكات المصرية تطلق هنا وهناك. وانتهى اللقاء بمباراة كرة قدم بين فيكتوريا الإسكندرية والقاهرة.

وفي اللقاء الذي عُقد في كلية فيكتوريا لجميع الخريجين من أنحاء العالم عام 1988، وضع الملك حسين حجر الأساس لمشروع صالة ألعاب مغطاة كانت لتكون الأولى من نوعها في مدارس الإسكندرية ومصر كلها. ولكن كانت قيمة التبرع الذي تبرع به أعضاء جمعية الخريجين OVA، 150 ألف جنيه لصالح القبض على من قام باغتيال أحمس خليفة في لندن، ولكن بعدما باءت تلك المحاولة بالفشل، تمّ رصد ذلك المبلغ لتلك الصالة المغطاة تخليدًا لاسم طالب كلية فيكتوريا الراحل، وبحدوث خلافات مع مجلس إدارة كلية فيكتوريا، قام أعضاء الجمعية بتخصيص جزء من المبلغ لرعاية الأبطال الرياضيين المحتاجين للدعم بنادي سبورتنغ الشهير بالإسكندرية، وبباقي المبلغ تمّ إنشاء دار للمسنين والعجزة بمنطقة سموحة، أطلق عليها «La Residence».

الفيكتوريون القدماء في الولايات المتحدة

وتأسست كلية فيكتوريا شمال أميركا برئاسة سمير زلزل، وكانت بدايتها عام 1980 وضمّ الاجتماع التأسيسي لها، 31 عضوًا من كندا وستة من الولايات المتحدة الأميركية، ومنذ عام 1993 عانت جمعية خريجي فيكتوريا في لندن من أزمات

مالية وتمّ تحويل نشاطها وعضويات أعضائها إلى جمعية شمال أميركا التي أضحت تنظم تجمعات دولية للخريجين في أماكن متفرقة من العالم.

الفيكتوريون القدماء في سويسرا

بدأت فكرتها في السبعينيات من القرن الماضي، وكانت البداية باستقرار روبربت يازجي، أحد أعضاء جمعية خريجي كلية فيكتوريا في العاصمة البريطانية، وانتقاله للإقامة في سويسرا وهو ما تصادف مع وجود عدد كبير من خريجي فيكتوريا هناك، فأراد يازجي أن يعيد الروح والحيوية للعلاقات التي تجمع هؤلاء الفيكتوريين، وكان ما ساهم في ذلك لقاؤه بنيلسون كاميليري ونيكولا دياب وحافظ التاجي. وبالفعل بدأ أول اجتماع بحضور 20 من الفيكتوريين المقيمين في سويسرا وتزايد العدد بعد ذلك. وبعد خفوت أنشطة جمعية الخريجين في لندن أصبحت الجمعية في سويسرا هي الدينامو المحرك للأنشطة في أوروبا. وكان يتمّ تنظيم العديد من اللقاءات في أنحاء متفرقة في أوروبا وكانت اللقاءات تتمّ في فرنسا وإيطاليا وألمانيا والنمسا وغيرها.

جمعية خريجي كلية فيكتوريا القاهرة:

جاء تأسيس جمعية خريجي كلية فيكتوريا القاهرة مؤخرًا في الألفية الثانية وتحديدًا في أيار/مايو 2003، لتكون أحدث جمعية لخريجي الكلية برئاسة المهندس إسماعيل عثمان، وعضوية المهندس جلال الفر والوزير المصري السابق منصور

حسن وحرمه، ورجال الأعمال: معتز الألفي وجلال الزوربا ومحمود عثمان وحرمه جيهان أنور السادات واللواء عمرو شكري والمهندس محمد الدمرداش ومحمد الألفي والمستشار محمد موسى.

وتجمع الجمعية التي تتخذ مقرًّا لها في وسط القاهرة بين أعضائها خريجو فيكتوريا الإسكندرية المقيمون في القاهرة، والطلاب الذين درسوا في مباني الكلية بالإسكندرية ثم انتقلوا إلى القاهرة إبان الحرب العالمية الثانية، أو من الطلاب الذين انتسبوا مباشرة لفيكتوريا القاهرة سواء في بدايتها في شبرا أو فيما بعد بالمعادي، ومن بين أعضائها : الفنان الكبير سمير صبري، والكاتب الكبير محمد سلماوي، ورجلا الأعمال السعوديان محمد الشربتلي، وعدنان عقيل، والدكتور كريم شعلان زميل الدراسة لتاجر السلاح والتايكون السعودي عدنان خاشقجي، ولا تزال جمعية خريجي فيكتوريا في القاهرة تعقد لقاء شهريًا بانتظام في أرقى فنادق القاهرة يجمع بين الفيكتوريين القدامى، وغالبًا ما ينطوي اللقاء على فعاليات ثقافية وتتمّ دعوة متحدث مرموق كاتب أو أديب أو سياسي بارز أو أحد رجال الأعمال الناجحين. وكان من أبرز من تمّت دعوتهم: الكاتب الكبير أنيس منصور، والسياسيان البارزان منصور حسن، وعمرو موسى.

ولا يقتصر تجمع هؤلاء الخريجيين على حديث الذكريات أو الاستماع لمحاضرة ثقافية وحسب، بل يمتد لتقديم الكثير من الأعمال الخيرية ومنها رعاية الطلاب غير القادرين وتحمل تكاليف دراستهم حتى التخرّج من الجامعة.

وتتعاون تلك الجمعيات في مختلف الأنحاء في ترتيب لقاءات عالمية وأيضًا إقليمية، فأنشطة خريجي فيكتوريا لا تنقطع في أي مكان في العالم عبر عشرات السنين وحتى الآن، وتقام لقاءات واجتماعات في كل من السودان والمملكة العربية السعودية والأردن والكويت وأستراليا، بشكل غير دوري.

أهداف كل تلك الجمعيات حول العالم هو الحفاظ على التواصل والصداقة والثقة والروابط الموجودة بين خريجي كلية فيكتوريا، أيًا كانت المسافات بينهم، ومهما مرّت عليهم السنين، فهم يحافظون على شعار الكلية الذي يحسبونه ميثاقًا مقدسًا «كلنا شعب واحد».

والأمر الجميل الذي أعتبره جديرًا بالاحترام والتقدير هو السلوك الدمث الذي يتمتع به غالبية الفيكتوريين القدامى، وقدرتهم على التواصل برغم مشاغلهم الكثيرة ومسؤولياتهم الكبيرة بسبب المراكز الكبيرة التي يشغلونها، فلا تجد مناسبة دينية أو اجتماعية أو قومية إلا ويوجد رسالة تهنئة وحكايات عن ذكريات جميلة جمعتهم، وبعدها يبدأ سيل الذكريات والروايات ينهمر ليجدد الروح الفيكتورية فيهم.

والسؤال الهام هنا بالنسبة للأجيال المعاصرة التي لم تعاصر الاحتلال الإنكليزي، وبعد كل ما قدّمته الكلية من تربية وتثقيف وتعليم بريطاني: هل تمّ نجلزة الطلاب فعلًا؟

أحد الفيكتوريين القدامى «ممدوح الدخاخني» في عدد مجلة «ذا فيكتوريان» الصادر بمناسبة اليوبيل الماسي في أيلول/ سبتمبر 1983، أجاب عن تساؤل من هم «الفيكتوريون القدماء»

وما إذا كان قد تمّت نجلزتهم؟! يقول الدخاخني «المصريون لا تتمّ نجلزتهم بسهولة، رغم اعتزازي بنظام التعليم البريطاني الخاص Britich public system، ورغم كل ما به من أخطاء، أعتقد أننا حصلنا على تعليم كولونيالي، ورغم كوننا مصريين فقد ربينا على ثقافة وتراث لبلد أخرى هي بريطانيا العظمى، ولكن أيضًا لا نزال وطنيين وتخرج من بيننا العديد ممن قادوا مصر نحو الأفضل!. وأشار إلى أنه أعاد تثقيف نفسه وتعلم تاريخ مصر والمنطقة العربية وهو تاريخ قد لا يعرفه الكثير من الفيكتوريين القدماء الذين تربوا على القيم والمبادىء البريطانية، ونشؤوا على أيدي مستر لياس ورييد وريدر.

أرى أن مسألة «النجلزة» هي سلوك يتوقف على الاستعداد الشخصي، بمعنى أنه قد يكون الإنسان محاطًا بمظاهر الحياة الغربية لكنه تربى على عادات وتقاليد قوية فلا تؤثر فيه أي مظاهر، فمثلًا هناك عدد من خريجي فيكتوريا الذين لم يعاصروا مرحلة الإدارة الإنكليزية وإنما قاموا هم أنفسهم بنجلزة ذاتية.

والحقيقة أن كثيرًا من الإنكليز الذين قدموا من أكبر جامعات إنكلترا ليقوموا بمهام التدريس للمصريين والعرب والأجانب على حدّ سواء، قد تمصروا وانصهروا داخل نسيج المجتمع المصري، فأصبح بعضهم يعشق كل ما هو مصري من التاريخ المصري القديم، وتزوج من مصريين، وعاشوا في مصر حتى مماتهم ودفنوا في ثراها، ومن عاد منهم إلى بريطانيا ظل متواصلًا مع طلابه المصريين أو كان

يزور مصر من حين إلى آخر معتبرين أن أحلى ذكرياتهم كانت بها، وهو ما يبدو في مذكرات العديد من الإداريين والمعلمين الإنكليز الذين كانوا في كلية فيكتوريا. وهو أمر ليس مستغربًا فقد جمعت بينهم وبين المصريين أوقات حميمة وذكريات كثيرة حتى أن بعض أمسيات كلية فيكتوريا كان يقضيها الطلاب والمعلمون مستمتعين بعشاء مصري من «الكفتة»، حتى الغداء كان «الملوخية» أو «المحشي». لا شك أن الطلاب تأثروا بأساتذتهم الإنكليز ولكن كان التأثير متبادلًا فكما تمّت نجلزة المصريين فقد تمصّر الإنكليز.

الفصل الرابع

طلاب ضد الإمبريالية والكولونيالية البريطانية

أسطورة كلية فيكتوريا التي ظلّت على مدار قرن من الزمان ملء السمع والأبصار في جميع أنحاء العالم، والتي ظل جميع الصبية يحلمون بدخولها، برزت وجوه من بين طلابها ناقمة عليها وحاولت تبديد تلك الهالة التي أحاطت بها.

طلاب ضد الإمبريالية والكولونيالية البريطانية

رغم جودة التعليم وكل ما قدمته فيكتوريا لطلابها عن الثقافة الإنكليزية والتاريخ العالمي، إلا أنهم كانوا يصطدمون بحجر عثرة ألا وهو أنهم لا يعلمون شيئًا عن تراثهم وتاريخهم المصري والعربي. فقد تمّ خلعهم من جذورهم الثقافية وعاداتهم وتقاليدهم، فقد كان الطلاب يدرسون تاريخ أوروبا وبالأخص أمجاد الأمبراطورية البريطانية وتاريخها والحروب العالمية وتاريخ العائلات الملكية في أوروبا، إلا أنهم كانوا يجدون أنفسهم بمعزل عن السياق التاريخي لبلادهم وموطنهم الأصلي مما سبّب للكثيرين منهم حالة «الاغتراب».

إدوارد سعيد

هذا الواقع المرير والمفجع كشف عنه المفكر إدوارد سعيد، في مذكراته «خارج المكان»: «اتّسمت حياتنا في كلية فيكتوريا بتشوه كبير لم أدركه حينها. كانت النظرة السائدة إلى التلامذة أنهم أعضاء، تمّموا دفع اشتراكاتهم، في نخبة كولونيالية مزعومة يجري تعليمها فنونًا إمبريالية بريطانية قضت نحبها، مع أننا لم نكن ندرك ذلك تمامًا. علمونا عن حياة إنكلترا وآدابها، وعن النظام الملكي والبرلمان، عن الهند وأفريقيا، وعن عادات واصطلاحات لن نستطيع استخدامها في مصر أو في أي مكان آخر. ولما كان الانتماء العربي وتكلم اللغة العربية يُعدان بمثابة جنحة يُعاقب عليها القانون في كلية فيكتوريا، فلا عجب أن لا نتلقى أبدًا التعليم المناسب عن لغتنا وتاريخنا وثقافتنا وجغرافية بلادنا. وكانوا يمتحنوننا بصفتنا تلامذة إنكليزًا، نجرّ أذيالنا متخلفين سعيًا إلى تحقيق هدف مُبهم، يستحيل تحقيقه أصلًا، من صف إلى صف آخر ومن سنة دراسية إلى سنة دراسية تالية، يواكبنا أهلنا طوال ذلك المسار منشغلي البال علينا. ثم إني أدركت في قلبي أن كلية فيكتوريا قطعت نهائيًا الأواصر التي تشدّني إلى حياتي السابقة، وأن ادعاء أهلي أني مواطن أميركي قد تهافت، فقد بتنا ندرك جميعنا أننا دونيون نواجه قوة كولونيالية جريحة وخطرة، بل وقابلة لأن تؤذينا، ونحن مجبرون على تعلم لغتها واستيعاب ثقافتها لكونها هي الثقافة السائدة في مصر».

وكانت الكلية تطرد بعض الطلاب الذين تراهم غير جديرين بأن يحملوا لقب «Old Victorian» وكان من بين تلك الأسباب إلى جانب الرسوب سوء الخلق أو سوء التصرف. وقد طرد منها إدوارد سعيد بسبب الشغب. وقد كان سعيد يصف سنواته بها «سنواتي المبددة».

قضى سعيد بفيكتوريا القاهرة عامين قبل رحيله عن مصر، وانضم سعيد في عام 1950 إلى كيتشينر هاوس في كلية فيكتوريا القاهرة، وكان مديرها في ذاك الوقت كيث غاتلي. وكان قائد الطلبة في الكلية في ذاك الوقت ميشال شلهوب «عمر الشريف» الذي كان قد انتقل من فيكتوريا الإسكندرية للقاهرة إبان فترة الحرب. ويصفه سعيد: «مع الوقت صار حضور شلهوب أليفًا على نحو مزعج، وقد اشتهر ببراعته الأسلوبية وبتفننه وابتكاره في اضطهاد الصبية الأصغر سنًّا».

ورغم طرد مستر جريفيث له لمدة أسبوعين من الكلية في شهر شباط/فبراير من عام 1951 بسبب سوء سلوكه، فإنه كتب في تقرير الكلية عنه في ذلك العام أنه فتى متوقد الذكاء، و«معرفة ممتازة وملكة تامة باللغة الإنكليزية». تخرّج سعيد من ماونت هيرمون عام 1953 واستكمل دراسته العليا في هارفارد[1].

(1) انظر: إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى سنة 2000.

الكاتب وجيه غالي .. طالب فيكتوريا الغامض

كذلك عبّر عن الصدمة الثقافية التي أدى إليها التعليم الإنكليزي الكاتب الغامض الذي يُعدّ أحد ألغاز كلية فيكتوريا وجيه غالي، في انتقاده لتعليمه الإنكليزي بها في روايته «بيرة في نادي البلياردو» قائلًا: «ففي مقابل وضوح الأفكار وسهولة التعبير اللذين يمتاز بهما ليفي نتيجة تعليمه الفرنسي، تبدو واضحة للعيان السطحية والغموض اللذين أكسبنا إياهما تعليمنا الإنكليزي».

وأوضح بعد ذلك سبب نقمته من التعليم الإنكليزي الذي جعلهم يعيشون كإنكليز، فإذا بهم يصطدمون برفض منحهم تأشيرات لبريطانيا لأنهم مصريون. فكتب في روايته عن تلك القصة وكيف أنه هو وصديقه اضطرا للاستعانة بمدير المدرسة ولكنه لم يذكر اسمه وفي الغالب هو مستر رييد. والذي قال لهم إن الأمر برمته يدخل في إطار العلاقات السياسية، فهذه المدرسة تستقبل أبناء الأثرياء من المصريين والعرب الذين كما يأمل سيحكمون البلاد لمصلحة بريطانيا العظمى، ولكونكما أنتما الاثنان من الأقباط، بينما الحكومة الجديدة مسلمة خالصة، لا يعبأ أحد بإعطائكما التأشيرات».

وكان ذلك السبب أنه كتب في روايته: «لقد كتبت بعد ذلك بسنوات إلى شخص في مصر أنصحه بألا يلحق أبناءه بمدارس إنكليزية. فإذا كان ابنه من هؤلاء الذين يصدقون كل ما يقال لهم، فسوف يتملكه القرف يومًا ما. في المدرسة كنا أنا

و«فونت» من هذه النوعية من التلاميذ. كنا نقيم كل شيء بمعايير الشرف، ولا ندخن ونحن نرتدي سترات المدرسة لأننا قطعنا وعدًا بألا نفعل ذلك. كنا دائمًا نتوقع لعبًا نظيفًا من جانب البريطانيين، وعلى الرغم من كونهم بعيدين كل البعد عن ذلك، فقد صورت لنا حماقتنا أنهم سيلتزمون بما اعتادوا إقناعنا به عن «اللعب النظيف». ربما كان وراء هتافنا ضد الإنكليز قناعتنا بأنه إذا ما انتبهوا إلى كون ما يفعلون في مصر لا يُعدّ «لعبًا نظيفًا» فإن ذلك سيجعلهم يرحلون. بالرغم من كل الكتب التي قرأناها عن قسوة ودناءة السياسة الخارجية لبريطانيا، لم نصدق ذلك تمامًا إلا بعد حرب السويس»[1].

ورغم أنه وصف تفصيليًّا تعاليم كلية فيكتوريا ونظامها التعليمي إلا أن وجيه غالي، غير معروفٍ بالنسبة لطلابها الذين هم أقرب لبعضهم من حبل الوريد، فهو أحد خريجيها وكان زميلًا لأحمد رمزي، ولكن لا وجود لهذا الاسم في كشوف الكلية، ويقول ميشيل ماركو الذي كان زميلًا للفنان أحمد رمزي في الفصل ذاته: «لا أذكر أبدًا أي شخص بهذا الاسم لأن عددنا لم يكن يزيد عن 20 طالبًا وتحديدًا لا أذكر أنه كان لنا زميل قبطي بهذا الاسم، ولكن هو غالبًا أحد الطلاب اليهود الذين تخفوا تحت اسم قبطي، وأراهن على ذلك لأن أغلب

(1) وجيه غالي، بيرة في نادي البلياردو، ترجمة: هناء نصير، دار العالم الثالث، القاهرة، الطبعة الأولى 2006، صفحة 67 ـ 69.

الشيوعيين كانوا من اليهود». ربما يكشف لنا ماركو عن هذا الكاتب الملغز الذي حيّر الأدباء المصريين والعرب فهو أفضل مصري كتب رواية باللغة الإنكليزية وتصدرت كتبه القوائم الأكثر مبيعًا في إنكلترا والولايات المتحدة.

ذلك هو ما حدث مع بعض طلاب فيكتوريا لقد تمردوا على نموذج الشخصية الكولونيالية ومزقوا اللجام الذي كان يجبرهم على اللهاث في حلبة الإمبراطورية العظمى، فقد تمرد البعض على وصفهم بالخواجات والنظر إليهم على أنهم إنكليز وليسوا عربًا.

الصادق المهدي

الإمام الصادق المهدي، (25 كانون الأول/ ديسمبر 1935)، سياسي ومفكّر سوداني وإمام الأنصار، ورئيس وزراء السودان الأسبق وحاليًا هو زعيم حزب الأمة.. كانت له تجربة مغايرة، تجربة كالتي عاشها منصور حسن وتمرد عليها أثناء وجوده في الكلية، وهي مماثلة لتجربة كل من إدوارد سعيد ووجيه غالي اللذين حدثت لهما الصدمة في وقت متأخر بعد أن تركوا كنف فيكتوريا وتلقفتهم الحياة.

المهدي تتحدر جذوره من أعرق العائلات السودانية فجده الأكبر محمد أحمد المهدي القائد السوداني الذي فجّر الدعوة والثورة المهدية في السودان. وجده المباشر عبد الرحمن المهدي ووالده السيد الصديق المهدي، وقد درس العديد من أفراد عائلته بكلية فيكتوريا وفقًا لرغبة الإنكليز.

وإذا به يزامل الملك حسين بن طلال ومنصور حسن وزيد الرفاعي وغيرهم، لكنه كان الأكثر ثورية في ردة فعله تجاه نواميس كلية فيكتوريا، وهو لا يزال كذلك حتى يومنا هذا، رغم أنه أكمل تعليمه في جامعة أوكسفورد وتخرج منها عام 1952، فإلى فحوى الحوار:

▪ كيف كان شعورك حينما وطئت قدماك أرض الكلية لأول مرة، وما هو انطباعك عنها وعن الإسكندرية كمدينة كوزموبوليتانية؟

عندما وصلت الإسكندرية أول مرة كانت صدمة حضارية لطالب قادم من مجتمع محافظ، فأدهشتني درجة التبرج لا سيما عندما نمرّ على البلاجات، وكان التساؤل الغالب هل نحن في بلد مسلم؟ كانت الإسكندرية أشبه بإحدى مدن البحر الأبيض المتوسط الساحلية.

أما فيكتوريا فقد كانت بالنسبة لي نقلة دون تدرج إلى مناخ المدارس البريطانية المسماة Public Schools مع أنها مدارس خاصة، لتعليم أبناء النخب البريطانية، وكان التحدث إلزاميًا باللغة الإنكليزية والمناخ كله أشبه بجزيرة في الوسط المصري، أكثر انتماءً للمجتمع البريطاني منه إلى الوسط شرق الأوسطي.

▪ من هم أصدقاؤك في سنوات الدراسة بالكلية؟ وأهم المواقف الطريفة التي جمعت بينكم؟

لم أمكث كثيرًا في فيكتوريا لأن طابعها الثقافي الموجه

صدمني، ولذلك تمنعت من الدراسة فيها بعد حوالي ثلاثة أعوام، ولكن مع ذلك كان لي عدد من الأصدقاء أهمهم الأمير حسين بن طلال والطالب عادل زعزوع، والطالب جون بدريان وكانت بيننا نوادر منها: كان حسين يقرأ كل روايات آرسين لوبين (اللص الظريف) وقال له عادل: أتفكر في تكوين عصابة؟ قال: لا بل لأعرف حيل العصابات لاحتوائها.

■ أبرز المدرسين البريطانيين الذين أثروا في حياتك، أو جمعتك مواقف بهم؟

أهم مدرّسين في تجربتي المستر ولستون وقد كان أبويّ المعاملة بحق، حاول كثيرًا أن يلفت انتباهي واهتمامي بالشعر الإنكليزي، والشخص الآخر معلم اسمه المستر قراي هذا كان شخصًا عنصريًّا يعامل ذوي البشرة السمراء بصورة فظّة. وثالث الأشخاص المستر سويبي وقد كان حريصًا على الإمبريالية الثقافية. فكان لهؤلاء إيجابًا وسلبًا أثرًا مهمًّا.

■ هل هناك شخصيات من الكلية لا يمكن أن تنساها، سواء: معلمون ـ عاملون ـ مدربون ـ رياضيون؟

نعم من أهم الشخصيات الأستاذ عزازي وهو مصري يدرسنا اللغة العربية وكان إسلامي التوجه، والشخص الآخر المستر ناودي وقد كان المشرف الرياضي الممارس لوظيفته بصورة حماسية.

■ ذكرياتك في مكتبة الكلية، وحجرة الطعام والملاعب،

والمسرح، والجرس المميز للمدرسة، وعن الـ Speech day sports day؟

فيما يتعلق بيوم الخطابة ويوم الرياضة فقد أحيت كلية فيكتوريا كل ممارسات وتقاليد المدارس البريطانية، وهذان اليومان كانا مناسبتين للتذكير بقيم الكلية الثقافية ومناهجها التربوية، الإنكليز لديهم قيم ثقافية قوية ويزرعونها في الأجيال الجديدة بوسائل ناعمة وهم كذلك يهتمون بصورة لا نظير لها بالرياضة حتى قال أحدهم نحن إنما كسبنا الحربين العالميتين في ميادين إيتون وهارو الرياضية. إيتون وهارو مدرستان ثانويتان بريطانيتان عريقتان.

■ كونك طالبًا سودانيًا حدثنا عن ذكرياتك في القسم الداخلي للكلية، وهل كان انتماء الـ borders لفيكتوريا مختلف عن الـ dayboys؟

الطلبة الداخليون مميزون لأنهم كانوا من الأسر الكبيرة في الشرق الأوسط وكذلك لأن الداخلية تخلق مجتمعًا محصورًا يساعد على التركيز على قيم الكلية الثقافية ومن ناحية الطعام والعلاج يستمتعون بمعاملة ممتازة.

■ هل كانت الكلية حقًا تعامل الجميع بالمثل ولم تكن هناك تفرقة بين الملوك والأمراء وبقية الطلبة؟ وهل كانت الحياة الصارمة داخل كلية فيكتوريا صعبة عليكم كطلاب؟

كانت إدارة الكلية تعامل الطلبة بدرجة عالية من المساواة فهم جميعًا من أسر كبيرة في مصر وفي المنطقة العربية،

والفكرة المركزية في الكلية هي إتاحة تعليم بريطاني لأبناء الأسر الكبيرة في المنطقة.

■ هل عايشت فترات الحروب (الحرب العالمية الثانية) أثناء وجودك في الكلية، وهل كانت الكلية تعدّ الطلاب ليكون لهم توجهات فكرية وانتماءات معينة؟

أنا التحقت بفيكتوريا في أواخر أربعينيات القرن الماضي أي بعد فترة من نهاية الحرب، ولكن صار واضحًا لي أن هنالك مشروع غسيل أدمغة لأبناء الأسر الكبيرة ليصيروا أنكلوفون وتغرس في نفوسهم القيم البريطانية بما في ذلك الاعتزاز بالإمبراطورية.

■ هل قامت كلية فيكتوريا بعمل غسيل مخ لهم لكي يصبحوا تابعين لكل ما هو بريطاني بل وتجعلهم متمسكين بالتقاليد البريطانية العتيدة؟

مصر في بداية الخمسينيات اشتعلت بمشاعر وطنية كبيرة ضد الوجود البريطاني في قناة السويس، وأقدم بعض الطلبة المصريين ـ تأثرًا بمناخ الحماسة الوطنية ـ على إحراق صورة ملك بريطانيا التي أهداها للكلية وكانت معلقة في المكتبة، ولاحتواء هذه المشاعر قررت إدارة الكلية أن يردد كل الطلبة نشيدًا ألفه المستر «سويبي» فيه إشادة بالإمبراطورية كلماته: «يا فيكتوريا إن اسمنا من اسمك نشيد بإنجازاتك العظيمة». وهذه كانت القشة التي قصمت ظهر البعير فقررت بعدها ترك الكلية.

■ كيف يمكن للتعليم أن يخلق شخصيات قيادية تستطيع التأقلم في أي منصب عالمي؟

كلية فيكتوريا جعلت طلبتها يجيدون الإنكليزية أكثر من العربية، ويتطلعون لسلوك اجتماعي منتسبًا للمجتمع البريطاني، ولا أنسى كيف صدمت عندما اجتمعنا لنؤبن الملك حسين رحمه الله في الكلية بعد وفاته وتحدث كل المتحدثين بالإنكليزية والمعاني التي ركزوا عليها كانت كأن المرحوم لورد بريطاني، كانت كلمتي بالعربية ومختلفة تمامًا عن كلمات الآخرين حتى عن أعضاء الأسرة المالكة، وقال لي المقرئ المصري بعد ذلك نشكرك على أنك أبّنت ملكًا مسلمًا عربيًّا ولولا كلامك لظننا أن المرحوم من لوردات بريطانيا!

■ **علاقتك بأشهر الخريجيين من الملوك والأمراء على سبيل المثال الملك حسين وذكرياتك معه ـ الفنانين الراحل أحمد رمزي وعمر الشريف.**

لم تكن لي علاقة مع أحمد رمزي ولا عمر الشريف.

■ **حدثنا عن الحنين الـ «Nostalgia» التي تجمعك مع قدامى الفيكتوريين حينما تلتقون في أي مكان في العالم؟**

لقد ابتعدت من منظومة الفيكتوريين القدامى الـ «Old Victorians» لأنني مع مودتي الشخصية مع الأفراد قاطعت النمط الثقافي الفيكتوري، بل تجربتي في فيكتوريا جعلتني اتهم الثقافات الوافدة بأنها إنما تريد أن تصنع منا مقلدين لها. بل حتى المراجع الأكاديمية وجدت فيها حشوًا مغرضًا. فمثلًا في كتاب تاريخ إنكليزي ورد عن جدي المهدي أنه كان موظف حكومة وتاجر رقيق وهذه الأخطاء فتحت ذهني

على أخطاء كتاباتهم عنا، وما جاء في كتب المستشرقين، ما جعلني أصنف هؤلاء بين منصفين موضوعيين وآخرين يدسون السم في الدسم ويغرسون أهواءهم في مؤلفاتهم.

■ **في النهاية ما الذي تصف به كلية فيكتوريا؟**

إن أهم تأثير لفيكتوريا على حياتي هو أنها بمحاولة التثاقف المركّز صدمتني وجعلتني التفت للجذور، فرب ضارة نافعة.

الفصل الخامس

جلالة الملك حسين..
حكايات إنسانية داخل الكلية

ذكريات لا تُنسى تلك التي جمعت أحد طلاب الكلية أو خريجيها أو مدرسيها أو العاملين بها بالملك الأردني الهاشمي، يتذكرونه بكل خير ويتذكرون ابتسامته ومرحه وبشاشة وجهه ومواقفه الإنسانية التي لا يمكن أن تُنسى.

وكان من زملائه المقربين رئيس المجلس الاستشاري المصري الأسبق منصور حسن، ومحمد جاسم الخرافي رئيس مجلس الأمة الكويتي، والأمير رعد بن زيد، وزيد الرفاعي، وميشيل ماركو يوناني مصري، والصادق المهدي رئيس وزراء السودان الأسبق ورئيس حزب الأمة حاليًا.

قضى الملك حسين بن طلال (14 تشرين الثاني/نوفمبر 1935 ـ 7 شباط/فبراير 1999) عامين فقط في كلية فيكتوريا (1949 ـ 1950) انتقل بعدها إلى لندن كلية «سانت هيرست» العسكرية، لكنها ظلّت تحتل مكانة كبيرة في قلب الملك حتى أنه خصّها بالذكر في مذكراته التي كتبها بالإنكليزية تحت عنوان

«Uneasy lies the head» لم يجد غضاضة في أن يكتب أن تدبير نفقات تعليمه في مدرسته في مصر كانت باهظة، وأنه أحيانًا كان يضطر لحياكة بزّة المدرسة لأنه باختصار لم يكن والده ليشتري له واحدة أخرى. كان الملك حسين قد برع في ممارسة لعبة المبارزة «الشيش»، وكان قد حصل على ميدالية من كلية فيكتوريا، وكان ذلك مدعاة فخر لجده الملك. وله صورة شهيرة تجمعه مع فريق الشيش في الكلية ويظهر معه الصادق المهدي.

وكان الملك حسين لا يعتبر كلية فيكتوريا مجرد مدرسة ولكنه كان يعتبرها بيته العزيز القريب لقلبه، وكان من حديثه عنها «فيكتوريا بالنسبة لي لم تكن مجرد مبنى جميل عتيق، ولا ملاعب خضراء، وهي ليست تعليم على أعلى مستوى ومعلمين متميزين.. وإنما كانت كل ذلك. بناء الشخصية وحبّ الرياضة والروح الرياضية التي للأسف نفتقدها هذه الأيام، جماعات الخطابة التي كانت أشبه بمنتدى ثقافي وفكري..».

كان دومًا ما يثمن كونه «أحد الفيكتوريين» ويقول إن تجربته الحياتية في كلية فيكتوريا لا تقدر بثمن، وكان دائمًا ما يعبّر عن فخره بانتسابه للكلية التي كانت مخصصة لتعليم صفوة القوم في الشرق الأوسط بأسره.

في الحقيقة، لم تكن علاقة الملك حسين بفيكتوريا علاقة عادية بل كانت علاقة تبادلية وليس خفيًا على أحد مقدار تأثره بها ومقدار تأثيره فيها وعشقه لها حتى أن أغلب الطلاب يتفاخرون بأنهم ينتسبون للكلية التي انتمى إليها يومًا، ولن تجد

مدرّسًا أو عاملًا أو ساعيًا بها إلا ويتذكر معاملته الإنسانية الراقية التي تنمّ عن حبّ دفين لمصر والمصريين ولا تزال سيرته العطرة تأتي بكل خير والكثير منهم يفخر أن الملك العربي ابتسم له يومًا ما.

عم حسن أبو خبير صاحب أشهر صورة مع الملك حسين

من بين آلاف الصور التذكارية التي تحتفظ بها جمعية خريجي كلية فيكتوريا بالإسكندرية صورة بآلاف الكلمات والمعاني استوقفتني كثيرًا وبُهتّ حينما رأيتها، صورة يظهر فيها جلالة الملك حسين وهو يحتضن شخصًا رثّ الثياب بقوة وتبدو على ملامح وجهه فرحة اللقاء التي تغمرنا حينما نرتمي في أحضان شخص عزيز علينا بعد فراق طويل.. بطل تلك الصورة هو عم حسن أبو خبير، الذي كان نوبي الأصل، وكانت مهمته حراسة القسم الداخلي الذي يضمّ طلابًا من مختلف الجنسيات، وكان معروفًا بصوته العذب، كان مقرّبًا جدًّا إليهم يشكون له ويتسامرون معه طوال الليل يتحدون ظلمته ويغالبون لوعة البعد عن كنف الأهل والوطن.

يتحدث عم حسن وهو في عمر 75 عامًا عن ذكرياته مع طلاب الكلية الذين أصبحوا فيما بعد ملوكًا وعظماء في مجلة كلية فيكتوريا الصادرة عام 1996، قائلًا: «لقد كانت أيامًا كنت أنا فيها المؤدي وكانوا هم «الجوقة»، لقد كنت أتمتع بصوت نوبي عذب، وكانوا يملكون مغريات الانغماس في الأداء بعيدًا عن المشرفين الإنكليز.. لقد كنت أتغنى وكانوا معي في ترديد الأداء وحراسة المكان.. نسهر معًا وخصوصًا

في أيام السبت من كل أسبوع حتى خيوط الفجر.. يربط الجميع الحبّ والتواضع والشقاوة!!.

ويستطرد عم حسن في حديث الذكريات: «كان الملك حسين من محبي قراءة الكتب ذات التجليد الفاخر والحجم الضخم، لم أكن أدري ماذا تحمل ولكن من «شكلها» تقول إنها ذات أهمية.. وكان يشاركه في ذلك الأمير فيصل، والصادق المهدي، وزيد بن شاكر، ومنصور حسن، وكانت صلاة الجمعة تجمعهم في خشوع جميل رغم حداثة سنهم».

ويتذكر عم حسن ثلاثة طلاب أصبحوا فيما بعد رموز السينما المصرية في العالم، قائلًا: «كان يغلب على تصرفات الثلاثي يوسف شاهين وأحمد رمزي وعمر الشريف، روح المرح والتمثيل، كأنهم كانوا يعدّون أنفسهم للطريق الذي يعيشونه الآن».

وكان عم حسن رحمه الله يتمتع بأصالة أهل النوبة الكرام، فرغم قربه من كل هؤلاء المشاهير لم يكن ليفصح أو يبوح بأسرارهم التي كان هو مخبأها، وكان العديد من الطلاب أو المعلمين يحاولون التنقيب عن نوادر أو أسرار تخصّهم لكنه كان بمثابة بئر الأسرار.

حكاية عم عبد الباسط

عم عبد الباسط «85 سنة» كان عاملًا في القسم الداخلي بالكلية، احتك به الملك الصغير أثناء دراسته، وارتبط الملك به جدًّا معتبرًا إيّاه الأب الحنون.

وتمرّ الأيام ويعلم الملك أن عم عبد الباسط بعدما هرم واعترته أعراض الشيخوخة في أمسّ الحاجة لإجراء عملية جراحية في عينيه، فأصرّ أن يتكفل الملك بكافة مصاريف العملية وأرسل له طائرة خاصة لتقله إلى الأردن للعلاج على نفقته الخاصة عرفانًا منه بجميل الرجل الطيب الذي رعاه في الصغر.

وهذه القصة الإنسانية يتداولها الصغار والكبار عن الملك الراحل الذي عرف بحبه الخير للجميع. وقد حاولت أن ألتقي بعم عبد الباسط ليروي لنا أكثر عن علاقته بالملك الراحل، لكنه يعاني من أمراض الشيخوخة التي جعلته يعاني من مشاكل في الذاكرة وصعوبة في النطق مما وقف عائقًا أمام محاولة استنباط فصول من ذكريات وتاريخ كلية فيكتوريا التي ربما يحتفظ هو ببعض أسرارها.

حاولنا تتبع خطى الملك حسين عبر الحكايات الشفهية ومطبوعات جمعية الخريجين بالإسكندرية، وإذا بالصور التي تحفظها الجمعية في أرشيفها تفصح عن الكثير.

فقد كان الملك حريصًا على تجميع الصبية الفيكتوريين، وكان دائم السعي وراءهم، ومن جانبهم لم يكن باستطاعتهم التأجيل أو التسويف فكان الكل ينصاع ويجتمع في المكان الذي يحدّده الملك حبًا في شخصه الكريم. وهنا وجدنا الكثير من المراسلات الصادرة عن الديوان الملكي تحدد أماكن اللقاءات. فكان لقاء الإسكندرية الذي جمع آلاف الخريجين، ولقاء الأردن، وغيرها التي تحفل بالمرح ولعب الكريكيت وكرة القدم والتنس.

ولكن الملك كان يهتم بدعوة الرياضيين أو من يشاركونه ممارسة الرياضة «هكذا أكّد ميشيل ماركو، الذي كان «Head Boy» على الملك حسين ولم يكن الملك حسين يجيبه إلا بـ «yes sir»، هكذا كانت تقاليد كلية فيكتوريا فالـ «Head Boy» أوامره مطاعة، ويضحك مضيفًا: «لكنني كنت محببًا إلى قلبه لأنني قصير مثله وكنا في طول القامة نفسها تقريبًا، وكان لقاؤنا دائمًا حميميًّا يعيدنا لأيام الدراسة الجميلة فلم تكن بيننا ألقاب مطلقًا».

وكان معروفًا عن الملك حسين براعته كرياضي، فكان ماهرًا في المبارزة «الشيش، والتنس والكاراتيه والسباحة، ومن هواياته الأخرى، الطيران وقيادة الدراجات النارية وسباقات السيارات واللاسلكي.

ويستطرد ماركو: «الملك كان يحضر معه دائمًا الشورت والملابس الرياضية وحذاء كرة القدم لممارستها أثناء التجمعات السنوية في أرض كلية فيكتوريا، ولكن الأمن المصري رفض وظل يرجوه كي لا يلعب خوفًا على سلامته وتأمينه، وكان ذلك في اليوبيل الماسي في الثمانينيات، وكان مصرًّا بشكل شديد، وكان يقول لهم أنا هنا وسط عائلتي وأهلي، أمن أيه؟ «لكن في النهاية أصيب بإحباط شديد حينما استسلم لإجراءات تأمينه».

يستكمل ماركو: «لقد دفع الملك حسين تكلفة إقامة الفيكتوريين القدماء في الأردن كاملة ولم يدفع أي منهم مليمًا واحدًا، وتفاجؤوا أثناء رحيلهم بأن نفقاتهم مدفوعة بالكامل، هكذا كان جلالة الملك».

مبارك يرفض طلب الملك حسين

ويروي ماركو، كنز أسرار كلية فيكتوريا، أن الملك حسين أثناء إحدى زياراته لكلية فيكتوريا بالإسكندرية حزن لحالها بعد تأميمها، وأراد شراءها من مصر وتحريرها من وزارة التربية والتعليم لتصبح مؤسسة تعليمية خاصة ومستقلة كما كانت، وطلب من الرئيس مبارك ذلك لكن مبارك رفض.

وقد أقام وقتها الوفد الأردني المكون من جلالة الملك والأمير رعد بن زيد وزيد الرفاعي، في قصر رأس التين بالإسكندرية، بعدها قرر الملك حسين تأسيس كلية تعتبر توأمًا لكلية فيكتوريا في بلدة «تلاع العلي» إحدى مناطق عمان العاصمة، وقد قمت بزيارتها واستُقبلت استقبالًا رسميًّا رائعًا من ساعة وصولي إلى المطار وحتى دخولي الكلية، وهي مدرسة خاصة ومختلطة وبها مدرّسون إنكليز وبزي فيكتوريا الإسكندرية نفسه، وقضيت بها يومًا رائعًا.

حفل تأبين الملك «يوم بكت كلية فيكتوريا»

دمعت العيون وحزنت القلوب لفراق الملك الذي شهدت الكلية ضحكاته وصيحاته مع زملائه، وقررت جمعية الخريجين والكلية عمل حفل تأبين له بها حضره كبار الشخصيات العربية والعالمية، ويتذكر هنا الأستاذ إلهامي، نائب مدير الكلية سابقًا، قائلًا: «في هذا اليوم تعطلت الشوارع وعينت حراسات فوق الأسطح المجاورة والمطلة على المدرسة، وحضر سمو الأمير رعد بن زيد وزيد الرفاعي اللذان كانا رفقاء درب ورحلة

حياة الملك حسين، وكان يوم ذكرى أربعين الملك حسين حزين لا يمكن نسيانه».

بينما يذكر أستاذ ناصر فتيحة، عضو مجلس إدارة الكلية: «جاءنا فريق كرة السلة الأردني يريد أن يشاهد المكان الذي كان يقيم فيه الملك حسين في القسم الداخلي والفصل ومقعده الدراسي الذي جلس عليه، فكان أمرًا مؤثّرًا للغاية».

الفصل السادس

شخصيات مؤثرة في فضاء كلية فيكتوريا

مستر لياس أول مدير لكلية فيكتوريا

تعليم النخبة كان تحديًا كبيرًا وهدف الكلية منذ نشأتها، لذا كان اختيار القائمين على تلك المهمة غاية في الدقة والتمحيص.

تولى إدراة الكلية البريطانيون منذ افتتاحها، وكان أول مدير لها C.R Lias، من عام 1902 وحتى 1922، ويعتبر هو الأب الروحي للكلية وهو الذي خلق الروح والقيم التي تميّزت بها فيكتوريا عن باقي مدارس الشرق الأوسط. فقد أعطى كلية فيكتوريا شخصيتها وتفردها ورسم لها صورة ذهنية ظلت حاضرة لعقود عديدة بعده، وخط تقاليدها التي ما زالت راسخة حتى اليوم، وإن كان الكثير منها قد ذهب مع الريح. وكان شهيرًا بمعطفه الأسود الفاحم وشاربه الكثّ المفتول وقبعته المصنوعة من القش ونظارته الدائرية العدسات.

مستر رييد رجل المخابرات البريطانية

يعتبر مستر رييد أشهر مديري كلية فيكتوريا على الإطلاق، بل كان أيقونة كلية فيكتوريا، فقد ارتبط ذكره بذكرها على مدار أكثر من 20 عامًا، قدم لها الكثير فلن نكون مبالغين إذا أعزينا مجد كلية فيكتوريا إليه. فقد كانت له شخصية كاريزمية جعلت تأثيره على الطلاب كالسحر ودائمًا ما كانوا يذكرونه بعرفان شديد، حتى من لم يلتقِه، فلطالما كانت تُروى عنه حكايات عديدة داخل جدران كلية فيكتوريا، أكثرها كان علاقاته بالملوك والأمراء والرؤساء ونفوذه مقارنة بمركزه الوظيفي كمدير لمدرسة. حب الطلاب لمستر رييد وما كان يبثّه فيهم جعلهم يعشقونه لدرجة أن الكثير منهم حينما كان يأتي في زيارة لمصر كان لا بدّ وأن يمرّ بقبره في مقابر البريطانيين بالقاهرة.

جاء مستر رالف رييد إلى كلية فيكتوريا عام 1922 إلى 1945، كان مثالًا نموذجيًا لخريجي أوكسفورد، تعلم منه الطلاب أهمية القراءة، والقدرة على السيطرة على النفس، والأمانة الفكرية والثقافية، وأن يزدروا القبح، ويبجلوا الجمال وكل ما يحرّر العقل والروح. كان له من قوة الشخصية ما يجعله يتحدث بكل جرأة مع ملوك المنطقة وله موقف مثير مع الملك فاروق سنرويه في جزء الحوارات.

رييد الذي عرف بأناقته كان شخصية مثيرة وغامضة لدى الكثير من الطلاب الصغار، ولعل ما زاد من هالة الإثارة

والغموض حوله هو أنه كانت له ساق صناعية وكان صوتها يجعل التلاميذ يعلمون بقدومه ويرتعدون خوفًا. وكان قد فقد إحدى ساقيه منذ عام 1928، وأيضًا كان يعيش برئة واحدة، نتيجة استنشاقه غازات سامة في الحرب العالمية الأولى.

سفاح الليلة الأولى في كلية فيكتوريا

ويروي مستر جريفيث S.Howell-Grreffith، ذكريات طريفة سببتها له تلك القدم الصناعية في أول ليلة له في كلية فيكتوريا، حينما هبطت طائرته على أرض الإسكندرية قادمة من أراضي المملكة البريطانية في العاشر من تشرين الثاني/نوفمبر عام 1936، بعدما طلب منه مستر ريد Mr.Reed تدريس مادة الرياضيات ومساعدة مستر هايوود Mr.Highwood في تدريب الكريكيت.

لم يكن مستر ريد متفرغًا لمقابلته ولم يكن مستر جريفيث قد قابله من قبل، واضطر جريفيث للانتظار حتى اليوم التالي، وكان عليه أن يبيت ليلته الأولى في الكلية في غرفة مستر ريد الاحتياطية الأخرى.

استيقظ جريفيث فجأة من نوم غير مريح ليجد غرفته وقد ملأها ضوء القمر، ومع ذلك ظل مستيقظًا يحرك عينيه في سقف الغرفة وأركانها حتى استذكرها جيدًا «بلغة المدرّسين»، وإذا به يرى الستارة المعلقة في آخر الحجرة وهي تتحرك، انتظر قليلًا وعاود النظر ليجدها تتحرك ثانية، وإذا به يرى حذاء رجاليًا يبرز من أسفلها!

انتفض جريفيث رعبًا، وإذا بالستارة تتحرك مرة أخرى بقوة أكثر لتكشف عن ساق آدمية ترتدي جوربًا وحذاء.

مات جريفيث خوفًا، وظل يفكر ماذا سيفعل؟ محدثًا نفسه: «إذا صرخت فمن سيسمعني ليغيثني؟ من سيأتي في التوقيت المناسب لينقذني من أن أذبح وأتلاشى في ليلة مصرية؟».

فجأة أتاه صوت داخلي يقول له: «الباب.. ربما الباب... إذا استطعت الوصول له في الوقت المناسب ربما أمكنني الفرار عبره.. قبل أن أقتل..».

بسرعة البرق انتفض جريفيث من مضجعه، عابرًا الحجرة، فاتحًا الباب، ويروي المشهد قائلًا: «مع صرخة ممزوجة بالبكاء أزحت الستارة، وجدت السفّاح الذي كان في مواجهتي عبارة عن حذاء تمّ تلميعه بعناية وجورب أنيق وكلاهما متصل بقدم صناعية».

وكانت تلك هي الطريقة الصعبة التي عرفت منها أن مدير الكلية مستر ريد بالإضافة لكل مشاغله العديدة ومهامه الثقيلة التي يحملها على عاتقه كان يعاني من إعاقة وأنه يسير بقدم صناعية[1].

مستر ريد رجل المخابرات الإنكليزية

تشير كل الوثائق والمراسلات التي تخصّ مستر ريد إلى

(1) The Victorian magazine, Setemper 1983, p20.

كونه عين بريطانيا في الشرق الأوسط، وتكثر الأقاويل أن مستر رييد كان يعمل لدى جهاز المخابرات الإنكليزية، لكن يبدو أن الأدلة المادية تمّ إخفاؤها، فقد كانت علاقته المتميزة مع أبناء الطبقات الحاكمة وملوك ونبلاء الشرق الأوسط وأفريقيا هي ما أهّلته لذلك.

لكن تكشف المراسلات أيضًا عن أنه كان دائم الفخر بطلابه ويتباهى بهم أمام مديري الجامعات الإنكليزية التي تستقبل طلابه، فيرسل لهم قائلًا: «أرسل لكم طالبًا ابن باشا وابن ملك وأمير عربي» وهكذا. لكنه في المعاملة كان يعامل الكل سواء حتى أبناء العاملين بالمدرسة سواء عربًا أو إنكليزًا ولكن كانت الأفضلية بالطبع في المنح للطلاب المتفوقين النابغين الذين سيشرّفون الكلية ويزيدون من صيتها في جميع أنحاء العالم، هكذا كانت رؤيته.

ومن البصمات التي تركها ورسخها مستر رييد نظام المنحة الدراسية والذي كان قد بدأ في عهد اللورد كرومر في شكل دعم نقدي عام 1907، واتخذ شكل المنحة الدراسية عام 1908، وظلت حتى الثلاثينيات. وكانت تمنح للطلاب دون سن السادسة عشرة الذين يجتازون امتحانات أوكسفورد وكامبريدج بجدارة. وكان يتمّ اختيارهم وفقًا للجنة من الكليتين الإنكليزتين الشهيرتين. قد يتعجب البعض من أن طلاب كلية فيكتوريا الأثرياء يتعثرون ماليًا!! ولكن ذلك لأن مصروفات الكلية كانت باهظة جدًا، فقد كانت تبلغ عام 1936، 35

جنيهًا استرلينيًّا للفصل الدراسي الواحد ما يعادل 35 ألف جنيه وقتها، وكان ذلك كفيلًا بإفلاس أغنى الأغنياء. هذا فضلًا عن نفقات التعليم في أوكسفورد أو كامبريدج.

كان أول من حصل على تلك المنحة إيميل قرداحي عام 1908، الذي كان ينتمي لأكبر عائلة تملك أسهمًا في البورصة في ذاك الوقت. بينما حصل أول طالب إنكليزي الجنسية على المنحة عام 1916.

ومن المنح التي استطاع مستر ريد تأمينها للطلاب غير القادرين كانت منحة سموحة، وهي التي تبرع بها جوزيف سموحة رجل الأعمال اليهودي العراقي، ومنحة فيني والتي تبرع بها الإنكليزي أوزوالد فيني، ومنحة يحيى والتي تبرع بها أمين باشا يحيى، ومنحة كوريمي تبرع بها كونستاتين كوريمي، ومنحة رولو التي تبرع بها يعقوب رولو، وسوينجلهارست والتي قدمها هنري سونجلهارست عضو مجلس بلدية الإسكندرية.

كما كان مستر رييد أحيانًا لا يبخل على طلابه بأن يساهم بماله الخاص مساهمة منه في أن يحقق الطلاب أحلامهم، وكان بعلاقته الممتدة مع رجال الأعمال من قدامى الطلاب الفيكتوريين يحصل منهم على أموال لمساندة زملائهم الطلاب الحاليين، وكان موقفه مع إيميل عبد الملاك حينما ناشد الطلاب في جمع 240 جنيهًا استرلينيًّا للسنة ولمدة خمس سنوات ليمكنه من دراسة الطب في جامعة برمينغهام. وقد كانت المصروفات في الثلاثينيات 18 جنيهًا في الفصل الدراسي

شاملة وجبة الغداء والأوتوبيس. وكانت مصروفات الطالب في القسم الداخلي تبلغ 150 جنيهًا سنويًّا.

وكانت من فضائل مستر ريد على فيكتوريا أيضًا هو تأسيسه لفرع فيكتوريا القاهرة عام 1940، بعد أن رأى تسرب بعض الطلاب من الكلية أثناء الحروب، فاختار أن ينتقل الطلاب إلى مكان أكثر أمانًا، واستطاع نقل روح فيكتوريا الإسكندرية وتقاليدها إلى القاهرة ليعزّز وجودها بين المدارس الإنكليزية الأخرى. وكان يسانده مستر جريفيث، ومستر غاتلي، ومستر وايتمان، والسكرتيرة الشخصية له مسز جويس جرو. استطاع ريد أن ينشر حبّ الثقافة الإنكليزية في الإسكندرية وفي القاهرة مما جعله ينال تقدير المجلس الثقافي البريطاني، وتخرّجت أجيال رفعت اسم مصر عاليًا حول العالم بسبب ما حفزهم أن يكونوا عليه. وظل ريد مقيمًا في مصر حتى وفاته في عام 1945 بعد معاناته الطويلة مع المرض.

مستر رايدر H.B.Rider:

جاء إلى مصر عام 1922 وكان خريج «يونيفيرستي كوليدج» لندن، وعمل معلمًا للرياضيات ثم تولى رئاسة قسم العلوم والرياضيات، ثم تولى إدارة كلية فيكتوريا في 1956 لمدة عام واحد فقط. كان عاشقًا لمصر ولعل ما يدلّل على ذلك ما قاله في اجتماعه بالخريجين القدامى في الاحتفال باليوبيل الماسي لكلية فيكتوريا بالإسكندرية، «لقد قضيت القسم الأكبر من حياتي العملية في فيكتوريا، ما يقارب 30 سنة أو أكثر، وكانوا الأكثر سعادة، وقد كانت مصر بالنسبة لي وطني الثاني».

وعن ذكرياته في الكلية، يروي «كانت كلية فيكتوريا، كما اعتقدت دومًا، مدرسة مميزة وفريدة من نوعها، ومدرسة لا يمكن نسيانها، «معًا كلنا واحد»، لقد جمعت فيكتوريا طلابًا من جميع أنحاء العالم في مكان واحد، جميعهم شغلوا أعلى المناصب، وهذا أعزيه بفخر لما تلقوه من تعليم وتدريب في فيكتوريا، وأينما يكونوا فإنهم يجتمعون بانتظام، يتبادلون الحكايات والرؤى حول الماضي». ويستكمل: «في عام 1922، عندما انضممت لكلية فيكتوريا، كانت على حافة المدينة، فمثلًا، كنا حينما نريد الذهاب إلى «سبوتينج روكس»[1] كنا نحتاج لأن نستقل حمارًا، وكان بيننا وبين خط السكة الحديد الرئيس ما يشبه الريف المفتوح».

وحول المشقّة التي كان يكابدها الطلاب من مختلف أنحاء العالم لكي يحصلوا على تعليمهم بكلية فيكتوريا، ومنهم فيليب عبد الأحد، يروي مستر رايدر قصة طريفة: «في محطة سيدي جابر، أثناء عودتي من بورسعيد بالقطار، التقيت أحد الطلاب ويدعى فيليب عبد الأحد، وكنا في طريقنا لكلية فيكتوريا، فأخذنا عربة يجرّها حمار وكان ذلك الترام في بداياته، وكان عبد الأحد بعد انتهاء السنة الدراسية يعاود الرحيل ليصل منزله في البصرة وكان لكي يعود إلى وطنه مرة أخرى عليه أن يسافر إلى بورسعيد بالقطار، ليستقل سفينة إلى بومباي، ثم ومنها إلى البصرة، ولعله يصل إلى موطنه في الوقت الذي ينبغي فيه العودة مرة أخرى للدراسة في الإسكندرية».

---

(1) Sahar Hamouda, Victoria College, p:51.

دوغلاس هايدون Douglas Haydon

كان دوغلاس هايدون مدرّسًا بكلية فيكتوريا في الفترة من 1928 وحتى 1948، وكان صاحب أول مبادرة لجمع تاريخ كلية فيكتوريا منذ نشأتها باعتبار أن تاريخها جدير بأن يوثق، فحاول جمع كل ما يتعلق بها من خلال الطلاب والمعلمين أثناء زيارته لمصر عام 1976.

يقول دوغلاس هايدون في تفرقته بين لياس وريد في أحد أعداد مجلة «ذا فيكتوريان»: «كلًّا منهما كان يختلف عن الآخر في الهيئة الجسدية، فقد كانا كما ذكر إدوارد عطية «لياس أول مدير لفيكتوريا متوسط القامة، يرتدي بذلة سوداء قاتمة، وذو عيون تشع ذكاء، وصوت رخيم. بينما كان ريد طويلًا رفيع القامة، نشيطًا ويمتلك عيونًا سوداء عطوفة». ويضيف هايدون: «كان هناك فرق آخر أيضًا بينهما غير الفروق الجسدية، فقد أصبح ريد فيما بعد شخصية سياسية، ليس في مصر بل في الشرق الأوسط».

ويرى هايدون أنه أثناء الاحتلال، لم يكن لدى البريطانيين رغبة في تحويل كل من القاهرة والإسكندرية إلى مدن إنكليزية. ولكن طوال أول عقدين من هذا القرن ـ يقصد العشرين ـ كانت الفرنسية والإيطالية اللغتين الأكثر انتشارًا ـ تحدثًا ـ في هاتين المدينتين أكثر من الإنكليزية.

وقال: «الحكومة المصرية طوّرت التعليم الثانوي وأنشأت أول جامعة وكان هناك مدرّسون ومحاضرون إنكليز، لكن الأغلبية كانت للفرنسيين حيث كانت فرنسا تشجعهم على

الإقامة بمصر، على عكس الموقف الرسمي البريطاني، الذي تجاهل الأمر. وهو الأمر الذي جعل كلية فيكتوريا تجاهد وتصارع من أجل الإطاحة بشبح الإفلاس. وأصبح هذا التهديد يتلاشى تدريجيًا بعد تكوّن المجلس الثقافي البريطاني، وقد نجح مستر رييد في الحصول على مساندة ودعم من المجلس البريطاني، لذا فإنه بعد 40 عامًا، أصبحت السلطات البريطانية بشكل غير مباشر لها يد في نجاح كلية فيكتوريا».

جويس جرو Joyce Grew

ذكرت في مقالة لها في العدد التذكاري الصادر عن جمعية كلية فيكتوريا بمناسبة الاحتفال باليوبيل الماسي: كيف أن حياتها ارتبطت بتاريخ كلية فيكتوريا.

تتذكر جويس بداية فيكتوريا: «لم يكن أحد يتخيل من المصريين والإنكليز المقيمين في مصر في 1902، حينما فكروا في تأسيس كلية فيكتوريا، والتي بدأت بعدد قليل من الطلاب حوالي 22 طالبًا، أن تصبح بعد 80 عامًا، أعظم مدرسة في الإسكندرية والقاهرة، هذا الأسلوب التعليمي الذي اتسع لتعليم دائرة واسعة من الجنسيات في الشرق الأوسط، وخلق شيئًا مميزًا».

تروي: «ارتباطي بتاريخ كلية فيكتوريا كان بسبب أن أختي كانت ممرضة مستر رييد، خلال مرضه الخطير، وكانت لصداقتها الوطيدة بمستر ومسز رييد الفضل في أن أصبح سكرتيرة المدير عام 1937، وكنت الأولى التي تشغل مثل تلك الوظيفة في مصر».

وبحنين بالغ تقول: «في أول وهلة حينما وصلت إلى الممر الرئيس في مدخل فيكتوريا كان شعورًا لا يقلّ عن مثيله بالوصول إلى قصر باكينغهام!. وقد بدأت أشعر بسطوة التعليم على كل ركن فيها منذ اللحظة الأولى لدخولي فيها».

وتستطرد في ذكرياتها: «طوال فترة مكوثي في مصر والتي تقدر بحوالي 19 عامًا قضيت منها ثلاثة أعوام في الإسكندرية، وعشرة في شبرا، وستة في المعادي، استقيت خلالها خبرات واسعة، من الأوقات السعيدة والمرحة والمتوترة والعديد من الأزمات، كلها خلقت روابط قوية بيني وبين التلاميذ والأساتذة والعاملين بالكلية والأهالي. ولا أستطيع أن أنسى المساعدة التي قدمتها وزارة التربية والتعليم المصرية لفيكتوريا في أوقات الشدائد، حينما تسببت الحرب في تقلص عدد المدرّسين، كما تعاونت مع العديد من الوزارت المصرية الأخرى لإنهاء بعض الإجراءات والتصاريح وجوازات السفر وغيرها، وكانت بعض تلك الحالات قد تبدأ بسجالات ولكن تنتهي بصداقة حميمة مع بعض الأفراد، وكنت دائمًا ما أنتهي منها بقولي «الحمد لله».

«كم كانت جميلة تلك السنوات التي قضيتها على تلك الأرض القديمة المبهرة، وبين هذا الكم الهائل المتنوع من البشر من خلفيات ثقافية وأعراق ومعتقدات مختلفة، تعلموا كيف يعيشون ويعملون ويلعبون معًا، كما كان من الرائع أن أُقبل كصديقة لعدد كبير من الآباء والأمهات الذين كانوا جزءًا من تلك المغامرة التي لا تُنسى».

وتضيف: «برغم مرور السنوات، فلا زلت أعيش على تلك الذكريات الجميلة الغنية، وتكوين عدد لانهائي من الأصدقاء من مختلف أنحاء العالم، أسعد بلقائهم من وقت لآخر، بينما لا تزال بعضهم ذكرى محفورة في قلبي».

مسز كوك Miss Cook

كانت شخصية إنكليزية صارمة وحازمة، وكانت المشرفة على القسم الداخلي وإقامة ورعاية الطلاب به، وكانت المعهود لها بتوزيع المصروف الأسبوعي على الطلاب وهو 25 قرشًا. فكانت إذا قامت بضبط أحدهم متلبسًا بالحديث باللغة العربية في المدرسة تقوم بالخصم من المصروف. وهو الذي تلقاه الأمير فيصل عبد العزيز آل سعود نتيجة تحدثه بالعربية كثيرًا فوصل ما خصمته من مصروفه إلى جنيه. فقد كانت لا تميز بين أي من الطلاب سواء أمراء يتحدرون من دماء ملكية أو طلاب عاديين من أسر أرستقراطية.

بارك هاوس

انضم بارك هاوس إلى كلية فيكتوريا في تشرين الثاني/ نوفمبر 1920، وكان دائم الحديث عن هذا اليوم وظلّ يتحدث عنه حتى الأيام الأخيرة من حياته قبل أن يفارق الحياة في أحد مستشفيات لندن عام 1984. كان ذاك اليوم يوافق يوم الهدنة (الذي تحييه دول الكومنولث من كل عام تخليدًا لذكرى الجنود البريطانيين، وتعلق فيه شارات زهرة الخشخاش ويسمى «بوبي داي» والذي انتهت فيه الحرب العالمية الأولى منذ عامين.

وكان الهدف من انضمامه للتدريس في كلية فيكتوريا هو رفع مستوى الطلاب في رياضة كرة القدم، حيث كان لاعبًا ماهرًا. في هذا الوقت لم يكن عدد الطلاب في المدرسة كافيًا فكان يقود فريق المدرسين أمام الطلاب.

كان مؤمنًا بأهمية مظهر لاعب كرة القدم وكذلك القائد الكشفي، وكان أحيانًا يمضي أوقاتًا طويلة من إجازة الصيف في دورات للكشافة في إنكلترا بـ Gilwele park، ليعود مع بداية العام الدراسي بأفكار جديدة، مما جعل خريجو كلية فيكتوريا يتذكرون دائمًا أمتع الأوقات التي قضوها في الكشافة.

وكان له الفضل في إدخال لعبتين لكلية فيكتوريا انتشرتا في أروقتها ومن ثم في مصر، الأولى: البيلوتا وهي لعبة إسبانية، عرفها قديمًا أهل الباسك لذا تسمى «باسك بيلوتا» وهي أسرع لعبة في العالم حيث يتمّ لعبها باستخدم ثلاثة حوائط باستخدام كرة أشبه بكرة الغولف ولكنها أكثر ثقلًا، وقد تقتل اللاعبين بسبب سرعتها إذا لم يتلقفها اللاعب بما يشبه السلة المعقوفة وتسمى «سيستا» ويعيد قذفها فيلتقطتها زميله الآخر بشرط أن تضرب الكرة الأرض مرة واحدة فقط. وكان الطلاب يلعبونها تحت الممرات المسقوفة المنتشرة بمباني الكلية، وأحيانًا في عنابر المبيت بالقسم الداخلي مما كان يتسبّب في ضجة كبيرة.

أما اللعبة الثانية فكانت كرة الشاطىء وكان يلعبها ستة لاعبين في كل جهة وكان الطلاب يمارسونها في المدرسة أو على شاطىء سان ستيفانو.

ونظرًا لما أرساه من نظام وقواعد وعشق الطلاب له تمت ترقيته إلى مدير القسم الابتدائي، وكان مسؤولًا عن مخزن الكتب الدراسية، ومخزن الأدوات المكتبية، كل هذه المسؤوليات الإدارية وكان أفضل وقت لديه وقت التدريس وأحبّ شيء إلى قلبه. لقد أمضى 36 عامًا من حياته بها، وكانت هي حياته كلها.

مستر إلهامي الأب الحنون لطلاب فيكتوريا

مستر إلهامي اسم يتذكره الطلاب بكل الحب والتقدير، فقد كان مشرفًا على القسم الداخلي للكلية لفترة طويلة وظل مسؤولًا عن النشاط الرياضي بها حتى 2011. بحنين بالغ، يتذكر إلهامي حسين، أقدم المشرفين في الكلية العريقة، أيام مجد الكلية، جالسًا في مكتبه ذي المدفئة الحجرية إنكليزية الطراز، قائلًا: «عملت هنا أكثر من 30 سنة، وكنت خلالها أشرف على قسم السكن الداخلي للطلاب وتعاملت مع طلاب من جميع الجنسيات، كانت الكلية معروفة بأنها كلية الأمراء والملوك والفنانين وهو أمر يفخر به كل من يعمل بها وكل من ينتمي إليها، وكانت مدرسة العائلات، فكنا نربي أجيالًا لعائلات كبيرة. وأتذكر أنه كانت هناك ثلاث عائلات من نيجيريا هي: مايديربي، وكوباوارو، ودندواكي، كانوا يرسلون نحو 200 طالب من الأسرة نفسها».

يذكر إلهامي أن المدرسة تحوّلت إلى ثكنة عسكرية أثناء الحرب العالمية الثانية، ولحرص الإدارة على عدم توقف

الدراسة بها، انتقلت الدراسة إلى فندق سان ستيفانو القديم، لفترة قصيرة. وقد تحولت المدرسة بعد التأميم إلى نظام «معاهد قومية» واختفت تمامًا معالم الإدارة الإنكليزية، وبالطبع رفع العلم المصري مكان العلم البريطاني.

يضيف: «تولى إدارة المدرسة ستة مدراء بريطانيون، وكانت تحتضن آلاف الطلاب من البنين، وفي نهاية السبعينيات فتحت للبنين والبنات إلى أن أصبحت للبنين فقط في عام 1986. وأوضح أن كلية فيكتوريا افتتحت فرعًا لها في القاهرة في شبرا، قبل أن تستقر في مقرّها الحالي في المعادي عام 1950.

ويشير إلهامي إلى أن المدرسة حاليًّا تضم 756 موظفًا وإداريًّا ونحو خمسة آلاف طالب، لكن الأوضاع مختلفة فقد كانت معايير القبول بالمدرسة مختلفة، وكان هناك مندوب يخرج من المدرسة لزيارة الطالب المتقدم في منزله ويحاول ملاحظة سلوكياته وتصرفاته، ويطلب منه إحضار كوب من الماء، ليرى كيفية تقديمه للكوب وهل سيحضره وفقًا لقواعد «الإتيكيت» أم لا!. كما كان يتحدث مع والديه ليرى مستوى تعليمهما وثقافتهما. أما الآن فلا شيء من هذا يحدث». وبأسى بالغ يقول: «الطلاب في الماضي كانوا مختلفين تمامًا عن طلاب الجيل الجديد، والعلاقة بين المدرس والطالب غاية في الاحترام فقد بلغ الأمر بالطلاب أنهم كانوا يودون تقبيل أيدينا تقديرًا لنا».

وعن ذكرياته مع القسم الداخلي، يقول: «حضرت القسم الداخلي قبل إغلاقه، كنت أبيت في المدرسة كل يوم وأعود إلى

منزلي يومي الخميس والجمعة، وأنا كخريج تربية رياضية كنت أفضل أن يفصل الطلاب بين أوقات المذاكرة بممارسة الرياضة، فكانت المذاكرة تبدأ من الرابعة إلى السادسة مساء، ثم عشاء ثم من السابعة إلى التاسعة وكنت أمارس معهم الرياضة: كرة القدم أو البينغ بونغ، كنوع من الترفيه والخروج من أجواء المذاكرة. وأحيانًا كنا نذهب إلى السينما أو المسرح».

وكان شرط قبول الطالب في القسم الداخلي أن يكون من خارج مصر وله كفيل أو ولي أمر في مصر يسهل الاتصال به، وهو حلقة الوصل بيننا وبين ولي الأمر في الخارج، فمثلًا إذا احتاج الطالب إلى درس خصوصي كان هناك إمكانية تخصيص مدرّس حسب احتياج الطالب يُدرِّس له في القسم الداخلي.

فمن الذكريات التي لا تُنسى في فيكتوريا، كانت تأتي طائرة مخصوص من نيجيريا تصل إلى مطار النزهة على متنها حوالي 100 طالب من عائلة واحدة، وكانوا يأتون إلى الكلية، وكان علي أن أرتب دخولهم إلى القسم الداخلي مرة واحدة. كذلك عائلة السنوسي كان يأتي منها عدد كبير من الطلاب.

الغستابو.. لطلاب القسم الداخلي

وعن مسؤوليات مشرف القسم الداخلي يروي مستر إلهامي: «كان كل طالب يدخل عنبره فيكون سريره مجهزًا ومكتبه مجهزًا. العنبر يستوعب حوالي ثلاثين أو أربعين طالبًا، وشقة المشرف بجوارهم، وكان واجبًا أن نطبق نظام «الغستابو» لكي نعرف أين يوجد الطلاب لأنها مسؤولية كبيرة، لأن

بعضهم كان يحاول الخروج من المدرسة وكانت المراقبة مستمرة ليلًا ونهارًا بالتعاون مع الفراشين والبواب.

الطلاب في الابتدائي لديهم مشرفات، أما في الإعدادي والثانوي فقد كان المشرفون رجالًا.

كانت المدرسة مجهزة من كل شيء مطبخ ومتعهد أغذية حتى الخبز كان يأتي طازجًا من الفرن.

ومن المواقف التي لن ينساها إلهامي والتي ترتبط بصرامة كلية فيكتوريا التي استمرت حتى الثمانينيات» كان هناك طالب سوداني ردّ بأسلوب غير محترم، واتصلنا بالكفيل وطلبنا منه أن يأتي ليصطحب هذا الطالب، وتمّ طرده من القسم الداخلي فورًا».

ويؤكد إلهامي أنه مع الصرامة كانت هناك مشاعر إنسانية قوية تجمع بين المعلمين والطلاب ومنها يذكر: «كان لدي طالب مصري يسكن في سيدي جابر، والأب والأم منفصلان، وكان الولد في حال يُرثى لها، وحاولت احتضانه حتى اعتبرني والده، وأصبح متفوقًا، إلى أن سافر إلى الخارج.

أيام حرب لبنان جاء الكثير من الطلاب اللبنانيين، والكثير من السعوديين الذين كانوا يعتبرون الكلية رمزًا للنظام والانضباط.

في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، كان لدينا ناظرة اسمها عصمت زين الدين، كان زوجة أستاذ بكلية الهندسة، كانت لكي تقبل أطفالًا في قسم الحضانة، تطلب

من الطفل كوب ماء، إذا جاء بكوب الماء في صينية، يقبل، وإذا جاء ممسكًا بها بيده يرفض، لأنه سيكون مع أبناء عائلات فإذا كانت سلوكياته جيدة سيصلح الباقي، وإذا كان لا يعرف أساسيات التعامل و«الإتيكيت» سيفسد باقي الطلاب. كما أنها كانت تعتبرها علامة على أسلوب التربية والتعامل داخل منزل الطالب.

الحاجة زهرة.. والإرهابي

الأولاد كانوا يطلقون عليّ لقب «إرهابي»، وكانت لديّ عصا كنت أسميها «الحاجة زهرة» من فيلم نجيب الريحاني، كانت المعادلة الصعبة أن أكون حازمًا ويحبني الطلاب. وبحكم أني كنت مدرّس تربية رياضية كنت أقرب المدرّسين للطلاب. مما كان يساعدني في حلّ المشاكل بين الطلاب والمدرّسين، وتربويًا كنت ألوم الطلاب باعتبار أن المدرس مثل الوالد في المدرسة.

ذات يوم عاقبت طالبين كانا يتشاجران مع بعضهما، فقمت بضربهما عقابًا لهما، وبعدها جاء وليّا أمرهما غاضبين ويتكلمان بنعرة كيف يتمّ ضرب أبنائهم؟! وكانت مسز ليتسا مديرة المدرسة، وطلبت مقابلتي لتفهم ما يحدث، بعدها بعشر دقائق جاء أولياء الأمور يعتذرون.

وكان الطلاب يتقبلون مني أي فعل أو أي قول لشعورهم بأنني أمين على مصلحتهم».

مستر ترين النجار الفصيح

مستر ترين Treen نجار كلية فيكتوريا كان شخصية كاريزمية وله دائمًا أقوال فصيحة علقت في أذهان الطلاب الذين كانوا يقدرونه لفلسفته في الحياة، وله صورة شهيرة التقطها له إدوارد عطية، حيث كان مستر ترين مقيمًا مع الطلاب ومستر ريد ومستر بولتون Mr. Bolton كبير الطهاة كانوا جميعًا يقيمون وقت الحرب العالمية الأولى في شقة مستر لياس. وكان لمستر ترين أقواله المأثورة والتي تناقلها عنه الطلاب «الحياة دون زوجة مثل المطبخ من دون سكين» «what a life without a wife, it's like a kitchen without a knife». جاء إلى كلية فيكتوريا هو وزوجته التي كانت مسؤولة عن شؤون النظافة في الكلية عام 1907، وظل بها حتى وفاته عام 1949.

نجار المدرسة يلعب الكريكيت مع أحمد رمزي وعمر الشريف

يحتل الراحل عبد المنعم إبراهيم عبد المتعال، نجار كلية فيكتوريا، جزءًا هامًّا من ذكريات الخريجين القدامى، فقد كان يعتبر نفسه منهم! فقد انضم للعمل في الكلية عام 1932، وانتقل مع الطلاب أثناء الحرب العالمية الثانية إلى القاهرة في فيكتوريا شبرا، وعاد إلى الإسكندرية مرة أخرى بعدها. وكان دائمًا ما يفتخر خلال أحاديثه بأنه يومًا ما لعب الكريكيت وكرة القدم مع الطلاب ومن بينهم: أحمد رمزي وعمر الشريف الذين أصبحوا فيما بعد نجومًا سينمائيين، معتبرًا نفسه من الـ «أولد فيكتوريانز»!

وكان معروفًا أنه يحتفظ لديه بأرشيف كامل لكل طلاب

فيكتوريا، فكانت لديه مجموعات نادرة من الصور، وخاصة صور الأمير عبد الإله والأمير فيصل الثاني. وكان الرجل الذي يعرف كل صغيرة وكبيرة عن كلية فيكتوريا وطلابها.

وجوه مرّت بكلية فيكتوريا

في محاولة لرصد قيمة وأهمية كلية فيكتوريا في المنطقة، وحجم العلاقات التي كان يتمتع بها مديروها، نلقي الضوء على بعض الوجوه التي زارت كلية فيكتوريا أو ألقت بها محاضرات ومنهم:

الرحالة البريطاني هاري سانت جون فيلبي، ويعرف أيضًا باسم «جون فيلبي» أو الشيخ عبد الله، هو مستعرب، مستكشف، كاتب، وعميل مخابراتي على أعلى مستوى بمكتب المستعمرات البريطاني. وقد عيّن مستشارًا للملك عبد العزيز بن سعود، وكان رئيسًا للمخابرات بحكومة الانتداب البريطاني بفلسطين، وتضمّ كيانات الأردن وفلسطين، زار كلية فيكتوريا عام 1933 ليلقي محاضرة بعنوان «الربع الخالي» «Empty Quarter» وكان يروي فيها رحلته التي استمرت نحو 15 يومًا على الجمال سافر فيها من الرياض إلى جدة، تلك الصحراء التي تُعدّ الأكبر في العالم، والتي حصل بعد رحلته فيها على ميدالية ذهبية من الجمعية الجغرافية الملكية بلندن عن شجاعته فيها.

ومن أبرز الزوار أيضًا:

أمبراطور أثيوبيا هيلا سيلاسي (23 تموز/ يوليو 1892 ـ 27 آب/ أغسطس 1975) آخر الأباطرة الأثيوبيين الذي زار

كلية فيكتوريا عام 1924، وكانت تربطه علاقة وثيقة بمستر رييد وهو ما يتضح من المراسلات بينهما. كانت تلك الزيارة مشهودة والتقى خلالها سيلاسي بالطلاب الأثيوبيين، ولكن أسباب تلك الزيارة كانت ولا تزال غامضة، أقصي عن ملكه عام 1974 إثر ثورة شيوعية قادها منغستو هيلا ميريام. واحتجز في قصره وبعد عام واحد توفي في ظروف غامضة. دفن في عام 2000 بعد 25 عامًا من وفاته.

قد كتب هيلا سيلاسي اسمه على صفحات التاريخ، فهو أحد المؤسسين لمنظمة الوحدة الإفريقية، بالإضافة إلى مقاومته للغزو الاستيطاني الإيطالي لبلاده إبان الثلاثينيات وربما يكون سببًا في حرص بريطانيا على توطيد العلاقة معه. فقد أصرّت على تعليم بعض الأثيوبيين.

الفصل السابع

أبرز خريجي كلية فيكتوريا

هناك عدد لانهائي من الشخصيات البارزة التي أنجبتها والتي لا زالت تنجبها كلية فيكتوريا، منهم: محمود المنزلاوي الذي انضم لفيكتوريا الإسكندرية عام 1930 وتخرج من فيكتوريا القاهرة عام 1941. ولعل من المفارقات العجيبة أن يصبح أبناء أحد زعماء الثورة العرابية الشاعر المناضل محمود سامي البارودي، وزير الحربية ورئيس الوزراء والذي نفاه الإنكليز إلى جزيرة سيلان، من خريجي الكلية الإنكليزية. فقد انضم أشرف وكمال للائحة طلاب المدرسة عامي 1905 و1906. وتخرجا منها عام 1911. وكان كمال البارودي قد تخرّج من معهد ماساتشوتستس للتكنولوجيا. وكان من أول المصريين الذين تخرجوا من هذا المعهد العريق[1]. كذلك خرجت فيكتوريا محمد بن علي باشا ماهر، كذلك إسماعيل باشا

(1) انظر كتاب نقولا يوسف، أعلام من الإسكندرية، الجزء الثاني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، تشرين الأول/أكتوبر 2001، ص 311 و312.

صدقي وهو من مواليد (حزيران/يونيو 1875 إسكندرية ـ 9 تموز/يوليو 1950)، وكان من مؤسسي حزب الوفد وعلى علاقة وطيدة بالزعيم الوطني سعد زغلول، حتى أنه اعتقل معه وتمّ نفيهما إلى مالطة، وكان له دور بارز في مفاوضات إلغاء الحماية البريطانية على مصر. والمفارقة الغريبة أنه في العام نفسه الذي نفي فيه إلى مالطة عام 1919، دخل ابنه عزيز صدقي كلية فيكتوريا وظل بها حتى عام 1926! رغم أن والده حصل على تعليمه في مدارس الفرير الفرنسية. ويضاف إليهم حسن تمام الدين باشا رضا، حفيد هدي شعراوي.

وأيضًا كان السفير محمود الفلكي (VC 1912 - 1918) طالبًا بكلية فيكتوريا، حفيد محمود باشا الفلكي الذي قام برسم أول خريطة طبوغرافية لمصر، وأهم وأشهر خرائط الإسكندرية. ويعتبر من أبرز الخريجين من أنحاء العالم: الدبلوماسي الكندي ليولين دانا ويلجريس، وكان ممثلها في حلف الناتو، والخبير والمؤرخ الاقتصادي المصري البارز تشارلز عيسوي، والموسيقار العراقي صلحي الوادي، والأمير حسين طوسون حفيد الأمير عمر طوسون الملقب بـ «أمير الإسكندرية». ومن أشهر الخريجين الأوائل من كلية فيكتوريا عبد الرحمن حمادة رائد صناعة النسيج في مصر مؤسس شركة المحلة للغزل والنسيج، والدكتور المعروف محمود أباظة، ومن الأردن وزير العدل الأردني، عمر نابلسي تخرج من كلية فيكتوريا عام 1953، وأيضًا الشيخ

محمد عشماوي، التايكون السعودي الذي كان طالبًا في فيكتوريا الإسكندرية والقاهرة، والقائمة تطول وتطول ولكن سنعرض لنبذات عن حياة بعض الخريجين ومنهم:

جورج أنطونيوس (1892 ـ 1942) الملقب بكاتب العروبة

وُلد بالإسكندرية عام 1892 وكان يحمل الجنسية اليونانية، وهو نجل حبيب أنطونيوس أحد كبار ملاك الأراضي الشوام بمصر. وتلقى علومه الابتدائية والثانوية في «كلية فيكتوريا»، التحق بها عام 1902 وتخرّج فيها عام 1910، درس الهندسة في جامعة كامبردج بإنكلترا، وعاد إلى مسقط رأسه حيث عمل في بلدية الإسكندرية وذلك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

عرف عنه حبّه للأدب واهتمامه بالقضية الفلسطينية، وسافر إلى فلسطين في نهاية الحرب العالمية الأولى للدفاع عن الحق العربي، وخدم في حكومة فلسطين، وأصبح أول مساعد عربي لمدير المعارف، وعمل مساعدًا للسكرتير العام في حكومة فلسطين وحينما قصد السير جلبرت كلايتون السكرتير العام لحكومة فلسطين، المملكة العربية السعودية لإبرام المعاهدة البريطانية السعودية، اختاره رفيقًا له في هذه الرحلة.

في عام 1937 أدلى أنطونيوس بشهادة أمام «اللجنة الملكية البريطانية» التي جاءت للتحقيق في بواعث الاضطرابات

والثورات في فلسطين، وفي عام 1939 انتخبته الهيئة العربية العليا في فلسطين سكرتيرًا للوفد الذي مثّل عرب فلسطين في مؤتمر «سان جيمس» بلندن وأعدّ مذكرات قيمة عبّر فيها عن الوجهة العربية.

في العام نفسه صدر له كتاب باللغة الإنكليزية عنوانه «يقظة العرب» «Arab Awaking» ويُعدّ أهل القلم ورجال السياسة هذا الكتاب من شوامخ المؤلفات التي عالجت القضية العربية معالجة حكيمة رصينة. ويلخص هذا الكتاب المجهودات التي قام بها أنطونيوس من مقابلات لشخصيات سياسية عربية من مختلف أقطار الوطن العربي فضلًا عن شخصيات أجنبية عايشت أحداث القضية العربية، وترجم الكتاب للعربية عام 1946.

وله دليل تاريخي للمسجد الأقصى والحرم الشريف باللغات الإنكليزية والفرنسية والعربية. وتوفي أنطونيوس عام 1942 في بيت المقدس ودُفن هناك[1].

السير مايكل عطية

وهو ابن إدوارد عطية الذي ألف كتاب «عربي يروي قصته» وكان من أوائل من درسوا في كلية فيكتوريا، لهم أصول لبنانية، درس مايكل وأخوه في كلية فيكتوريا، ولكن عبقرية

(1) انظر كتاب نقولا يوسف، أعلام من الإسكندرية، المرجع السابق، ص378، 382

نبوغ مايكل في علم الرياضيات مكنته من وضع نظرية «k» الشهيرة وأصبح واحدًا من أعظم علماء الرياضيات في العالم وأصبح مستشار ملكة بريطانيا وحصل على لقب سير عام 1983، كما رئس الجمعية الملكية البريطانية، وكان عميدًا لجامعة «ترينتي» في كامبريدج. وهو حاصل على جائزة الملك فيصل للعلوم في عام 1987، وحصل على «فيلدز» المعادلة لجائزة نوبل في الرياضيات.

محمد مفيد الشوباشي

الشاعر والكاتب المولود بالإسكندرية عام 1899 في رمل الإسكندرية، وكان والده أول نقيب للمحامين بالإسكندرية، وممن أسهموا في إنشاء نقابة المحامين بمصر. وقد انضم للكلية في مرحلة التعليم الابتدائي وجزء من المرحلة الثانوية. ويذكر نقولا يوسف «كانت هذه المدراس يومذاك لا تعنى بتعليم اللغة العربية قدر عنايتها بتعليم الإنكليزية، فأخرجه منها والده وأحضر له مدرّسًا خاصًا يعلمه العربية بالمنزل مدة عام ليعده لدخول المدارس الوطنية ليلتحق بمدرسة رأس التين الثانوية التي كان من بين معلميها الشاعر عبد الرحمن شكري. وفي عام 1947 حصل على جائزة الشعر العربي الحديث من المجمع اللغوي، وعيّن مراقبًا لإدارة الثقافة العامة حتى عام 1961. وله ديوان «وحي الشاطئ» ويضمّ أكثر من 50 منظومة، وله كتاب بعنوان «خواطر غريب عام 1919»، وصدرت له رواية عام

1941 بعنوان «الصحوة الأخيرة»، ورواية «الخيط الأبيض»، وله كتاب نقدي بعنوان «القصة العربية القديمة».

وترجم مفيد الشوباشي عددًا من القصص الأوروبية ومنها: رواية «أرميا» لستيفان زفايج 1946، وعن توماس هاردي رواية «نافخ البوق»، وعن فورستر «المنزل الريفي» وعن غوتييه «الكابتن فراكاس»[1].

محمود سعيد: رائد الفن التشكيلي المصري 1897 ـ 1964

وُلد محمود سعيد في الإسكندرية لعائلة أرستقراطية، وكان والده رئيس وزراء مصر، وهو خال الملكة فريدة زوجة الملك فاروق، ألحقه والده منذ كان طفلًا في السابعة بكلية فيكتوريا برمل الإسكندرية فظل بها فيما بين 1904 و1908[2].

ونظرًا لنشأته في أحضان حيّ الأنفوشي في بحري وفي زخم من ألوان الفلكور الشعبي الإسكندري شعر برغبة عارمة في دراسة الثقافة العربية التي لم تعنى بها الكلية الإنكليزية. فطلب من والده دراسة العربية فأحضر له والده أمهر المعلمين في المنزل.

كان يعشق الرسم وشكلت البيئة الممزوجة بالأجواء

---

(1) انظر كتاب نقولا يوسف، أعلام من الإسكندرية، المرجع السابق: ص398.

(2) المرجع السابق، ص 398.

الصوفية في حي الأنفوشي وحياة الصيادين مهدًا له لذلك العشق، سافر إلى باريس وحصل على ليسانس الحقوق سنة 1919 وتعرف هناك على تيارات الفن الحديث وتعلّم على يد الفنان الفرنسي بورديل، ودرس بأكاديمية جوليان بباريس وتتلمذ على يد الفنان بول ألبير لورانس، ودرس في متاحف هولندا وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا.

عيّنه والده بسلك القضاء عام 1922 كمساعد للنيابة بالمحاكم المختلطة بالمنصورة، ثم أصبح مستشارًا بمحكمة استئناف الإسكندرية المختلطة. ولا يخفى على أحد قيمة لوحات الفنان محمود سعيد التي تُباع بالملايين في أكبر المزادات العالمية.

فرغلي باشا

تخرج من كلية فيكتوريا العديد من أباطرة تجارة القطن في الإسكندرية وكانوا من أثرياء مصر. وكان من بينهم محمد فرغلي باشا، أمبراطور تجارة القطن في مصر. والده كان أحمد أفندي فرغلي وقد تلقى تعليمه الأولى في مدارس الجيزويت بالإسكندرية ثم التحق بكلية فيكتوريا عام 1914، وكان أخوه أحمد فرغلي طالبًا بها منذ عام 1903 وتخرج منها 1914.

كتب في مذكراته أنه قضى أحلى أيام عمره في كلية فيكتوريا، وكانت تربطه صداقة وطيدة بأمين عثمان حتى اغتياله عام 1946.

ومنذ دخوله مجال تصدير القطن نهض فرغلي الابن

بتلك التجارة وانتزعها من التجار الأجانب، فأصبحت الريادة للمصريين في التصدير. وانتخب عام 1935 نائبًا لرئيس بورصة مينا البصل ثالث أشهر بورصة قطن في العالم بعد ليفربول ونيويورك.

كان عضوًا بمجالس إدارة العديد من الشركات والهيئات وكان من بينها عضويته لمجلس إدارة كلية فيكتوريا. والبنك الأهلي.. وغيرها.

في العام نفسه أنعم عليه الملك فؤاد بلقب «بك»، وقد كان أول مصري يرأس بورصة مينا البصل للقطن والتي كانت أقدم بورصة في العالم، وفي العام نفسه بعد أن كان عضو وفد مصري لتوطيد العلاقات الاقتصادية الإنكليزية المصرية، أسّس شركتي مصر للتأمين، وشركة «البيضا». وحصل على لقب «باشا» عام 1941 لجهوده في النهوض بالاقتصاد المصري. وكان معروفًا بأنه يجوب شوارع الإسكندرية بأفخم سيارات أميركية وألمانية. كتب فرغلي باشا مذكراته ونشرها سنة 1984 في كتاب أسماه «عشت حياتي بين هؤلاء».

جواد خليل حمادة

هو رائد جراحة العظام، وُلد بالإسكندرية عام 1900، ودرس في كلية فيكتوريا حتى المرحلة الثانوية، ثم سافر إلى إنكلترا لدراسة الطب في جامعة برمنغهام وتخرّج منها عام 1923، مارس مهنة الطب في إنكلترا لبعض الوقت، وعاد من إنكلترا عام 1929 ليعمل بمستشفيات وزارة الصحة

بالإسكندرية، وبعد إنشاء جامعة الإسكندرية عام 1942 وحين بدأ إنشاء قسم العظام بكلية الطب عام 1950 اختير الدكتور جواد حمادة لرئاسة ذلك القسم.

وكان الدكتور جواد حمادة من مجموعة المؤسّسين لجمعية جراحة العظام المصرية، وتولى الدكتور جواد حمادة رئاسة مجلس إدارتها عامي 1968 ـ 1969.

وللدكتور جواد حمادة منشورات علمية كثيرة حوالى 22 بحثًا نشرت في المدونات العالمية والعربية لجراحة العظام، وكان أولها عام 1930 في المجلة الطبية الإنكليزية وآخرها عام 1947. وقد قام الدكتور جواد حمادة بمناقشة 16 رسالة ماجستير في قسم جراحة العظام بالإسكندرية في الفترة ما بين 1976 وحتى وفاته عام 1981. وكان معروفًا عنه اهتمامه بالنشاط الرياضي في نادي سبورتنغ العريق، وهو من مؤسسي نادي الصيد الرياضي.

يوسف شاهين: الحياة في فيكتوريا.. أول أفلامه الصامتة

فيها صور أول أفلامه التسجيلية وهو ما يزال طالبًا، وكان فيلمًا قصيرًا مدته ثلاث دقائق بعنوان «School life» جسّد فيه شقاوة الطلاب ومشاكساتهم للمدرس ببراعة. كان ذلك في عام 1944.

كان شاهين يسكن حيّ الطبقة العاملة في الشاطبي في عمارة تطل على البحر فوق كازينو تيك تاك بوم الذي كان يرتاده الإنكليز، وكان ينتمي لأسرة متوسطة الحال لكن والده

رغب في تعليمه في أرقى مدارس الشرق الأوسط، وحفر اسمه على كل ركن فيها، وشهدت ظهور موهبته، وتعلم فيها التمثيل والإخراج وكبر فيها طموحه هو وصديقه وزميل دراسته توفيق صالح في اقتحام عالم السينما، وإذا به بعد أن دخل عالم السينما لم ينس مدرسته التي ظهرت في فيلم إسكندرية ليه؟ وعاد شاهين إلى مدرسته مرة أخرى ولكن كمخرج، يأمر وينهى. وتتذكره مدام سعدية مدرسة الرسم بالكلية قائلة: «أذكر جيدًا أوقات تصوير الفيلم كان شاهين يمضي معنا أوقاتًا كثيرة يطلق النكات ويتندر على أيام الطفولة، وكان غاية في التواضع فكان يتناول معنا الإفطار ويجلس على الأرض ويتعامل معنا كأسرته».

ميشيل شلهوب: عمر الشريف الطالب البدين

وُلد عمر الشريف «ميشيل شلهوب» بالإسكندرية لأب وأم مسيحيين كاثوليكيين من أصول لبنانية، وأدخلته والدته كلية فيكتوريا لما سمعته عنها من صرامة ووجود أوقات محددة لتناول الطعام والالتزام بممارسة الرياضة، فأرادت أن يخضع ابنها الوحيد لهذا النظام حتى لا يسخر منه الآخرون بسبب بدانته، وبالفعل انضم عمر الشريف لكلية فيكتوريا عام 1940 واستمر بها حتى 1949، في الإسكندرية تزامل مع يوسف شاهين وأحمد رمزي والشيخ كمال أدهم وإيلي زمار، ويذكر سمير فهمي العلايلي، زميل مقعد الدراسة لشلهوب أنه كان قمة في الأدب والأخلاق

ولاعب ماهر، ولأنه كان طالبًا في القسم الداخلي فقد تمّ نقله مع باقي الطلاب إلى القاهرة أثناء الحرب العالمية الثانية، وهناك تزامل مع إدوارد سعيد(*).

ولا يزال عمر الشريف في جميع حواراته سواء مع الصحف والمجلات العربية أو الأجنبية يفخر بدخوله إلى كلية فيكتوريا التي كانت سببًا في إتقانه اللغة الإنكليزية فضلًا عن الفرنسية التي كانت اللغة التي يتحدثها في المنزل مع والدته.

وفي حوار تلفزيوني له في برنامج «الجذور» الذي كان يتحدث عن سيرة حياته على مدار 30 حلقة، يقول الشريف: «يوم ولدت، قررت أمي أنني سأكون رجلًا شهيرًا في العالم كله، بل الأجمل في العالم، وعندما التحقت بالمدرسة، كانت تعاقبني إن لم أحصل على الترتيب الأول بعلقة ساخنة، لم تكن تقبل مني إلا أن أكون ممتازًا في كل شيء». وحول دخوله كلية فيكتوريا قال: «وبالفعل تحسنت صحتي النفسية والبدنية كما أنني أتقنت اللغة الإنكليزية، ولولا ذلك لما سنحت لي فرصة المشاركة في فيلم «لورانس العرب»، ولما عرفت العالمية».

وفي أحد الحوارات الصحفية التي أجراها الشريف مع

(*) يُشار إلى أنه تمّ تنسيق مقابلة منع الفنان العالمي عمر الشريف فور عودته من فرنسا نهاية العام 2012 إلا أن مديرة أعماله المخرجة إيناس بكر أشارت إلى أن حالته الصحية المتأخرة لن تمكنه من تذكّر أيام المدرسة خاصة وأنه يعاني من إجهاد في الذاكرة.

«الغارديان» اللندنية بمناسبة مرور 50 عامًا على «لورانس العرب»[1]. قال إن «والدته أدخلته مدرسة إنكليزية لأنه كان «سمينًا» وهو في العاشرة من عمره ، فأرادت أن يفقد وزنه بإدخاله هذه المدرسة التي تقدم طعامًا بشعًا لذا سيفقد وزنه لا محالة، كما تعلم فيها أن يعتلي خشبة المسرح وقام بأداء عدة أدوار في مسرحيات إنكليزية، كل هذا بسبب أن والدته لم تحب أن تنظر إلى طفلها البدين». وتطرق الشريف في حديثه إلى كرة القدم التي كان يعشقها ولكنه كان يلعب كمدافع وقال: «من الغباء أن تلعب كمدافع لأنك تقضي معظم المباراة وأنت تتفرج عليها». وبالفعل ذكرت تقارير الكلية أنه كان لاعبًا ماهرًا في كرة القدم والكريكيت.

وفي تصريح آخر للإندبندنت: كشف «الشريف» عن أنه قام بتمثيل عدة أفلام غير مقتنع بها للإنفاق على لعبة «البريدج»، التي يُعدّ واحدًا من أفضل 50 لاعبًا لها على مستوى العالم.

الفنان أحمد رمزي

يُعتبر أحمد رمزي من أبرز خريجي كلية فيكتوريا، وله الكثير من المواقف الطريفة بها، وقد تفجرت موهبته على مسرحها، وعند بدء شروعي في الإعداد لهذا الكتاب، حاول

(1) http://www.guardian.co.uk/culture/2012/nov/15/omar-sharif-30-minutes-interview.

السيد منصور حسن مساعدتي في الوصول لهاتف الفنان الكبير أحمد رمزي لكي أتمكن من تنسيق اللقاء معه في قرية «هاسيدنا» بالساحل الشمالي، إلا أن القدر تدخل ولم نلتقِ حيث وافته المنية. ولكن سنذكر بعض المواقف الطريفة في الكلية، ومنها ما ذكره في حديث لمجلة نصف الدنيا في 6 حزيران/يونيو 2010، والذي يروي فيه بعض ذكرياته مع مسرح الكلية: «أثناء دراستي بـ «كلية فيكتوريا».. كنت أحب متابعة بروفات الأعمال المسرحية في المدرسة، وتقليد أبطالها من باب «التهريج»، وفي إحدى المرات أذكر أن المسرحية التي تتدرب عليها الفرقة هي «الرجل والسلاح».. للكاتب الإنكليزي «برنارد شو»، وكنت قد حفظت هذه المسرحية من كثرة مشاهدتها ومشاهدة كواليسها، وفي اليوم الرئيس للعرض تغيبت الممثلة التي كانت تقدم شخصية الخادمة «لوكا».. التي تحاول أن تخطف البطل من حبيبته، وأذكر أن مخرج المسرحية جنّ جنونه، فعرض أحد زملائي علي المخرج الإنكليزي فكرة أن أقدم الدور، ورغم غرابة الفكرة فإن المخرج اضطر إلى الموافقة لإنقاذ الموقف، وقد أعجب الجميع بأداء دور الخادمة الذي قدّمته، وأذكر أن المخرج شجعني وتنبأ لي بمستقبل فني واعد.. ومن هنا بدأ شغفي بالفن»[1].

ويتذكره الكاتب الأردني د. عبد الفتاح طوقان، خريج كلية فيكتوريا أيضًا، في مقال كتبه في جريدة إيلاف الإلكترونية

(1) مجلة نصف الدنيا، عدد 6 حزيران/يونيو 2010.

لتأبينه، يروي فيها لقاءه به في منزل العائلة «سلم عليّ بحرارة بعد انتهاء الغداء ملمحًا إلى صورة لي بلباس كلية فيكتوريا وعلى رأسي «الكاب» طاقية المدرسة، وقال لي: أنا كمان درست في كلية فيكتوريا، هل قمت بالصعود إلى حيث الجرس؟، إن ذلك ممنوع ولكنها مغامرة لا تنسى وعقابها الفصل من المدرسة لمدة يومين!!!. عرفت من تلك اللحظة أن أحمد رمزي هو الولد الشقي الحقيقي، المغامر الظريف».

شادي عبد السلام.. المخرج ومصمم الديكور العالمي

دخل شادي فيكتوريا عام 1935، وتخرّج منها عام 1948، وقد تفجرت فيها مواهبه في الرسم والتمثيل والإخراج، إلى جانب حبّه للموسيقى والتاريخ والأدب.. موهبة شادي الفريدة في رسم الاسكتشات وتصميم الملابس التاريخية لأعمال عديدة شكّلت علامات في السينما المصرية، اكتشفتها الكلية وتمّ التعليق عليها في أحد تقارير الكلية عنه تنويهًا بمهارته في الرسم، إنه «جيد ولكن دون شخصية» وكان معلمه للرسم والتاريخ والإنكليزية مستر إدوارد ليدغر هيل، الذي زرع حبّ الفن في قلب شادي المخرج الفذ فيما بعد، ولعل أثر مستر هيل يظهر جليًا إذا ما قارنا الاسكتشات التي رسمها شادي لتصميم ملابس شخصيات أبطال أفلامه، والتي كان يرسمها هيل لتصميم ملابس مسرحيات شكسبير التي كانت تُقام على مسرح الكلية.

بعد تخرجه، غادر شادي إلى إنكلترا ودرس فيها الدراما

لمدة عام. وكان قد كتب له مستر باريت Barritt خطاب توصية ذكر فيه أنه هادئ الطباع، ذو خلق، وله اهتمامات كبيرة بالدراما، وهو فنان موهوب للغاية، وأنا متأكد أنه سيصبح له شأن كبير إذا اتخذ مسارًا مهنيًا يتعلق بصناعة السينما أو المسرح».

ذكريات دراسية جمعت مهيبة عبد السلام مع أخيها

تذكر السيدة مهيبة عبد السلام الشقيقة الصغرى للمخرج الراحل شادي عبد السلام، أنه كان لديه ولع شديد بالرسم والقراءة، فكان يقرأ في شتى فروع الحياة، وكانت أغلب مناقشاته معنا في مقطوعة موسيقية أو كتاب مهم.

وتروي أن شادي كان على علاقة طيبة حتى آخر لحظة في حياته مع زميل دراسته كامل سيد أحمد.

وتروي: «كان الأسبوع كله تركيزنا على الدراسة والاستذكار، أما يوم السبت كانت تبدأ إجازتنا من منتصف اليوم مع يوم الأحد بكامله، فكنا نقضيه مع الأهل.. في الإجازات نلتقي مع أصدقائنا من كلية فيكتوريا والـ EGC، لأن بطبيعة الحال كان الأهالي أيضًا أصدقاء.

وكان شادي يصطحبنا للسينما التي كان شغوفًا بها، فأصبحت من عادتنا أن نذهب كل سبت لمشاهدة فيلم جديد من السادسة حتى التاسعة مساء. أما في أيام الأحد وأثناء التجمعات الأسرية كان شادي يتقمص شخصية المخرج ويوزع علينا الأدوار وينتقي لنا الملابس وكان يستغل أدوات المنزل كلها من أواني وأنتيكات وغيرها ليخدم العرض المسرحي.

وتستطرد «المدارس الإنكليزية في ذاك الوقت سواء فيكتوريا أو EGC لم تكن تجري مقابلات لأولياء الأمور لكي تحدّد قبولهم أم لا ، وذلك لأن العائلات الكبيرة كانت معروفة».

وتنفي السيدة مهيبة بشدة ما يُشاع عن أن الطلاب الذين تلقوا تعليمًا على يد الإنكليز تمّت «نجلزتهم» أو تمّ غسيل أدمغتهم، قائلة: «كنا وطنيين جدًّا ولا نقبل أن تحتل أي دولة مصر، وكنا ضد سياسات إنكلترا، ولكن كانت علاقتنا بالتعليم الإنكليزي هي العلم والثقافة فقط ولكن الانتماء الأول والأخير لوطننا».

وتشير إلى أن شادي كان منزعجًا جدًّا من إهمال تاريخ مصر في الثمانينيات وكان دائمًا ما يقول: «التاريخ المصري القديم له احترامه في الخارج فهم يقدرونه»، وكان شادي قد بدأ القراءة عن تاريخ مصر القديم بالإنكليزية حينما كان طفلًا صغيرًا وزار الأقصر وانبهر بآثارنا».

وتؤكد أن طريقة التعليم البريطانية خلقت لديهم القدرة على التفكير الحرّ وجعلتهم أكثر ثقافة ولهم مدارك واسعة، وفي الوقت ذاته، كانت تلك المدارس لها نظام صارم جدًّا يجعل الطلاب غاية في الالتزام».

إسماعيل شيرين وزير الدفاع المصري عام 1952

والده حسين بيه شيرين كان قد سحب أوراقه من كلية فيكتوريا لحين نقله إلى مدرسة أخرى، وفي ذات مرة رآه مستر ريد يلهو أمام منزله فتوقف ليتحدث إليه ويستفسر عن أخباره

ودراسته، وإذا به يتفاجأ بأنه لم يتقدم بعد لدخول أي مدرسة، فإذا به يستشيط غضبًا ويرسل خطابًا شديد اللهجة لوالده يوبخه فيه ويحذره من عواقب ترك ابنه هكذا، ويعلن فيه عن مدى إعجابه بذكاء ابنه وقال له: «إنها لتكون خيبة أمل كبيرة إذا لم تُعده مرة أخرى لكلية فيكتوريا»[1].

وبالفعل انصاع والد إسماعيل شيرين إلى نصائح مستر ريد وأعاده مرة أخرى لفيكتوريا حتى تابع تعليمه في إنكلترا ودرس في جامعات تشسترفيلد وترينتي وكامبريدج وعاد إلى مصر ليصبح وزيرًا للدفاع.

المخرج الكبير توفيق صالح

المخرج الكبير توفيق صالح، كان أحد طلاب كلية فيكتوريا بالإسكندرية وكان زميلًا ليوسف شاهين، ونظرًا لحالته الصحية المتأخرة قبيل وفاته بأشهر قليلة لم نتمكن من إجراء حديث مطول عن ذكرياته مع صديقه وزميله المخرج الكبير الراحل يوسف شاهين، في البداية ذكر أنها كانت مدرسة كأي مدرسة، إلا أنه ذكر أحد المواقف التي لا يستطيع نسيانها في مسرحية نهاية العام الدراسي التي كانت تقدم على مسرح سان ستيفانو بدلًا من مسرح «بيرلي هول» بفيكتوريا، عن ذكرياته مع يوسف شاهين زميل الدراسة أن يوسف تألق في دور «كارمن ميراندا» التي اشتهرت في الأفلام الأميركية الكلاسيكية بأداء

(1) Sahar Hamouda, Victoria College, p:115.

رقصات السامبا وهي ترتدي قبعة مزينة بالفواكه، إلا أن شاهين قلدها مستخدمًا «سباطة موز»!

عدنان خاشقجي

الملياردير السعودي الشهير وأشهر تجار السلاح في العالم، خريج كلية فيكتوريا وزميل الملك حسين، عدنان احتل غلاف مجلة التايمز الأميركية بتاريخ كانون الثاني/يناير 1987، ويعلم الجميع أنه تبرع للمدرسة بعدد كبير من الباصات المدرسية، كما أعلن منير شلبي في الاحتفال باليوبيل الماسي لكلية فيكتوريا تبرع عدنان بمبلغ 30 ألف دولار أميركي لصالح جمعية خريجي هذه الكلية.

وكانت آخر مرة شوهد فيها عدنان خاشقجي في القاهرة منذ عامين مع الفنان سمير صبري يتجول وهو ممسك بعصا يستند إليها.

غسان شاكر

آخر «Head Boy»، كان غسان شاكر، كان ذلك في عام 1956، وكان دائمًا ما يقول عن سنوات الدراسة وزياراته للكلية «إنه شعور رائع أن تكون على تراب كلية فيكتوريا مرة أخرى»، وكان دائمًا ما يردد «أعشق مصر حيث لي العديد من الأصدقاء الأعزاء».

* * *

قائمة الخريجين المشاهير تطول وقد نكون أغفلنا ذكر

الكثيرين منهم، ولكن فضلًا عن الطلاب المنحدرين من أصول ملكية، كان هناك طلاب عاديون يحلمون بأن يصبحوا نجومًا لامعين كمن سبقوهم من خريجي الكلية العريقة، فأذكر أن أحد جيراني كان ضابطًا متقاعدًا وكان ابنه يحلم بدخول تلك الكلية لكي يكون مثل عمر الشريف أو يوسف شاهين، واضطر هذا الضابط أن يعمل سائقًا على سيارة أجرة «تاكسي» لكي يستطيع سداد مصاريف الكلية لابنه الذي تخرج من الكلية في النهاية ليدخل كلية التجارة بجامعة الإسكندرية، ولم يصبح نجمًا سينمائيًّا أو مخرجًا أو شخصية بارزة!.

بعدما استعرضنا تاريخ أعظم مدارس الشرق الأوسط وأفريقيا في القرن الماضي، لا بدّ أن نتساءل: ماذا عن الطلاب الحاليين هل يدركون حقًّا قيمة وتاريخ تلك المدرسة؟

الطالب محمود صبحي سالم، هو أحد الطلاب المهتمين بجمع تاريخ وتراث كلية فيكتوريا، وهو عضو لجماعة جديدة تشكّلت مؤخرًا في الكلية تحاول استعادة أمجاد هذه الكلية، تلك الجماعة الجديدة كلها من الطلاب الذين ما زالوا يدرسون بالكلية وقد أطلقوا على أنفسهم «loyal Victorian» التي يرأسها مهند آركيز، يحاولون جمع كل ما يتعلق بالكلية وتاريخها وإعادة الروابط بين طلاب الكلية من جديد. يقول محمود: «حينما دخلت المدرسة منذ الحضانة دخلت لأن إخوتي كانوا بها، شكل المدرسة أعجبني ولكن لم أكن أعلم أنها خرجت كل هؤلاء المشاهير، وتعرفت على تاريخ المدرسة من

المدرسين من مرحلة الابتدائي وحكايات المدرّسين التي كانوا يقصونها علينا حينما يجدوننا نعبث أو نخرب بها «أنتم لا تعلمون قيمة هذه المدرسة فهي التي خرّجت العظماء».

ويضيف الطالب هشام ممدوح مصطفى، الذي يتعاون مع زميله محمود في جمع تاريخ الكلية ورصده من خلال الصور الفوتوغرافية، كل يوم يمرّ علينا داخل كلية فيكتوريا يزداد فخرنا بها، وأتمنى أن تعرف الأجيال الحالية والقادمة قيمتها ويستمرون في الحفاظ عليها، ونود أن يكون هناك تواصل بين القامات العالية التي خرّجتها الكلية معنا، نريدهم أن يعقدون لقاءات شهرية نستمع فيها لتجربتهم في الكلية وكيف كانت قوانينها وتقاليدها لكي نحييها مرة أخرى، كما أنهم سيشكّلون القدوة والمُثُل الأعلى للطلاب ويكونوا محفزين لهم لكي يجتهدوا حتى يصبحوا في مثل مكانتهم. تلك هي الروح التي تبثها كلية فيكتوريا في طلابها على مرّ السنين، حتى بعد زوال الهيمنة البريطانية عليها وعلى المنطقة، فهل تستمر؟!.

الفصل الثامن

كلية فيكتوريا في عيون خريجيها

من منا يستطيع نسيان يومه الأول في المدرسة.. اللحظة التي وطأت قدماه الصغيرتان عالم جديد بعيدًا عن المنزل وحضن الأم الدافئ.. لحظة وداع الأم والأب.. أول خطوة في فناء المدرسة.. أول معلم.. أول صديق أو صديقة.. أول كتاب مدرسي تسلّمه.. أول كرّاس رسم وأول علبة ألوان.. كلها لحظات مميزة في حياة كل منا.

الاستعدادات التي تسبق بداية كل عام دراسي من شراء الزي المدرسي الذي تصاحبه فرحة عارمة وشعور بالزهو والفخر إذا تمّ تغييره بالانتقال لمرحلة دراسية جديدة، وشراء الحقيبة الجديدة والحذاء الأسود البراق، والأدوات المكتبية المغلفة، ودخول المدرسة مرة أخرى وتمضية اليوم مع الأصدقاء.. تحية العلم والنشيد الوطني.. وطابور الصباح.. خطوات ناظر المدرسة ونظراته للطلاب.. والفسحة.. والكانتين «الكافيتريا».. بائع الحلوى خارج المدرسة.. والسعادة التي تغمرنا حينما ننفق المصروف.. الموهبة التي نجدها قد تفجرت

بين أحضان المدرسة.. أول جائزة تسلمها لك المدرسة.. وأول عقاب.. المشاغبة التي لا بدّ وأن نكون قد مارسناها يومًا ما في رحاب مدارسنا.. كل هذه اللحظات المميزة سنحاول استكشافها من خلال حواراتنا مع خريجي كلية فيكتوريا.

منصور حسن.. الثائر الصغير قاهر الإنكليز

تراس منصور حسن المجلس الاستشاري المصري بعد ثورة 25 كانون الثاني/يناير وكان مرشحًا لرئاسة الجمهورية، وهو كان رجل الرئيس السادات الأول وكان محل ثقته فاختاره ليكون وزيرًا للثقافة والإعلام.

كانت له مواقف عديدة داخل الكلية وتمّ فصله منها ثم عاد بحكم محكمة، وكان أول من أقام الصلاة في كلية فيكتوريا الإنكليزية، درس فيها من عام 1944 إلى 1954 وكان طالبًا بالقسم الداخلي. حاولت لقاء منصور حسن - رحمه الله - أكثر من مرة ولكن جدول أعماله المشحون دائمًا كان يحول دون ذلك، ونظرًا لخلقه الدمث وتحمسه لفكرة الكتاب التي كنت قد شرحتها له عبر الهاتف الجوال، فقال لي: هذا رقم منزلي هاتفيني في أي وقت وسأحاول الإجابة على كل أسئلتك؟ ثم قال مازحًا: عندك كام سؤال؟ فقلت حوالي عشر فقال ضاحكًا: بس!، ثم هاتفته إلى منزله وكان لنا حديث مطوّل حول ذكريات طفولته معتبرًا أنها أيام جميلة لا يمكن نسيانها. ورحمه الله كان دائمًا ما يرد على تساؤلاتي في أي وقت وقدم لي الكثير من المساعدات في التواصل مع جمعية خريجي

فيكتوريا القاهرة وأرقام هواتف عدد من الخريجين، ولكن للأسف لم يمهله القدر حتى يتمكن من رؤية نصّ الحوار التالي:

■ كيف كان انطباعك حينما دخلت تلك القلعة الإنكليزية؟

حينما دخلت المدرسة كان عندي سبع سنوات وجئت من ريف مصر من «أبو كبير» بمحافظة الشرقية، ولم يكن بها كهرباء أو مياه جارية أو صرف صحي وبعدها دخلت المدرسة الإلزامية الأولية، جو متخلّف جدًّا، وفجاة انتقلت إلى الإسكندرية كانت مدينة مبهرة وعالمية وفي قمة التحضر ولن أبالغ إن شبهتها بكأنك تنتقلين من الزقازيق إلى باريس.

حينما دخلت المدرسة كان أول شعور انتابني بأنني دخلت بيئة ثقافية جديدة وغريبة عني تمامًا.. مدرسة إنكليزية كل المدرّسين إنكليز وكل الحديث باللغة الإنكليزية وهناك تقاليد ونظام صارم.

■ كيف استطعت التأقلم مع تلك النقلة الكبرى في حياتك كطفل؟

تأقلمت بسرعة خاصة لأن سني كان صغيرًا، أول شيء ضايقني هو النوم في ميعاد معين الساعة الخامسة مساءً، كنت معتادًا أن أنام بعد أن تغرب الشمس. وكان ميعاد الاستيقاظ السابعة صباحًا وكنا نستعد للإفطار معًا.

■ ما الذي كان يميّز كلية فيكتوريا عن باقي المدارس الأجنبية في مصر آنذاك؟

كانت أهم خاصية تفردت بها أنها تجمع العديد من الجنسيات ومن مختلف أنحاء العالم، ويجمعهم أنهم من عائلات كبيرة وذات ثراء.. كان معنا ولي عهد ألبانيا وإيطاليا وبلغاريا، كانت تلك الأسر تركت بلادها ولجأت إلى الإسكندرية في ذلك الوقت، وكذلك من الدول العربية من الأردن ولبنان وسوريا وليبيا والكويت والسعودية والسودان وحتى طلبة من أفغانستان!

صداقته وعلاقته بالملك حسين.. الصداقة التي أنهت مقاطعة كامب ديفيد

■ **كيف كانت العلاقة بينك وبين أولئك الطلاب من العائلات الملكية، وكيف كانت علاقتك بالملك حسين؟**

كانت إدارة المدرسة لا تفرّق بين الطلاب ينظرون إلى الجميع بمستوى واحد، كان زميلي الملك حسين حفيد الملك عبد الله، لم يكن ملكًا أو ولي عهد، كان جده ملكًا ووالده ولي عهد، وكنت أقول له بكره حتبقى الملك وكان يقول لي «لسه بدري عليا..» لم يكن يعامل معاملة خاصة أبدًا بالعكس. ولكن الأمور تطورت بسرعة بعد مقتل جده وكان قد أصيب في هذا الحادث. وعندما ترك المدرسة وأكمل تعليمه في إنكلترا. بعد سنوات أصبح ملكًا وكنت في الحكومة المصرية.

بعد ذلك كانت علاقتي الشخصية به هي التي مكنّتني من إعادة العلاقات مع الدول العربية وبدأت بالأردن حيث أعادت

العلاقة مع مصر بعد قطيعة مؤتمر كامب ديفيد، وكانت الأردن أول دولة تعيد العلاقات معنا وربنا مكّنني الحمد لله.

■ صف لنا الملك حسين الإنسان؟

انطباعاتي عنه أنه كان رجل خير، وكان معتزًّا بعروبته لدرجة شديدة، وكان شجاعًا جدًّا وهو ما جعله يذهب لمقابله جيشه حينما أراد الانقلاب. وكان يفضل أن يضحي بكرامته الشخصية أمام المصلحة العامة، فلا يوجد ملك يقوم بما فعله. وكان عبد الناصر يسبّه وهو لم يكن يبالي في سبيل المصلحة العامة. فقد كان سياسيًّا بارعًا ومحنكًا. كان يناديني دائمًا يا حسن باسم الوالد كما اعتدنا في المدرسة. وكانت حفاوة الاستقبال التي يلقاني بها في الديوان الملكي غاية في الكرم.

■ هل كانت هناك شروط معنية لقبول الطلاب بالكلية؟ هل ينبغي أن يكونوا من أبناء الطبقة الراقية؟

كان هناك مقابلة مع والد الطالب لم تكن مسألة ذات عمق، كانوا يلمسون أن الأسرة ذات سمعة طيبة وقادرة على دفع المصروفات، كانت 150 جنيهًا في «الفصل الدراسي الواحد»، وفي السنة 300 جنيه تشمل الدراسة والأكل والكتب والملابس. وقتها كان المبلغ يصل إلى 300 ألف جنيه. كانت مصاريف باهظة جدًّا. والدي لم يكن من الأغنياء ولكن طموحه جعله يقدم على تلك الخطوة لكي يعطي لي فرصة تعليم جيدة.

■ **من كانوا زملاؤك من كبرى العائلات في الوطن العربي؟**

الأسر الكبيرة في الكويت والأردن الملك حسين، والسيد زيد الرفاعي، زيد بن شاكر، وعمر النابلسي أحد المحامين المشهورين، ومن الكويت كان هناك الكثير جدًا من آل الخرافي، منهم ناصر الخرافي وتربيته هنا جعلته يستثمر هنا مليارات الجنيهات، وجاسم الخرافي، ومن السعودية كان معنا أولاد الشيخ يوسف ياسين كانوا ثلاثة طلاب منهم أنس ياسين وأصبح سفيرًا بعد ذلك، وحسن ياسين شخصية اجتماعية مرموقة، وأخوه عبد العزيز ياسين، والمهندس طاهر عبيد من أهم الشخصيات في وزارة الزراعة، والدكتور محمد الصيرفي طبيب أمراض جلدية تعلم في الإسكندرية وأصبح من أشهر الأطباء السعوديين.

مصروف طالب فيكتوريا في يد المدرّس

■ **هل تتذكر كم كان مصروف يدك وأنت طالب في تلك المدرسة الأرستقراطية؟**

مصروف الطالب في كلية فيكتوريا وقتها كان مقننًا، كلنا مثل بعض لم يكن الأب الغني يعطي لابنه أكثر. كان الأب يعطي مصروف العام كله للمدرّس في أول السنة، ويمنحنا المدرس 25 قرشًا للأسبوع.

■ **هل تتذكر شعورك مع دقات جرس الفسحة؟**

همممم أتذكر ذلك جيدًا، وجرس الفسحة في الساعة 10 كانت أهم فسحة في اليوم نتوجه كلنا للكانتين نشرب «حاجة ساقعة»، كان صاحب الكانتين واحد يوناني ما زلت أذكره جيدًا يدعى «فيليبو»، كان يعمل ساندويتشات صغيرة روزبيف وتونة وجبنة رومي، وكنا نعتبرها أفضل ساندويتشات في الدنيا لا زلنا نتذكره وكيف كان ممتازًا جدًّا. وكان يفتح حسابًا لكل طالب ولم نكن ندفع في كل مرة ولكن في آخر الأسبوع لما نتسلم المصروف ندفع له.

■ **هل كانت هناك امتيازات للطالب المتفوق؟**

كنت من العشرة الأوائل لم أكن الأول ولكن نسبيًّا كنت متفوقًا. كان هناك أول وثانٍ وثالث لكل صف دراسي. كنت في الفصل الأول وفي نصف المجموعة.

■ **لا يوجد أحد من الفيكتوريين القدامى إلا ويذكر جيدًا أنك كنت طالبًا له كاريزما عالية؟**

كنت من الناحية الاجتماعية معروفًا ومشهورًا في المدرسة ولي شخصية قيادية وكانوا يهتمون بالتربية الإنكليزية بالشخصية أكثر من الدراسة. وكنت أستطيع جمع الطلاب وأؤثر عليهم ويسمعون كلامي. وهو أمر تعلمته نتيجة أصلي الريفي وخلفيتي المتدينة.

■ **خلفيتك الريفية هل تسببت لك بصدمة ثقافية؟**

هذا ما حدث لي فعلًا، ووجدت الغالبية العظمى تتماشى مع ثقافة المدرسة الإنكليزية، بل إن البعض أخذ ينصهر

بالشخصية الإنكليزية لدرجة أن ملابسه وتصرفاته ولكنته تحوّلت إلى إنكليزية حتى أنه يشرب بايب. البعض الآخر كان يرفض تلك الثقافة ويعود ليتمسك بثقافته الوطنية ويهتم بالعروبة وباللغة العربية مما يخلق شخصية معينة وحدث بيني وبين إدارة المدرسة صدام واختلفت عما تتطلبه سياسة المدرسة، لأن شخصيتي تشكلت بشكل ترفضه المدرسة مما خلق الصدام.

الدين والسياسة تابوهات!

■ هل كانت قوانين كلية فيكتوريا تحرم الحديث في الدين والسياسة؟

كانت تعليمات المدرسة واضحة «إحنا مدرسة علمانية ولا علاقة لنا بالدين والسياسة وعليك أن تكون كذلك». إذا ظهرت للطالب اهتمامات سياسية أو دينية لا يرحبون بذلك وتصبح عنصرًا شاذًا جدًا في المدرسة.

وحدث الصدام مع كلية فيكتوريا وعمري 11 سنة، وكان من ضمن التمسك بالهوية أن نصلي وكنت أدعو طلاب المدرسة للصلاة. كنا نصلي في ركن ملعب كرة القدم. لم يعترضوا في البداية لأنهم تفهموا موقفنا ولكن مع تزايد العدد يومًا بعد يوم، بدأوا بالتفكير في اتخاذ موقف. لأنه موقف غريب ظهر بعد عشرات السنين من وجود الكلية.

تواكب ذلك مع اختلاف الجو السياسي في مصر، وكانت بداية انهيار الأمبراطورية البريطانية.

■ كيف تطور الصدام بينك وبين إدارة الكلية الإنكليزية الصارمة؟

بدأنا نفكر في صلاة الجمعة، فادعوا أن الطلبة اليهود سيطالبون بالسبت إجازة، وهو لم يكن صحيحًا، ثم رفضوا رفضًا تامًّا أن يكون الجمعة إجازة، ولكن اتفقنا مساء يوم الخميس أنه بعد الحصة الثالثة التي تنتهي في الحادية عشرة والربع، وضعنا الكتب في الأدراج وخرجنا إلى المسجد. الناظر كان مندهشًا جدًّا وكانوا في حيرة من أمرهم كيف يعاقبون الطالب الذي كسر النظام بهدف الصلاة!.

كان هناك جامع في جناكليس (حيّ قريب من الكلية) ومشينا ربع ساعة إلى الجامع، طبعًا أهل المنطقة يعتبرونها قلعة لا أحد يعلم ماذا يدور بها، وفجأة ذهل أهالي الإسكندرية بعدد من الطلاب في زي مميز يخرجون إلى المسجد.

■ كيف كانت ردة فعل المدير الذي وضع في موقف حرج؟

كان الناظر مستر باريت Barritt حكيمًا جدًّا، قرر أن يقبل بالأمر الواقع وأن تتوقف الدراسة يوم الجمعة للصلاة وأن ينقلنا باص للصلاة، لأنه مسؤول عن سلامتنا.

في الوقت نفسه كانت الحركة الوطنية في مصر ضد الاستعمار الإنكليزي تشتد، وبدأنا نطالب بجلاء الاستعمار البريطاني وزادت المسائل تعقيدًا.

■ كيف كنت تتابع أخبار الحركة الوطنية والثوار وأنت في قلعة إنكليزية؟

كنت أشعر أنه واجب عليّ أن أقرأ الجرائد المصرية، كنت أذهب إلى بائع بجوار سور الكلية وأشتري منه الجرائد خلسة أقرأها لأنه كان ممنوع علينا قراءة الجرائد المصرية.

فجأة بدأ جميع المدرّسين يعاملونني ببرود شديد، وكأنها مقاطعة، كانت سياسة قاسية جدًّا لطفل، ونجحوا لأنني تعبت نفسيًّا وقررت أن أنتقل إلى فرع المعادي.

■ وكيف استقبلتك فيكتوريا المعادي؟

لما قدمت أوراقي في المعادي وافقوا وطلبوا أوراقي من الإسكندرية، وانتبه ناظر فيكتوريا الإسكندرية وكلمهم وقال لهم ستأخذون مصيبة فرفضوا بعد ذلك، حاول والدي وجاء لهم بتوصيات كثيرة ووعدهم بأنني لن أقوم بمشاكل.

■ وهل حقًّا توقفت عن المشاكل؟

لم أستطيع أن أقاوم وخرجت من المدرسة لصلاة الجمعة وحدثت مشاكل كثيرة، كان إليوت سميث، مدير فيكتوريا المعادي أقل حكمة من «باريت»، فكان عصبيًّا جدًّا ولكنه رضخ لطلبنا، وكنا في بداية الخمسينيات وحركات الفدائيين كانت عنيفة في مدن القنال، ونزلت في إجازة أسبوعية وطبعت مطبوعات في مطبعة بلدي في الدُّقي، وكان عمري 13 سنة، واتفقت مع مجموعة من الزملاء أن ننزل قبل الفجر ونلصق كل المنشورات في جميع فصول المدرسة. وكان أمر مذهل لهم. ولم يكن هناك دليل من فعل ذلك لكن كان معروفًا بالطبع.

▪ إذًا هل كانوا حقًا يقومون بعمل غسيل مخ للطلاب بحيث تتمّ نجلزتهم؟

لم يكن هناك غسيل مخ للطلاب، لم يكن في حسبانهم أنه سيكون هناك حركة معادية لهم، ولكنهم فجأة وجدوا ذلك أمامهم.

▪ كيف كانت العلاقة بينكم وبين المدرّسين الإنكليز؟

كنا في القسم الداخلي وكان المدرّسون حريصين على الترفيه عنا بعرض فيلم سينما كل أسبوع في المدرسة.

المعماري د. محمد عوض.. العين الساهرة على تراث الإسكندرية

هو أحد أبرز خريجي الكلية، وكان رئيسًا لجمعية خريجي كلية فيكتوريا، ونظم الاحتفال بمئوية الكلية العريقة في 2002 الذي كان أكبر احتفاليات الجمعية، وهو حاليًّا مدير مركز دراسات الإسكندرية وحضارة البحر المتوسط بمكتبة الإسكندرية، وهو أستاذ مرموق بكلية الهندسة في جامعة الإسكندرية، وقد منحه الرئيس الإيطالي، وسام نجمة التضامن الإيطالي برتبة فارس، لإسهاماته في مجال العمارة والحفاظ على التراث، وله متحف باسمه عن «تاريخ الإسكندرية» بمكتبة الإسكندرية، وهو عضو مجلس حماية المباني التراثية لليونسكو، ومجلس إدارة المتحف اليوناني الروماني، ورئيس لجنة إدارة التراث المعماري وحصر المباني التراثية بمحافظة الإسكندرية ومؤسس مركز الحفاظ على تراث الإسكندرية، وله

عدة مؤلفات باللغة الإنكليزية عن تاريخ الإسكندرية وتراثها الثقافي والمعماري.

■ إلى ماذا تعزي النجاح الذي حققته كلية فيكتوريا طوال 110 عامًا؟

يعزى نجاح تلك المؤسسة التعليمية للدقة والعناية التي تمّ بها اختيار أعضاء هيئة التدريس والمدراء ومجلس الأمناء.

■ كيف أصبحت طالبًا في كلية فيكتوريا، هل لأن والدك كان من قدامى الخريجين؟

بدايتي مع المدرسة كانت متميزة وغير عادية، فقد قدم لي والدي فيها طلبًا وعمري أربع سنوات، وقد قبلوني كاستثناء حيث كانوا يقبلون الأطفال في عمر أكبر، ولكنني قُبلت في هذا العمر لأن والدي كان من خريجيها وكان أول من أسس فكرة نادي خريجي كلية فيكتوريا أيام الحرب العالمية الثانية.

■ ولماذا حرص العديد من خريجي كلية فيكتوريا على إدخال أبنائهم وأحفادهم إليها؟

كانت هناك العديد من المدارس الجيدة ولكنها كلها كانت تقوم على فكرة الإرساليات الدينية، فجاءت كلية فيكتوريا لتكون أول مدرسة علمانية بمعنى أنها لا علاقة لها بالدين، فكانت حصة الدين اختيارية لمن يرغب، وكان هناك شيخ أزهري للدين، كانت المدرسة تركز على تعليم الثقافة الإنكليزية حتى أن المسرحيات التي كنا نقوم بتمثيلها في المدرسة تخصّ شكسبير وكلها لمؤلفين إنكليز آخرين.

■ **وماذا كان يميّزها دونًا عن باقي المدارس التي تعلم اللغة الإنكليزية في الإسكندرية؟**

في كلية فيكتوريا كان ممنوعًا أن نتحدث إلا باللغة الإنكليزية فلم نكن نتحدث أي لغة أخرى، لذا حتى الآن حينما نلتقي خارج المدرسة نتحدث مع بعض بالإنكليزية.

■ **إذا رجعت بذاكرتك لأيام الدراسة، ما هو الاسم الذي لا يزال متوهجًا فيها؟**

أتذكر جيدًا مستر ريد الذي كان الجميع يتكلمون عنه وعن صرامته وحزمه، وكان من أشهر مديري الكلية لأنه كان بقدم خشبية «طرف صناعي» فكانت خطواته تحدث صوتًا مسموعًا وكان الكل يهابه، فكانت أصوات خطواته تعني إنذارًا للجميع بالتزام الصمت والسلوك الحسن.

■ **كيف كانت تبدأ حياتكم في كلية فيكتوريا؟**

كان بمجرد دخولنا للمدرسة لا بدّ من الانضمام لأسرة وفقًا لنظام «House system» وتلك الأسرة تضمّ طلابًا من مختلف المراحل الدراسية، ونستمر بها حتى تخرجنا من المدرسة، وتلك الطريقة كانت تشجعنا وتقوي لدينا روح المنافسة، كذلك كنا نستفيد ممن هم أكبر منا سنًّا وبذلك كانت كل المدرسة مترابطة مع بعض. وكانت تلك الأسر تتنافس معًا في كل المجالات، وكانت هناك جائزة لأفضل أسرة متميزة، وكانت الأسرة التي يحرز أفرادها تقدمًا كبيرًا في مختلف المجالات تحوز على الكأس الكبيرة وتحتفظ به. وهكذا نشأنا

معًا وتكوّنت علاقات قوية بين طلاب كلية فيكتوريا القادمين من مختلف أنحاء العالم.

■ هل لك ذكريات مميزة عن اليوم الرياضي؟

كان اليوم الرياضي بالمدرسة تتكلم عنه كل الإسكندرية وكان يحضره كبار الشخصيات الهامة ومنهم طه حسين ورئيس الوزراء والأمير عمر طوسون، وكانت ملاعب بأكملها تفرش بطاولات الشاي والبسكويت والمخبوزات. كان حدثًا يهزّ الإسكندرية فعلًا.

كانت هناك مباريات كرة قدم مع المدارس المختلفة في الإسكندرية وبالطبع مع كلية فيكتوريا القاهرة، فكنّا دائمًا ما نتحمس ونتنافس من سيكسب «القاهريون» أم «الإسكندريون».

■ والدك كان شاهدًا على حقبة هامة من تاريخ كلية فيكتوريا وأنت كذلك، فهل كان هناك تمييز من أي نوع بين الطلاب الإنكليز وباقي الجنسيات الأخرى؟

كانت المعاملة بين الطلاب عادية وكانت معاملة الملوك والأمراء مثل الطلبة العاديين ولم نكن نشعر بفرق، حتى أن مدير المدرسة حينما كنت طالبًا فيها كان ابنه معنا ولم نكن نشعر بأي تمييز، وكان ابنه مقيمًا معه في المدرسة.

■ هل عاصرت حقبة متميزة من عمر كلية فيكتوريا ؟

شهدت أهم تغيير طرأ على كلية فيكتوريا بعد تأميمها ،

وشهدت تطبيق نظام الثانوية العامة المصرية وكنت ضمن أول دفعة خريجين يطبق عليهم النظام وذلك عام 1968.

■ هل كانت كلية فيكتوريا قاصرة على أبناء الطبقة الأرستقراطية والنبلاء؟

في الفترة التي كنت فيها طالبًا في كلية فيكتوريا وهي حقبة الستينيات، حقيقة لم تكن كلية للعظماء والمشاهير فقط وإنما كان هناك أيضًا أبناء الطبقة المتوسطة وأبناء الموظفين الحكوميين وكان هناك طلاب متعسرين في دفع مصروفات المدرسة.

■ حدثنا عن اهتمام الكلية بتنمية المهارات والأنشطة التي كانت متاحة لكم؟

كان لدينا أنشطة كثيرة ومتعددة وحتى الآن أستعجب لهذا الكم، فقد كان لدينا أنشطة غاية في الغرابة!! كنت أمارس الرسم وأعزف على الأوكورديون، وكان صديقنا أحمد البدري مهتمًا بتصنيع الطائرات الورقية ونتجمع كلنا لنشاهده وهو يطيّرها في فناء المدرسة، وظلت تلك الهواية معه حتى صار متخصصًا في الطائرات وكل ما يتعلق بالطيران، وكان هناك طلاب مهتمين بالمناحل وتربة النحل، وآخرون مهتمين بالزراعة، وآخرين بدودة القز حتى أن الكثير منهم اهتم بالنسيج والحرير وأصبح يدير أعمالًا ومصانع للنسيج، وكانت هناك ورشة كبيرة للنجارة، وتعلمنا فيها كيفية صناعة مشغولات خشبية وتنظيفها بعد الانتهاء من تشكليها، وكل ذلك على أيدي متخصصين.

■ **هل كانت حياتك ستختلف إذا لم تكن من خريجي كلية فيكتوريا؟**

كانت المدرسة لها دور كبير في حياتي خاصة فقد شكّلت ثقافتنا ووسعت مداركنا واستطاعت المدرسة أن تجعلنا نتعلم كل شيء حتى العمل بأيدينا، وتعلمنا الالتزام والانضباط في كل شيء وربما هذا هو سرّ نجاحنا.

■ **جمعتك صداقات عديدة مع مشاهير من أنحاء العالم كانوا زملاء دراسة، فهل كان لديك صداقة متميزة مع أحدهم؟**

طبعًا من أعزّ أصدقائي السفير طاهر خليفة، وأسرته بالكامل كانوا زملاء دراسة وكان هو ضمن أسرتي المدرسية وبعد أن تخرّج سافر وعمل بالسلك الدبلوماسي وكان سفير مصر في روسيا، ليمرّ الزمن وأفاجأ أنني أعمل معه في مكتبة الإسكندرية، وكان يشغل منصب رئيس قطاع العلاقات الخارجية، وكان دائمًا ما يقول لي: «أنت لسه كنت امبارح بشورت».

■ **هل تعتقد أن أسطورة كلية فيكتوريا يمكن أن تتكرر مرة أخرى، سواء في مصر أو في أي دولة عربية؟**

أسطورة كلية فيكتوريا لن تتكرر نظرًا لوضع مصر الحالي، ففي الماضي كانت مصر في عصر النهضة والتنوير، وكانت جميع الدول العربية تنظر إليها باعتبارها البلد التي أنجبت الشعراء والفنانين في مختلف المجالات، حاليًا جميع الدول العربية ترسل أبناءها إلى الخارج للتعلم في بريطانيا فليست في حاجة لمدرسة ككلية فيكتوريا.

■ هل ما زال هناك أنشطة لجمعية خريجي كلية فيكتوريا؟

بالنسبة لأنشطة الجمعية حاليًا لا توجد أنشطة فعلية ولكن كلها لقاءات وتجمعات تجمعنا معًا، نلتقي نلعب كرة القدم والكريكيت، وكانت لقاءاتنا مع بعض تتضمن لقاءات مع مدارس EGC و Sacred heart للفتيات، لأنهم يحملون الثقافة ذاتها وهي أيضًا مدارس عريقة.

■ بحكم رئاستك لجمعية الخريجين لحقبة طويلة، وما يلحق بها من تنظيم اللقاءات وإرسال الدعوات وغيرها، فمن هم أشهر الخريجين الذين كنت على تواصل دائم معهم؟

التقيت بالفنانين عمر الشريف ويوسف شاهين وسمير صبري كثيرًا، وكانت هناك مراسلات بيني وبين ملك بلغاريا، وبين الملك حسين.

■ هل تعتبر أن احتفالية القرن التي أعددت لها عام 2002 أهم إنجازاتك؟

بالطبع فقد جمعنا كل ما يخصّ المدرسة منذ نشأتها وأصدرنا كتاب «Victoria College: history revealed» وطبعنا عددًا تذكاريًا من مجلة «ذا فيكتوريان» وحضر إلى الإسكندرية حوالي 300 من الخريجين القدامى من مختلف أنحاء العالم، وحضرها المخرج الكبير يوسف شاهين وألقى كلمة في الاحتفال الذي أُقيم في مكتبة الإسكندرية، كل هذا في الفترة التي توليت فيها الجمعية. وقد تركتها نظرًا لانشغالي بأمور أخرى.

ميشيل ماركو.. الطالب المشرف على الملك حسين

مسيو ميشيل ماركو «80 سنة» الشاهد على حقبة تاريخية هامة من تاريخ الإسكندرية وتاريخ كلية فيكتوريا وهو الوحيد من الطلاب الذين حضروا كلية فيكتوريا أثناء سان ستيفانو ولا زال على قيد الحياة ويتمتع بذاكرة حديدية، وهو رجل يشعّ شبابًا رغم أن عمره 80 عامًا لكن روحه شابة، وهو من أسرة أرستقراطية يونانية توطنت الإسكندرية عام 1730 لكنه يحمل الجنسية الفرنسية والمصرية وهو رجل أعمال مرموق، وأقدم أعضاء الروتاري في مصر. وكان نائب رئيس جمعية خريجي كلية فيكتوريا الإسكندرية OVA لسنوات، عاصر مشاهير الفيكتوريين وله علاقات ممتدة معهم حول العالم.. باختصار هو كنز مليء بأسرار وحكايات عن الإسكندرية الكوزموبوليتانية التي نعيش على ذكراها حتى الآن. في حواري معه وبلكنته العربية المكسرة والممزوجة باللغتين الفرنسية والإنكليزية، أخذني في رحلة إلى إسكندرية الثلاثينيات حينما كانت الكلية في أوجها..

▪ حدثنا عن كلية فيكتوريا ومجتمع الإسكندرية في تلك الحقبة التي يبدو أننا ودعناها إلى الأبد؟

«لإسكندرية كان فيها الكثير من الجنسيات وكان السبب أن بورصة الإسكندرية كانت عظيمة جدًا، وأتذكر أندريه فيلوس كان سمسارًا يهوديًا وعنده خط مفتوح على القاهرة وعلى العالم للشراء والبيع، فحتى التأميم كانت بورصة الإسكندرية رابع

بورصة في العالم. الآن أصبحنا من الدول النامية!!! كل رجال الأعمال من ذوي الخبرة هاجروا وتركوا مصر ومنهم عائلات زيلخا التي تملك الآن سلسلة متاجر «مذر كير» العالمية، وغيرهم. وحينما تزوجت سنة 1953 وزوجتي أصلها شامي طلبت مني أن يكون شهر العسل في بيروت، وللأسف دمنهور سنة 53 كانت أعظم من بيروت كانت حقيرة بالنسبة لها لم يكن بها شارع مرصوف، نحن تراجعنا كثيرًا.. كل شيء تغيّر بعد ثورة 1952. العزبة التي اشتراها جدي عام 1830 ويطلق عليها حتى الآن «عزبة ماركو» في بني سويف تمّ تأميمها وتقسيمها إلى تسع عزب الآن، كان نصفها مسلمين والنصف الآخر مسيحيين، والتي حدثت بها عام 2012 أحداث فتنة طائفية لم يكن يعلم أي منهم مَنِ المسلم ومَنِ المسيحي.

أما بداية التحاقي بكلية فيكتوريا أذكر جيدًا أنه تمّ إدخالي في فصول فندق سان ستيفانو، وكانت كلية فيكتوريا قد انشطرت أيام الحرب إلى جزأين، جزء في سان ستيفانو وجزء في السيوف، وأتذكر في سنة 42 كنا نرى برنس محمد علي يتنزه على الكورنيش يوميًا فترة العصارى، وللحق كان غاية في الأناقة وكان طويلًا متزوجًا من فرنسية، ولم ينجب، وكان محترمًا جدًّا وغاية في التواضع يرحب بنا ونحن صغار ويتسامر معنا هكذا كانت حياتنا في الإسكندرية وفي فيكتوريا.

■ **هل كان الاهتمام بتاريخ وأخبار إنكلترا مفروضًا عليكم؟**

أذكر أننا أول ما انضممنا لكلية فيكتوريا حدثونا عن الحرب العالمية الأولى وعن «البوبي داي» لجمع تبرعات لصالح ضحايا وجرحى الحرب، وظلوا يجمعون أموالًا منذ عام 1919 وحتى يومنا هذا، وفي الحرب العالمية الثانية جمعت منا الكلية أموالًا لأجل ذلك أيضًا!.

المدير الذي أحرج الملك فاروق!

■ هل لك أن تطلعنا عن مواقف وحكايات يجب ألا نغفلها ونحن نوثق لتاريخ تلك الكلية؟

هناك واقعة حدثت أثناء وجود أخي «روبير» كمدرس في كلية فيكتوريا «بعد أن حصل على ماجستير في الزراعة من فرنسا، كان مدير المدرسة مستر بارك هاوس وقال لي إنه أحرج من أنه يقول له إنه «Old Victorian» بسبب ما شهده من تدهور في أحوال الكلية، فالحشيش في ملعب كرة القدم كان طوله مترين. وكانت تلك الواقعة التي تعكس تدهور حال المدرسة قد حدثت في الستينيات، بطلها أستاذ أرمني وكان هناك طالب والده لواء في البحرية، ضربه المدرس على يديه، فاشتكى لوالده الذي كان ضابطًا كبيرًا في البحرية، وفي اليوم التالي أرسل مع ابنه خمسة أفراد هجموا على المدرّس وضربوه وأصبح وجهه كله مخضبًا بالدماء. حدثت تلك الواقعة في عهد مدير المدرسة أستاذ قريش الذي كان نصفه سوداني ونصفه سعودي، وذهب ليقدم بلاغًا في النيابة، كان حمدي عاشور محافظ الإسكندرية، ولكن تدخل وكيل وزارة التعليم وتدخل

حمدي عاشور في أن يتراجع المدير عن البلاغ، وأجبروا المدرس الأرمني على التنازل، وتمّ نقل أخي لأنه شهد مع المدرس الأرمني فتمّ نقلهما إلى المدارس الأرمنية، أما الأستاذ قريش فتمّت إحالته على المعاش.

■ **ولكن لم يكن هذا حال فيكتوريا التي عايشتموها؟**

لكن في أيام ما كنت طالبًا كان حدوث مثل تلك الواقعة ضربًا من الخيال، وإليك واقعة تروي لك كيف كانت كلية فيكتوريا وكيف كان يتمّ عقاب الطالب المخطىء أيًا من كان.. حكاية طارق حسنين بن حسنين باشا رئيس الديوان الملكي الذي درس في كلية فيكتوريا (1938 ـ 1945)، حكاها لي أخي، وكان ابن حسنين في القسم الداخلي وقد فعل شيئًا يستحق العقاب، فكان عقابه أنه لن يخرج في «الويك آند» إجازة نهاية الأسبوع، وأرسل الناظر لوالده حسنين باشا يخطره بأن طارق لن يذهب إلى المنزل هذا الأسبوع، وفوجئ حسنين باشا بابنه بعد انتهاء خدمته في الديوان ووجد طارق في المنزل في القاهرة وكانت الساعة 11 ليلًا، فقال له بتعمل إيه هنا ؟ بكره الصبح أول قطار تاخده وترجع المدرسة. في كلية فيكتوريا كان هناك مرور مسائي ليلًا «رول كول» للتأكد من وجود كل طالب في سريره، وتمّ المرور في الساعة الثامنة وقت العشاء وطارق كان غائبًا، وفي الصباح «رول كول» وطارق كان موجودًا، ولكن تمّ تسجيله غياب ليلة السبت. وعلم مستر ريد بالواقعة فأرسل في طلبه وقال له «إنت مطرود» وأعطاه خطابًا بذلك، وأرسل خطابًا آخر إلى والده حسنين باشا يخطره بأن

ابنه لم يعد له مكان في كلية فيكتوريا عن طريق البريد. ذهب حسنين باشا ليلتقي بمستر ريد بمفرده، قال له ريد بدون تردد: ابنك مرفوض مرفوض مرفوض.. لأنه خرج عن النظام.

بعدها لاحظ الملك فاروق أن حسنين باشا حزين ومكتئب، فسأله ما بك يا حسنين؟ فحكى له حكاية طارق. فإذا بالملك يطلب إليه الاتصال بمستر ريد ليأمره بإعادة طارق إلى الكلية فورًا، وإذا بمستر ريد يرد بكل ثقة على الملك:
«SORRY YOUR MAGESTY I CAN NOT TAKE HIM BACK»
«أعتذر لجلالتك لكنني لن أعيده للمدرسة».

أثار ريد حنق الملك فاروق وجلس ليفكر مع حسنين باشا في الحل لإجبار ريد على إعادة طارق إلى الكلية بأي ثمن.. وتوصلوا إلى أن الحل الوحيد هو الاتصال بالسفير البريطاني ليجبر مستر ريد على العدول عن قراره، وكان وقتها المندوب السامي البريطاني أهم شخصية في مصر يمشي في موكب بسيارته الرولز رويس وأمامه موتوسيكل «تشريفه خاصة».

كان وقتها هو السير لامبسون والذي أصبح اللورد كيلرن فيما بعد، وبالفعل اتصل بمستر ريد وطلب منه أن يخلصه تلك الورطة، وقال له ريد: بشرط واحد سأخذه كطالب يومي «Dayboy» ولن يعود كطالب في القسم الداخلي.

■ **كيف كان الزي المدرسي المميز لطلاب كلية فيكتوريا؟**

كان عندنا «Uniform» زيّ موحّد، وكان من أهم القواعد الصارمة في الكلية الالتزام به، وكان أزرق غامقًا

وفاتحًا، يمثّل الزيّ خليطًا من ملابس أوكسفورد وكامبريدج. وكان غاية في الأناقة وكنا نشتري الزي من محلات «ديزبرج» في ميدان محمد علي بالمنشية وكان يهودي وكان ابنه معي في الفصل ولكنهم غادروا مصر فيما بعد.

■ في رأيك، ما هي أهم القيم التي تعلمها الفيكتوريون القدامى؟

كان أهم ما نتعلمه في كلية فيكتوريا هو «قوة الملاحظة» فالنبتة إذا فسدت ولم نلحظها سيفسد كل المحصول، ومن ثَمَّ التعبير عن الرأي دون خوف، والنقد والاستماع للرأي الآخر بكل احترام.

عقوبة التدخين الفصل النهائي من فيكتوريا

■ يعتقد الكثيرون أن تلك الكلية التي تجمع أبناء العائلات المرموقة لم تكن تعاقب طلابها، أو أن طلابها فوق العقاب فهل كان العقاب رادعًا حقًّا؟

بكل تأكيد.. كان العقاب يمنع الشخص والآخرين من تكرار الخطأ.. وأذكر مرة من المرات جمعوا المدرسة كلها في المسرح، وكان طالب من الثانوي ضبطه مدرس يدخن سيجارة في الترام، فتركه وقال للناظر، ورغم أنه لم يكن يرتدي زي المدرسة لكن قالوا لنا أي واحد سيتمّ ضبطه يدخن سيجارة داخل أو خارج المدرسة سيطرد فورًا، فلم يجرؤ أحد منا أن يدخن سيجارة فيما بعد.

■ **هل كان هناك أنواع صارمة من العقاب؟**

كان هناك عصا، ولو لم تكن تقوم بواجباتك تأخذ RED BOOK، وتظل كذلك لمدة شهر يدوّن فيه «الملاحظات والواجبات» كتقييم، إذا لم يتحسن مستواك فيصبح الكتاب Black book ولو تضمن هذا الكتاب الأسود ملاحظات سيئة كان العقاب ثلاث خيزرانات. وكانت هناك أنواع عديدة من العقوبات تختلف باختلاف الموقف أو السلوك الذي قام به الطالب.

ساعة مسيو دومون وجرس المدرسة

■ **في تلك الأجواء الصارمة ؛ هل كانت هناك مواقف طريفة أثناء وجودك بالكلية؟**

مستر دومون أستاذ اللغة الفرنسية لكن أصله سويسري، وكان يدرّس الفرنسية الرفيعة منذ افتتاح كلية فيكتوريا عام 1902 وحتى وفاته. أما مستر موزوريس كان يعطي فرنساوي ولكن ليس بالمستوى نفسه، وقد لمحت مسيو دومون في سويسرا وأنا في شهر العسل كنت أنظر من شرفة الفندق وإذا به أمامي على المسبح، وكان قد أنهى سني خدمته من سنوات وترك الإسكندرية فهرعت وتركت زوجتي لكي ألحق به لكني لم أجده.

الطريف أنه كان يمتلك ساعة كرونو ميتر «ساعة جيب» توضع في «الجيليه» صديري البزة، هاند ميد تقدم أو تأخر 11 ثانية في السنة، وكان الفراش الذي يضرب جرس المدرسة عنده ساعة «موفادو» بكاتينه وهي ماركة باهظة الثمن جدًا، لكنه

كان يظبط ساعته الباهظة يوميًا على ساعة مستر دومون لدرجة أنني ذات مرة تأخرت وكانت حصة دومو من الساعة 8 إلى 9 صباحًا، وكان يحسب التأخير بدقة فمثلًا يقول لك أنت تأخرت 2 دقيقة و37 ثانية. وبعدها طلبني مستر رييد وقال لي أنت تأخرت، فقلت له لم أتأخر فقال لي إن دومون كتب ملاحظة عليك وتأخرت 2 دقيقة و37 ثانية، وهو أمر غير مقبول إطلاقًا وإذا تكرر ستعاقب، فعليك تقدير الوقت ماركو «ومن حينها لم أتأخر ثانية واحدة عن أي موعد».

أحمد رمزي.. أم أحمد بيومي ؟!

■ **هل كنت حقًا تشارك أحمد رمزي مقعد الدراسة نفسه؟**

نعم لن أنسى أبدًا أن لي زميلًا كان يلعب دور الفتى الشقي في السينما، وأذكر جيدًا أحمد رمزي لما جاء في الفصل وكنا في الابتدائي، جاء بملابس غير مطابقة للمدرسة وجلس بجانبي، وكان لطيفًا ومهذبًا جدًا على عكس أدوار السينما.. كان قمة في الأدب والأخلاق. لكننا افترقنا لأنني غادرت مصر وذهبت مع عائلتي إلى فرنسا وأقمنا هناك فترة طويلة. ولكن عدت إلى مصر بعد أن أنهيت دراستي الجامعية.. وحينما عدت التقيت مستر بارك هاوس وقد عاد لمصر هو أيضًا في الستينيات فأقام عندي، ولما سألته أين أقمت في القاهرة؟ قال لي عند أحمد رمزي، زميلك نجم السينما. قلت له: مين ده؟، فأخرج لي صورته وقال لي أهو، قلت له هذا أحمد بيومي، فقال لي لا وظللنا نتجادل فقد كان معروفًا لنا في المدرسة باسم أحمد بيومي.

■ ومتى تركت كلية فيكتوريا ولماذا هاجرت إلى فرنسا ؟

تركت المدرسة وعمري 15 سنة في المرحلة الإعدادية، بسبب ظروف عمل والدي ولكنه كان يرغب في العودة مرة ثانية لأن أملاكنا كلها هنا وكنا نملك «قصر البستان» الشهير في جليم، والذي كان الملك فؤاد استأجره من والدي لفترة ولم يرغب في إعادته، وكانت وقتها ظروف الحرب العالمية الثانية واضررنا للعودة إلى فرنسا، وحينما أراد والدي العودة إلى مصر لم يتمكن من مغادرة فرنسا لأنه يوناني، ثم استولى الملك فاروق على القصر وكتبت الصحف أن والدي يوناني شيوعي ومنع من دخول مصر وبذلك يسقط حقه في استعاده القصر، وبعدها تمّ الاستيلاء عليه من قبل ثورة 52 وقد باعه جمال عبد الناصر لأسرة الميرغني السودانية التي كان أبناؤها معنا في فيكتوريا، باع 26 ألف متر مربع، أي ستة فدادين بـ 5000 جنيه فقط... ورجعت مصر بعد أن أنهيت أنا وأخي تعليمنا الجامعي. وافتقدت الشقاوة في آخر سنوات الثانوي في كلية فيكتوريا وأتصور أنها كانت لتكون ذكريات جميلة ورائعة حزنت جدًّا لحرماني منها.

■ مقارنة بين التعليم في فرنسا والتعليم الإنكليزي الذي حصلت عليه في كلية فيكتوريا بالإسكندرية، أيهما أفضل؟

كانت كلية فيكتوريا أعظم مدرسة على الإطلاق ولا مقارنة بينها وبين المدرسة التي دخلتها في فرنسا، في فيكتوريا كان من حقك إذا لم تستوعبي الدرس أن يعيده لك المدرس بأكمله مرة أخرى على السبورة من دون مقابل، الكتب الدراسية

كلها كانت من إنكلترا، وعندي أطلس نادر جدًّا من أيام المدرسة به أماكن المستعمرات البريطانية وبها درجات الحرارة والرطوبة، وعدد السكان وأصولهم العرقية وغيرها من المعلومات، أما في فرنسا فلم يكن التعليم كذلك.

■ ما هي المميزات التي وفرها لك التعليم على الطريقة الإنكليزية؟

كانت كتب التاريخ الفرنسي بها مغالطات كثيرة، ويوم أن اكتشفت أخطاء كنت قد درستها في حصص التاريخ في فيكتوريا، ذهبت إلى المدرّس الفرنسي وقلت له إنني درست في مدراس إنكليزية، وأنتم تكتبون التاريخ بشكل خاطىء، لم يناقشني وأصرّ على أنني المخطىء. وبعد الحصة قال لي إنني على صواب ولكنه لا يستطيع أن يعارض ما جاء في الكتب الصادرة من وزارة التعليم. ولم أكن معتادًا على أن أخاف أو ألا أناقش ما أراه خطأ، هذا ما تعلمته في كلية فيكتوريا.

في فرنسا لم يكن هناك اهتمام بقيمة المسرح، ولا كان المعلمون مهندمين ومهتمين بهيئتهم ولا الطلاب. أما في دراسة العلوم في فيكتوريا فقد كان لدينا معامل مجهزة كالجامعات الإنكليزية، وكل منا مخصّص له جزء في المعمل خاص به، تعلمنا كيف نمسك بأنبوب الاختبار، والمكونات والتراكيب الكيميائية، وكنت الطالب الوحيد في فرنسا الذي يعرف كيف يستخدم أدوات المعمل. وكان في فرنسا جهل لدرجة أن كل ما

يعرفونه هو رمسيس الثاني عن مصر. وأتذكر جيدًا أننا كنا في أيلول/سبتمبر 1947، فقلت لهم تعداد الإسكندرية 800 ألف والمدينة الفرنسية التي كنت فيها 40 ألفًا. قلت للمعلمة التي كانت تجهل أن مصر متقدمة وتضاهي فرنسا بكثير «إسكندرية أكبر 20 مرة من هنا».

■ ماذا يمثل لك جرس كلية فيكتوريا العملاق؟

كنت أسكن في منطقة ثروت بحيّ الرمل بالإسكندرية «بالقرب من فندق سان ستيفانو» وكنا نسمع رنة الجرس على ذلك البعد، كنا نأخذها «خرامي»(*) سيرًا عبر الشوارع الضيقة حينما نسمع الـ «فيرست بيل» لنصل إلى الكلية قبل «السكند بيل». كانت المسافة حوالي 2 كيلو وحوالي 10 دقائق سيرًا.

عمر الشريف.. كاثوليكي وليس يهوديًا

■ تزاملت مع الملك حسين والصادق المهدي وأحمد رمزي، هل تتذكر مع من تزاملت من المشاهير؟

كان من أشهر من عرفتهم أثناء وجودي في فيكتوريا الإسكندرية ميشيل شلهوب «عمر الشريف» وكان طالبًا أنيقًا جدًّا وأصله من عائلة شامية كاثوليكية، وليس صحيحًا ما كان يُشاع عنه بأنه يهودي «This is not true» على الإطلاق ولما أسلم وتزوج فاتن حمامة طردت الكنيسة الكاثوليكية والده

(*) أي نتخذ الطرق الجانبية الضيقة.

ووالدته من الكنيسة وأتذكر تلك الواقعة جيدًا. وكان من أكثر الطلبة احترامًا وتفوقًا، لم يكن مشاغبًا أو شقيًا بل كان من الأوائل. وأعرف الصادق المهدي جيدًا وهو دمث الخلق وغاية في الاحترام والتواضع.

الطلاب يرفهون عن مصابي الحرب

■ حدثتنا عن ذكريات مميزة عن فترة الحرب العالمية الثانية وأطلعتنا عن تفاصيل حقبة هامة من التاريخ الشفاهي الخاص بتلك الفترة في كلية فيكتوريا أثناء وجودها في سان ستيفانو، فهل لديك المزيد حول مبنى كلية فيكتوريا في السيوف؟

أذكر جيدًا رحلات الذهاب والإياب من كلية فيكتوريا بسان ستيفانو إلى مباني السيوف، وكنا نذهب إلى هناك للعب كرة القدم وللقراءة والاطلاع في المكتبة التي غالبًا ما كان الجنود يطلعون على ما فيها أيضًا. كما كانت مسرحيات شكسبير تؤدى على المسرح «قاعة بيرلي» مثلما جرت العادة، وكان الجنود يحضرون تلك المسرحيات كنوع من الترفيه عنهم، بل وجاء إليهم الكثير من الفنانين من مختلف أنحاء العالم للترفيه عنهم ورفع الروح المعنوية لهم، لكني كنت حديث السن في تلك الفترة فلم أتمكن من معرفة المشاهير منهم».

ويضحك قائلًا: «حتى حمام السباحة الخاص بالمدرسة كنا أيضًا نذهب إلى السيوف لكي نتدرب فيه، وكان الجنود يجلسون حولنا يشاهدوننا، وكنت أستغرب جدًّا من منظر الجنود الهنود الذين كانوا يرتدون عمامات ثم إذا بهم ينزعونها

ويفردون شعورهم الطويلة التي تصل إلى آخر ظهورهم، كان هذا منظرًا شديد الغرابة بالنسبة لي، ولما سألت كيف يمكن أن يترك جندي شعره هكذا، علمت أنها إحدى الديانات التي تحرّم قص الشعر!».

عبد الفتاح طوقان (1961 ـ 1975)

كاتب ومهندس أردني شهير، له إسهامات في العديد من المشروعات الهندسية المدنية حول العالم، من أهمها: توسعة الحرم المكي، وإنشاء مطار تورنتو في كندا، وأبراج نايل تاورز، وأبراج دبي، ومطار شرم الشيخ الدولي، ومحطة كهرباء سيدي كرير، ومشروع جبل عمر بمكة، ومطار جاتويك في إنكلترا، وهو مقدم برامج في محطات تلفزيونية فضائية دولية ومنها قنوات:

MBC, Alarabia, Jordan, Palestine, WTN, Aljazerra Channels.

وعرف بعلاقاته المتشعبة مع كبار ومشاهير الخريجين مما أهّله ليكون حلقة الوصل بينهم.

■ **ما هو شعورك حينما وطأت قدماك أرض كلية فيكتوريا لأول مرة؟**

كان العام 1961 في نهايته، مدام نحاس مديرة الحضانة بكلية فيكتوريا، احتضنتني بعد أن تمّ قبولي في قسم الحضانة للمرحلة الثانية، فقد كانت أول سنة حضانة لي في معهد جيرار الفرنسي بالإسكندرية مع الراهبات وبعدها انتقلت إلى كلية فيكتوريا.

أول سيدة رأيتها بعد ذلك في عام 1963 كانت البريطانية «مسز جيلبرسون»، طويلة ضخمة، شعرها أشقر، وظيفتها مديرة القسم الابتدائي، وأجرت لي مقابلة بسيطة ورحّبت بي ثم قدمتني إلى مدرِّسة الصف الأول «مسز حسني» والتي اصطحبتني إلى حيث صفي لأعرف أين هو ومكاني في طابور الصباح، وكانت هي الأخرى بريطانية متزوجة من مصري تفتخر دومًا بأنها قريبة البطل المصري الشهيد جواد علي حسني الذي وُلد في 20 نيسان/أبريل 1935، والتحق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة في العام الدراسي 1952 ـ 1953، والتحق فور قبوله بها بالكتيبة العسكرية إبان العدوان الثلاثي على مصر، وكان أول المتطوعين بها، واستشهد على أيدي الجيش الفرنسي في عام 1956. كانت تلك أولى الكلمات التي سمعتها منها في الحصة الأولى للصف الأول الابتدائي وبداية حماسي ومشاعري.

في هذا اليوم من شهر آب/أغسطس وقبل بداية الدراسة توجهت مع مسؤولة القسم الداخلي «مسز محاسن» إلى قسم الملابس حيث تمّ أخذ مقاساتي لأجل الجاكيت الرمادي، بنطلون رمادي، عدد اثنان قميص أبيض، ثلاثة جوارب رمادية، ربطة عنق مخططة بالعرض لونها أزرق وأبيض، بلوفر رمادي وقبعة حفر عليها حرفي «V C» وهما مختصر كلمة «كلية فيكتوريا».

■ هل شعرت باختلاف شديد بين التعليم الفرنسي مع الراهبات وتعليم كلية فيكتوريا؟

كنت أنظر إلى الترتيب والتميز في تسليم كل طالب

ملابسه وأشيائه وكأننا في كلية عسكرية، وهو ما حدث معي لاحقًا عندما تشرفت بالالتحاق بسلاح الجو الملكي الأردني بناء على تنسيب من الأمير زيد بن شاكر قائد الجيش الأردني وخريج كلية فيكتوريا وصديق والدي وعمي. كنت أتجه بنظري إلى الجاكيت الزرقاء في كل مرة وفي كل عام أذهب إلى هذا المكان لأن الجاكيت الزرقاء كانت تمثّل الرجولة ومرحلة الإعدادية والثانوية. بعد ذلك توجهت إلى قسم آخر بجانب قسم تسليم الملابس لاستلام الكتب، وكان هناك كشف بالأسماء ورائحة الكتب القادمة من بريطانيا تشدّني إليها ولا أزال أذكر كيف كانت دفاتر التعليم تحمل اسم «كلية فيكتوريا» مصقولة الورق وغلافها بالألوان تعبيرًا عن كل مرحلة دراسية.

■ **كيف أثّر نظام التعليم الإنكليزي على مستقبلك المهني؟**

في فيكتوريا كانت تلك بدايات تعرفي على فصل الأشياء بنظرية الألوان وهو ما استخدمته لاحقًا في إدارة المشاريع مع الألمان حيث صنفت العمالة وألبستها ألوانًا تبعًا لنوعية عملها ومكانها، ثم طبقت التجربة في مشروع توسعة الحرمين مع شركة ابن لادن التي أدارها صديقي سالم بن لادن وهو أيضًا من خريجي كلية فيكتوريا ويكبرني سنًّا، وبعدها استلم إدارة الشركة أخوه بكر بن لادن وهو أيضًا خريج كلية فيكتوريا. اقترحت في توسعة الحرم المكي الثالث أن يتمّ الفصل بين عمال كل قسم بلون، وقمنا بشراء آلاف القمصان بحيث يتمّ إعطاء كل عامل قميصين، وتمّ اختيار ألوان من كلية فيكتوريا

وهي الرمادي والأزرق والأخضر والأحمر الغامق، واللونان الآخران كانا يمثلا أسرتي «بارك هاوس» و«جرين» في المدرسة. ولم أكتفِ بذلك بل طوّرت الألوان في مشروع «سكك حديد تورنتو» حيث قسمت خطوط المترو تحت الإنشاء وكانوا خمسة إلى خمسة ألوان حيث كل مشروع يحمل لونًا، الملفات والقمصان واليافطات وحتى لوحات الإشارة والمكاتب، وأيضًا كانت الألوان مستوحاة مما رأيته في مكتبه المدرسة واعتبرت من حينها صاحب فكرة «الإدارة بالألوان» والفضل يعود إلى كلية فيكتوريا.

مسرح كلية فيكتوريا يقف على أنفاق سرية للجنود!

■ ما هي ذكرياتك عن مسرح الكلية العتيق؟

لعل من أهم ما بهرني في حينها، ذلك المسرح الكبير، «البيرلي هول» وأعتقد أنه مستوحى من قاعة «ألبرت هول» في كنزنغتون في بريطانيا والتي تبرعت بها ملكة بريطانيا تخليدًا لاسم زوجها الذي توفي بالمرض. ندين لمسرح الكلية بزرع حبّ الثقافة والفن فينا فقد كنا نذهب إليه كل يوم أربعاء لمشاهدة أفلام سينمائية، وكان يستخدم في يوم عيد العلم، وحفلات الموسيقى والتمثيل المسرحي. مجرد الوقوف على المسرح كان يعني رهبة ورغبة لا يماثلها نجاح في أي بقعة من العالم، وأصبح فيما بعد موقعي ومكاني حيث كنت أقرظ الشعر في عيد العلم والخطابة والتحدث أمام حشد من أولياء أمور النابغة من الطلاب.

كان للمسرح طابق علوي وساحة كبيرة للحضور تتسع لأكثر من ألف شخص، وهو رقم كبير في ذلك الحين، وكانت به آلات عرض أفلام، 18 ملليميتر أكثر حداثة من تلك التي كانت في سينما مترو بالإسكندرية.

كان الأكثر إثارة ودهشة عندما عرفنا فيما بعد، عن مداخل سرية وأنفاق تحت الأرض من المسرح إلى مناطق أخرى بالمدرسة، حيث كانت كلية فيكتوريا تستخدم في الحرب العالمية الأولى والثانية مستشفى عسكريًا لقوات الحلفاء. أما الصناديق الخشبية الكبيرة فقد كانت ممتلئة بديكورات لمسرحيات شكسبير ومنها هاملت ويوليوس قيصر وتاجر البندقية. وكان المسرح مجهزًا بالإضاءة وعزل الصوت بحيث يكون مسرحًا عصريًا، ويكفي علمًا أن أرض المسرح كانت من الخشب الفاخر.

■ وما هي ذكرياتك عن حمام السباحة وقاعة الألعاب والمكتبة؟

كانت حصص الرياضة ذات أهمية كبرى، والملابس الرياضية أيضًا تتبع المرحلة والصف، بحيث كان كل طالب بملابسه الرياضية لا يقلّ عن أناقة وشكل «ميسي» لاعب الكرة الشهير، وكانت ملاعب الكرة بحجمها الكبير والدولي أربعة اغتصبت السلطة المصرية أحد ملاعبها في يوم حزين لتبني مدرسة يطلق عليها اسم «جمال عبد الناصر» انتقامًا من البريطانيين الذين أسّسوا مدرسة بريطانية لمنطقة الشرق الأوسط، وكان هنالك اثنا عشر ملعب تنس، وحمام سباحة

تبرع به «باسيلي» أحد الخريجين بطول خمسة وعشرين مترًا، وقاعة «جيمنازيوم» مكتملة وبها حبال طويلة، سلالم على الجوانب، حصان خشبي للجمباز، مراتب للجودو وغيرها مما يدفع بشغف لحبّ الرياضة والتفوق.

■ **هل تتذكر المدربين الإنكليز؟**

أذكر أن مدرس الرياضة كان الأستاذ «أرماوس» وهو يوناني قوي البنية، يشبه إلى حدّ كبير كلارك غايبل بطل فيلم «ذهب مع الريح»، ويتشارك معه في أن والده كان مالكًا لسينما لاجتيه في الإبراهيمية، وكان يسمح لنا دخول السينما في أيام تواجده بها مجانًا شريطة أن نشارك في حصص الرياضة. لقد كانت هنالك حرية في حصص الرياضة في السنوات العليا حيث بالإمكان أن يختار الطالب بين الرياضة أو الذهاب إلى المكتبة والتي كانت أيقونة بها أكثر من عشرة آلاف كتاب، وكلها من الأرض إلى السقف والخزائن من الخشب النادر، وتعتبر تحفة معمارية بحد ذاتها بما تحويه من كتب. ولقد أهديتها بعد تخرجي أكثر من مئة كتاب.

المباني النادرة

■ **بصفتك مهندسًا، كيف تقيّم مباني فيكتوريا العتيقة؟**

التصاميم المعمارية للمدرسة هي تحفة نادرة، الفصول ذات الزجاج والتي تسمح للمدير أن يتابع أي أستاذ في الحصص، وأن يشاهد الطلاب وتفاعلهم، والرخام المستخدم في جميع سلالم الكلية مستورد من إيطاليا وبه مساحات

مدروسة لحماية الطلاب أثناء صعود الدرج والنزول. أما أقسام الداخلي والحمامات والتي كانت كلها من نوعية «تايفورد» دليل على أن المدرسة لم تُبنَ من منطلق تجاري بل لأجل طبقة معينة من الطلاب على مستويات عالية من الفخامة.

مطعم الكلية ووليمة من الخراف لحفل التخرج

■ بما أنك كنت في القسم الداخلي، فبالتأكيد كانت لديك ذكريات مع أضخم صالة طعام؟

كانت الكلية مجهزة بمطعم لديه القدرة على تجهيز ثلاثة آلاف وجبة للإفطار والغذاء والعشاء. دروس «الإتيكيت» وكيفية استخدام الملاعق والشوك كانت يومية، وعلى كل طاولة خشبية كبيرة كان يجلس 12 طالبًا مع مدرِّسة، تقوم بتعليمهم كيفية تناول الأكل والشراب، لدرجة كيف يمكن تقشير البلح باستخدام السكين والشوكة فقط.

يوم الأربعاء كان مخصصًا للسمك، الثلاثاء كان معكرونة ولحم ستيك، الاثنين كان للدجاج، وكان وقت الطعام بعد الحصة الخامسة لمدة خمس وأربعين دقيقة. أذكر أن هنالك في المطعم طاولات خشبية جانبية لبضعة طلاب غير المنتظمين في حصص الطعام، وكان يوميًا يقوم السائق الخاص بعائلاتهم بإحضار طعامهم الخاص وشرابهم تحت متابعة من قسم المطعم.

عندما قاربت على التخرج من المدرسة، قامت عمتي يسرى طوقان، وهي مؤسسة الاتحاد النسائي في الأردن ورئيسة الهلال الأحمر، وكانت تجيد الطبخ، بعمل حفل غداء

لطلاب الثانوية حيث تمّ ذبح عشر خراف ووضعناهم في الأفران، ولقد تفاجأت برؤيتي للمرة الأولى أفران كبيرة تستوعب أكثر من خروف في مطبخ الكلية، وشاهدت أواني الطبخ الكبيرة التي تتسع رجلًا في داخلها ولم أرَ مثلها إلا في خلال خدمتي بالكلية العسكرية لاحقًا في سلاح الهندسة بالأردن أثناء إحدى دورات الضباط الجامعيين والمناورات مع الجيش الأميركي.

لقد تمّ تجهيز الكلية لخدمة ثلاثة آلاف طالب في آن واحد، وهو شيء غير متوافر في أكبر الفنادق حتى الآن. كانت رؤية المطابخ الخاصة بالمطاعم فيلمًا سينمائيًّا كما هو فيلم «أليس في مدينة العجائب».

■ **بعيون طالب أردني في كلية فيكتوريا، هل لنا أن نعرف ذكرياتك عن مجتمع الإسكندرية في تلك الحقبة؟**

كنا نسكن في فيلا «بوليتي» في حيّ السفارات بسابا باشا، وهو رجل أعمال وتاجر يهودي ثري عاش في مدينة الإسكندرية ودرس ابنه هنري بوليتي في فيكتوريا قبل أن يحدث التأميم ويطرد اليهود من مصر. والصدفة جمعتني مع هنري بوليتي خريج كلية فيكتوريا اليهودي الذي كانت وظيفته في جنيف إدارة الأموال العربية واستثمارها، ثم التقيته وشقيقته بعد معاهدة السلام عندما حضرا وطلبا مني أن يدخلوا إلى الفيلا التي نسكنها وكانت لهم، كان ذلك من المواقف الصعبة، حيث اجشهت أخته بالبكاء عندما رأت غرفتها والحديقة التي كانا يلعبان بها.

وبعد الزيارة، قال لي خريج كلية فيكتوريا «اليهودي» الأصل، أشكرك يا طوقان وكيف يمكن أن أردّ الجميل لك لسماحك لنا بالمكوث في المنزل أكثر من أربع ساعات بمفردنا نجول ونصول به ونتذكر به أيامنا الجميلة وطفولتنا؟ فأجبته أريد منك شيئًا واحدًا فقط وهو أن تساعدني في رؤية بيت عائلتي في فلسطين التي اغتصبوها وأن تسمح لي بزيارة مصنع الإسمنت في حيفا والذي امتلكه أبي، وقد كان، وزرت يافا وحيفا وناتانيا وشاهدت ممتلكات أسرتي التي تمّت مصادرتها وجزء منها أصبح أثريًا!!».

■ من كانوا أصدقاءك في سنوات الدراسة بالكلية، وأهم المواقف الطريفة التي جمعت بينكم؟

من أصدقائي في الكلية، حسن تمام الدين باشا رضا، وهو حفيد هدي شعراوي، وكنا دومًا نلعب معًا حيث كان يمتلك مجموعة سيارات صغيرة فرنسية الصنع ماركة «ماتش بوكس»، وهو يعيش في باريس حاليًا، ومعنا كان محمود إبراهيم ابن القنصل المصري في القدس وسفير مصر في يوغسلافيا إبراهيم محمود، والذي يعمل حاليًا أستاذ جراحة الصدرية في جامعة الإسكندرية. الطريف أن ثلاثتنا كنا نلعب معًا الكرة في حديقة بالقرب من منازلنا، وكانت تأتي للعب معنا فتاة لطيفة تقف حارس مرمى، أصبحت فيما بعد من أشهر فنانات مصر وممثليها وهي الفنانة شريهان خورشيد. وبالمناسبة فإن شقيقها المرحوم عمر خورشيد كان صديقي ودرس أيضًا في كلية فيكتوريا كما درس إلهامي خورشيد.

أيضًا من أصدقائي في الكلية ومعي في الصف عبد السلام حداية، وهو حاليًا أستاذ علوم الحاسوب ودرس في جامعة هارفارد الأميركية وعمل مع بيل غيتس في ترجمة وندوز إلى اللغة العربية، والطريف أنه في امتحان مادة الحساب في مدرسة الليسيه وكان امتحانًا صعبًا حاولت مساعدة أحد عباقرة مادة الحاسوب في العالم، في السؤال الرابع والخامس ونجح بتفوق.

أما الصديق الآخر، وكان ابن قائد القوات البحرية المصرية وهو خالد مرسي ومعه صالح السنوسي من ليبيا، فقد قاما بشراء «شطة» ووضعاها في قطع شوكولاته ووزعاها على بعض من الطلبة وطلبا مني أن أقدم واحدة إلى عبد السلام منديل، وبسبب ذلك طردنا من المدرسة لمدة يوم بسبب استخدام الشطة في الحلويات. اليوم عبد السلام منديل أستاذ جراحة الأنف والأذن في جامعة الإسكندرية. وفي أحد مشاريعي في الهند مؤخرًا وبعد أربعين عامًا وجدت شوكولاته تُباع في المحلات بها شطة، وفي مطار جنيف الدولي أيضًا شوكلاته بالشطة، أي إن خالد له براءة الاختراع!!!.

أيضًا من الطرائف أنني بناء على نصيحة من أحمد رمزي الممثل وخريج كلية فيكتوريا قمت بالتسلل إلى أعلى برج في المدرسة حيث الجرس، وكان معي صديقي الليبي فيصل بوغازيا الذي يعيش حاليًا في كاليفورنيا، والحمد لله لم يشاهدنا أحد وتمّت الزيارة للجرس بسلام ودون عقاب. ومن المغامرات التي لا تُنسى أيضًا أن فيصل بوغازيا قام يومًا بقيادة أتوبيس الكلية

بنفسه ونحن بداخله لمسافة بسيطة، ولم يقم السائق المرحوم «عباس» بالإبلاغ عنه. كانت تلك «الباصات» هدية من خريج الكلية رجل الأعمال السعودي عدنان خاشقجي.

■ **من هو المدرّس الذي لا يمكن أن تنساه وأثّر في شخصيتك؟**

شخصية الأستاذ تشارلز حمدي، وهو بريطاني درس في كلية فيكتوريا، ثم أكمل تعليمه في جامعة مانشستر البريطانية وتخصص في الهندسة الميكانيكية وعاد إلى المدرسة مدرّسًا إلى أن أصبح نائب مدير الكلية، ورئيس قسم العلوم، وهو أول من علّمني كيفية الطباعة على ماكينة الطباعة القديمة «الآلة الكاتبة». وتشارلز حمدي هو من طلب مني أن أقوم بالاتصال بخريجي الكلية لأجل عقد اجتماع لتأسيس جمعية خريجي كلية فيكتوريا والتي أصبحت من أعضاء مجلس إدارتها.

الحجرة السرية لمدير الكلية

■ **بماذا كان يحدثك مستر تشارلز حمدي عن فيكتوريا التي عايشها؟**

كانت حكاية الغرفة السرية وكانت أهم تجربة وهي أن مستر تشارلز سمح لي بالاطلاع على غرفة خاصة سرية في مكتب مدير الكلية بها بطاقات أسماء كل من درس في الكلية، ومن خلالها تمكنت من الوصول إلى بيت ومنزل كل خريج، فأرسلت لكل خريجي فيكتوريا رسائل ودعوات للحضور إلى مسرح «بيرلي هول» وكان أول مجلس منتخب، اخترنا فيه

الدكتور أدهم النقيب رئيسًا وتمّ انتخابي سكرتيرًا لمجلس الإدارة، والدكتور جواد حمادة رئيسًا فخريًا، وبعدها اقترحت أن يكون لكل من درس عامًا واحدًا في الكلية حق العضوية في نادي الخريجين، وبذلك أصبح الملك الحسين عضوًا ورئيسًا شرفيًا بسبب ذلك الاقتراح، وأبرقت للملك الحسين من خلال التلكس في فندق فلسطين بما حدث وأصبح الرئيس الشرفي للجمعية إلى أن توفاه الله.

▪ هل كانت الكلية حقًّا تعامل الجميع بالمثل ولم تكن هناك تفرقة بين الملوك والأمراء وبقية الطلبة؟

كانت المدرسة تعامل الجميع بالمثل، وعندما حضر الملك الحسين إلى المدرسة مع والده الملك طلال، والدته الملكة زين، وكان مرافق الملك طلال صبحي طوقان، والسفير الأردني في القاهرة فوزي الملقي، رفضت إدارة المدرسة دخول أي من الحقائب أو المسؤولين الرسميين إلى المدرسة ودخل الأب والأم باعتبارهما وليّ أمور الطالب، لم يسمح للملك بإدخال حقائب أو أي إضافات، بل تمامًا مثل أي طالب، ذهب إلى قسم الملابس نفسه وتمّ تسليمه سترة وبنطلون وقمصان بيضاء والكتب.

كانت المدرسة تضمّ الملك قسطنطين ملك اليونان، وملك ألبانيا ليكع زوغو، وسلطان زنزيبار، وملكة السويد، والأميرة شويكار، والشيخ علي الخليفة الصباح وزير النفط الكويتي فيما بعد، وعدنان الباجه جي وزير خارجية العراق لاحقًا ومرشح الرئاسة، وعدنان خاشقجي وعبد اللطيف

الجميل وجاسم الخرافي وعمر الشريف ويوسف شاهين وأحمد رمزي وأدهم النقيب والصادق المهدي وسمير صبري، لا فرق بين أحد. وأذكر أيضًا أن الأمير رعد الوريث الشرعي لحكم العراق، كان يعالج أسنانه عند طبيب المدرسة وينتظر الدور مثل غيره، لا فرق بينه وبين أي من الطلاب. فقد كان شعار المدرسة «كلنا ننتمي إلى عائلة واحدة».

▪ كيف يمكن للتعليم أن يخلق شخصيات قيادية تستطيع التأقلم في أي منصب عالمي؟

كلية فيكتوريا أسّست على مبدأ استخباراتي بريطاني، حيث كانت مهمة السفير البريطاني في كل دولة من دول الشرق الأوسط تتمثّل بعمل مسح كامل للعائلات الثرية والاقتصادية والسياسية ويقدّم الأسماء لوزارة الخارجية البريطانية والتي تقوم بدورها بنشر دعوة عن كلية فيكتوريا وامتيازاتها وأهميتها، خصوصًا في زمن لم يكن هنالك تعليم متميز إلا في مصر، وكانت الواجهة الأساسية لراغبي التعلم إما بيروت أو الإسكندرية. وبالتالي فإن نواة وأساسيات التفوق لتولي المناصب القيادية كانت متوافرة، بل هؤلاء القادمون إلى مصر استطاعوا أن ينقلوا عن مصر وينقلوا إليها. واليوم أكبر وأهم المشروعات في مصر هي نتاج هؤلاء الخريجين سواء كانوا من الكويت أو الإمارات أو الأردن أو السعودية، من الأردن مثلًا صناعة السينما وتجارة اللحوم «نصر زكريا الطاهر»، وشركة «أميركانا» ومنتجعات شرم والجونة ومطار مطروح وبرج العرب

للخرافي، مطار الغردقة وشركات الفور سيزون ومنتجعات مدينتي وغيرها لمجموعة ابن لادن، البنك العربي لعائلة شومان الأردنية، وكالات السيارات الفورد والشيفروليه للعائلة مقار ومنصور، جميعهم خريجو كلية فيكتوريا بالإسكندرية.

■ ماذا عن علاقتك بالملك حسين وذكرياتك معه ـ علاقتك بالفنان الراحل أحمد رمزي ـ وأيضًا أبرز وأشهر الخريجين من الملوك والأمراء.

علاقاتي العائلية مع الملك المرحوم خريج كلية فيكتوريا «الحسين» من خلال العائلة قبل أن يكون ملكًا، فقد قامت عائلتي بمبايعة جدّه الملك عبد الله ملكًا على الضفتين في مؤتمر أريحا، وتشرفت العائلة بأن اختار الملك عبد الله الأول والملك طلال والملك الحسين ومؤخرًا الملك عبد الله الثاني من عائلة طوقان رؤساء حكومات الأردن، ووزرائها. ثم ربطت العائلة بالملك الحسين من خلال المصاهرة حيث تزوج من ابنة عمي الملكة علياء طوقان والتي فيما بعد تزوجت ابنتها الأميرة هيا من الشيخ محمد بن راشد حاكم دبي.

وازدادت علاقاتي به من خلال كلية فيكتوريا، حيث لعبت دورًا في أن يكون رئيسًا شرفيًا وهو ما اعتبره تكريمًا له، حيث كان محبًا ومغرمًا بكلية فيكتوريا إلى أبعد الحدود، إلى الدرجة التي خاطب فيها الخريجين في أثناء حفل خاص في مدينة عمان قائلًا لهم: «إنني أجد نفسي كإنسان وليس ملكًا معكم، وهو شعور أتمناه دومًا وأحافظ عليه»، كان الملك الحسين متواضعًا وقريبًا لكل من عرفه، خصوصًا خارج إطار السلطة.

■ وهل شهدت حفل تأبين أسد الأردن الذي كان يومًا حزينًا على كلية فيكتوريا؟

كان لي دور هام في إقامة ترتيبات ومراسم العزاء في الأربعين من وفاته، في كلية فيكتوريا بالإسكندرية وبجهد مشكور من رئيس الجمعية آنذاك الدكتور المهندس محمد عوض، وحضر تلك المناسبة: من الأردن الأمير زيد بن شاكر ورئيس الوزراء زيد الرفاعي الذي هو خريج كلية فيكتوريا بالقاهرة، ووضعنا صورة الملك معًا في قاعة اجتماعات خريجي كلية فيكتوريا.

للتاريخ، أذكر أنني ذهبت بنفسي إلى المصور الخاص للملك الحسين والذي باعني صورة شخصية له، حملتها بنفسي إلى الإسكندرية، وتفاجأ بها الأمير زيد بن شاكر كما تفاجأ زيد الرفاعي وحملناها يدًا بيد ومعنا الصادق المهدي رئيس وزراء السودان، وكانت الصورة الرئيسة لجريدة الرأي الأردنية بمناسبة أربعين ملك الأردن، الملك المرحوم الحسين.

■ هل نستطيع القول إن خريجي فيكتوريا من قادة الشرق الأوسط لعبوا دورًا في مقدراته السياسية؟

لعبت كلية فيكتوريا الكثير من المواقف السياسية، حتى في أحلك أوقات الاختلاف بين الدول العربية، وأذكر هنا كيف أن منصور حسن مرشح رئاسة الجمهورية في مصر، وكان وزيرًا للثقافة والإعلام في مصر في زيارة سرية للأردن، خاطبني واستقبلته وتقابلت معه في فندق الماريوت في عمان بالأردن، في الطابق الرابع، ومعه كان مستشار رئيس الجمهورية «الدكتور

أسامة الباز»، ركب خريج فيكتوريا منصور حسن سيارتي، حتى لا يلفت الانتباه إلى وجوده في الأردن، واصطحبته حسب تعليمات الأمير زيد بن شاكر إلى منزل سفير الأردن «المفتي» واجتمع هنالك مع الملك الحسين، وفي اليوم التالي تناولنا الإفطار معًا بمفردنا في غرفته، والتقيت بالدكتور أسامة الباز بحضور القائم بالأعمال المصري والذي أصبح سفيرًا لمصر في عمان، وقمنا بوضع أسماء الأردنيين ممن سيتمّ دعوتهم إلى حفل السفارة المصرية بمناسبة عيد الثورة وعودة العلاقات المصرية. وعادت العلاقات بفضل جهد شخصي بين الخريجين.

الموقف الآخر، كان في الكويت، وكان المهندسون العرب والنقابات العربية قد قاطعت مصر بعد معاهدة السلام، وكان دوري هو إعادة مصر إلى النقابات العربية، وحضر كبيرنا وأستاذنا ومعلمنا في الهندسة «عثمان أحمد عثمان»، وتمّ ترتيب لقاء خاص في فندق مريديان الكويت، من خلال خريج كلية فيكتوريا إسماعيل عثمان، وبدأنا نعمل على ترتيب لقاءات خاصة منفردة بين نقباء المهندسين وعثمان أحمد عثمان، ولقد كان للأخ والصديق نقيب المهندسين الفلسطينيين مروان عبد الحميد دورًا مساعدًا كما كان لنقيب المهندسين بدر الرفاعي، إلا أن كلاهما ليسا من خريجي الكلية.

وما حدث في مصر أثناء عودتها إلى الجامعة العربية والنقابات المهنية، حدث أثناء غزو الكويت، حيث سافرت والتقيت الشيخ علي الصباح وزير النفط ومالك أكثر من جريدة كويتية، والمزيدي الذي كنا في منزله بحضور عدد من آل

الصباح الكرام ووزير الداخلية وتمّ الاتفاق على جسر جوي لنقل الأردنيين إلى مطار ماركا بتسهيلات من الأمن متوافرة على أرض مطار الكويت، ويعود الفضل في ذلك إلى الأمير زيد بن شاكر رحمه الله، وبشار التاجي الفاروقي الذي توفاه الله في مدينة أوتوا الكندية. كان يرأس شرطة طيران الملكية الأردنية آنذاك حسام أبو غزالة والذي عرض عليه الأمر دون الإشارة إلى تعليمات الأمير زيد بن شاكر.

خريجو مصر والإسكندرية

■ برأيك، لماذا كان التنافس والتناحر شديد بين خريجي فيكتوريا الإسكندرية والقاهرة؟

دومًا أؤمن بالوحدة والعمل الجماعي، ولا أؤمن بالتفرقة، ومنذ أن ساهمت في جمع الخريجين لينتخبوا مجلسهم ويؤسسوا جمعيتهم وأنا أرى أهمية تواجد الجميع يدًا واحدة، كانت هنالك معارضة شديدة من محمد عوض ورئيس مجلس الإدارة والذي كان منحازًا للإسكندرية، يوافقه الرأي وأكثر تشددًا منه الدكتور أدهم النقيب. كانت لقاءات تتمّ في كابينة خاصة في المعمورة، رقمها 410 من كبائن النصر تعود ملكيتها لوالدي، كان الحضور: حشمت محمود وإسماعيل عثمان، كانا من أكثر الداعمين لفكرة جمعية موحدة قوية تضمّ كل الخريجين، واستمرت اللقاءات لفترة إلى أن توصلت إلى صيغة تسمح بقبول أعضاء خريجي كلية فيكتوريا القاهرة على أن يتمّ منحهم مقعدين في مجلس

الإدارة، وألا يزيد العدد عن ذلك. وقمت بدوري فيما بعد بإقناع الدكتور أدهم النقيب والذي وافق بشروط، وأصبح إسماعيل عثمان أول خريج من القاهرة عضوًا بالمجلس. كنت أرى في إسماعيل عثمان واجهة للنهوض بالجمعية وقدرة على جمع الخريجين معًا ومهارات عالية في الإدارة والتميز، لذلك لم أتردد لحظة في حمل أفكاره إلى أن توج بنجاح في جمع خريجي كلية فيكتوريا بالإسكندرية.

ولقد عصفت الرياح في أحيان كثيرة بتلك الوحدة، إلى حدّ أننا اجتمعنا في حدائق المنتزه، في شاليه خاص بمنصور حسن، بحضور وزير النفط السعودي هشام الناظر والذي أصبح سفيرًا فيما بعد في القاهرة مع إسماعيل المهدي وآخرين، وطلبت في هذا اللقاء الودي الجميل أن يكون منصور حسن والذي عرف عنه الشهامة والأمانة والحكمة والتفاني في حبّ خدمة الآخرين أن يكون حكمًا يلمّ شمل الجميع.

■ حدثنا عن الحنين الـ «Nostalgia» الذي يجمعك مع قدامى الفيكتوريين حينما تلتقون في أي مكان في العالم؟

عندما نلتقي في أي مكان نشعر بأننا لا نزال في الزمن الجميل، حيث الأمانة والإخلاص والصدق والعمل لأجل التغيير للأفضل، نخلع أثواب الغربة نرتدي أثواب الأخوة والصداقة، كلنا معًا وكأننا لم نفترق منذ أربعين عامًا، وكأن بالأمس كانت حصة التاريخ أو اللغة الإنكليزية، نتحدث من القلب، نفهم ونعي ما يُقال ونتعلم ممن هم أكبر منا وأكثر

خبرة، لأننا في تلك المدرسة العريقة عرفنا أن هنالك «الكبير» وهنالك «الأصغر»، وتعلمنا احترام السن والخبرة والمعرفة.

■ برأيك، هل يمكن استعادة كلية فيكتوريا في هذا العصر؟

كلية فيكتوريا هي كلية العظماء والمشاهير في كل شيء، في السياسة والفن والعلم والهندسة والطب والسينما، هي السهل الممتنع، فقد حاول الكثيرون تقليد تلك الكلية العريقة، أنشأوا مدراس أفضل منها تجهيزًا، أفضل منها بناءً، أفضل منها في المختبرات، ولكنهم لم يقدروا أن يخرّجوا أجيالًا أفضل من تلك الأجيال، وأتحدث هنا عن كمّ من الأجيال وليس عن حالات منفردة، فقد تخرج من مدراس أخرى عباقرة ومشاهير ولكنهم كانوا فرادى بعكس ما حققته فيكتوريا في كافة المستويات لدرجة أنني التقيت في ميونيخ وزيرًا للعدل هو «فيرنر فيكسر» درس في فيكتوريا بالإسكندرية، وقابلت زوج المذيعة اللبنانية الشهيرة ليلينا والذي هو ابن خريج كلية فيكتوريا، وشاهدت بعيني شوارع في جدة تحمل أسماء خريجي كلية فيكتوريا مثل الشبكشي، وتناولت الغداء في «أبو ظبي» مع مرشح الرئاسة للعراق الباجي جي وفي أقصى بقاع الدنيا في تورنتو شاركت في جنازة طبيب يهودي هو أول من أتى إلى مصر ليفحص المومياء بواسطة أجهزة الحاسوب يُدعى توم لوينز وهو خريج كلية فيكتوريا أيضًا، رحمة الله عليه. لا يوجد مدرسة لديها هذا الكم من العباقرة، من الساسة، من الحكماء على مستوى العالم، إنها فقط كلية فيكتوريا.

الأستاذ أسامة جنيد.. ناظر الثانوي بالوراثة

كان من طلاب كلية فيكتوريا ووالده كان ناظرًا للثانوي من قبله وكان ناظرًا على الطالبين يوسف شاهين وعمر الشريف. وهو أحد نظار كلية فيكتوريا المحبوبين لدى الطلاب وأصبح هو المدير الحالي لكلية فيكتوريا.

■ ما الذي تعرفه عن كلية فيكتوريا من خلال حكايات والدك عنها؟

المدرسة في الأساس كانت من أجل الإنكليز، من أجل تنمية وتربية الملوك والأمراء العرب الذين لهم ولاء للتاج البريطاني. نظام تعليم مصري ولكن عبر الأسلوب البريطاني، وكانوا يهتمون بالنشاط الاجتماعي جدًّا، وبعد الثورة بدأ الاهتمام بالتعليم وإهمال الجوانب الاجتماعية.

■ هل هناك ذكرى مميزة لك في فيكتوريا كوليد سواء طالبًا أو ناظرًا؟

من الأيام التي لن أنساها يوم تأبين الملك حسين، حينما جاء الصادق المهدي وألقى خطابًا لا يُنسى. وكان يومًا حزينًا جدًّا جدًّا على كلية فيكتوريا.

■ ولكن برأيك، لماذا انحدر مستوى الكلية واختفى رونقها؟

هو حال جميع المؤسسات التعليمية في مصر وليس فيكتوريا فقط التي فقدت الكثير، لأن كل المدارس أهمل فيها الاهتمام بالرياضة وأصبح بعض المواد فقط تدرس

بالإنكليزية، حتى الجغرافيا والتاريخ، حاليًا الرياضيات والعلوم فقط بالإنكليزية. ولكن في الفترة الأخيرة استطاعت كلية فيكتوريا استعادة مجدها وتخرج منها طلاب أوائل على الجمهورية، ولدرجة أن كلية الهندسة تقريبًا فيها أقسام لخريجي كلية فيكتوريا.

■ ربما لأن الصرامة وقوانين الكلية تغيّرت بعد رحيل الإنكليز؟

بالتأكيد. كان نظام الكلية صارمًا جدًا وكانت لها قواعد ينفذها المعلم قبل الطالب، وأسمع من والدي أن طرق العقاب كانت متنوعة ورادعة على رأسها الطرد من الكلية، وكان ذلك عارًا كبيرًا يلحق بالطالب، وأظرفها أن كل من كان يتحدث العربية كان يدفع عن كل كلمة خمسة صاغ، وكان وقتها مبلغًا محترمًا.

■ ما هو أهم ما يميّز طلاب كلية فيكتوريا؟

لا بدّ أن يكون طالب فيكتوريا ذكيًا، وهم يتميزون بـ «شقاوة مؤدبة»، وأهم السمات هي أننا كالإخوة فإذا مرض أحد تجدينا كلنا عنده. واعتبر من الصفات التي يتميز بها الخريجون هي أن «الولاء» عالٍ جدًا سواء بين الطلاب وبعضهم أو بين المدرسين والطلاب، ورغم من أن كل شيء إنساني في المجتمع المصري يتجه للهاوية في النواحي الاجتماعية إلا أن أواصر الصلة بيننا لا تزال قوية. فقد كان لدي العديد من الأصدقاء من الطلاب السعوديين واللبنانيين

والليبيين وحينما أسافر أتقابل معهم ويكون لقاء حميميًا نتسامر ونضحك على ذكرياتنا معًا حتى الصباح.

■ **والدك تولى نظارة الثانوي في مرحلة تخرج من تحت يديه مبدعون وفنانون تركوا علامة في تاريخ مصر، فهل تصادف أن يعود منهم أحد باحثًا عنه أو عن ذكرياته في الكلية؟**

الفنان الكبير عمر الشريف كان تلميذ والدي، وجاء أكثر من مرة إلى الكلية وسأل عنه، ورغم أنه جاء وكان في أوج شهرته إلا أنه كان في غاية التواضع وكأنه طالب مرة أخرى، وفي جولة من جولاته وجد مقعدًا عليه اسمه وكان سعيدًا جدًا، وكذلك أحمد رمزي ويوسف شاهين، كان عندهم حنين للكلية ويكون المرح سمة الجولة التي يقومون بها. وأذكر جيدًا أنه كان هناك عامل توفاه الله كان محتفظًا بصورهم جميعًا وحينما زاروا الكلية ورأوا صورهم عنده فرحوا جدًا.

■ **هل عاصرت كمدرس أو كناظر أي من الطلاب الذين أصبحوا مشاهير فيما بعد؟**

أتذكر الفنانتين نرمين الفقي وعلا غانم كانتا طالبتين حتى المرحلة الإعدادية في كلية فيكتوريا ثم انتقلوا إلى مدارس خاصة بالبنات.

كذلك أذكر العديد من العائلات الكبيرة والأرستقراطية التي جاءت من أفريقيا ومنهم من نيجيريا ماي ديربي ودندواكي وشاكيما، ولكن لا أتذكر طلابًا من المراحل اللاحقة فقد ازداد

عدد الطلاب وتضاعف بعد أن كانوا أيام والدي حوالي 300 طالب فقط والآن آلاف.

د. إبراهيم الكرداني.. أشهر معلم إنكليرية لأجيال من المصريين

هو المتحدث الإعلامي للمكتب لمنظمة الصحة العالمية في الشرق الأوسط، وله جهود كبرى في مكافحة الأمراض المتوطنة في العالم العربي. وهو إعلامي ناجح وبارع قدم العديد من البرامج بداية من البرامج التعليمية حيث كان يقدم برامج تعليم اللغة الإنكليزية فتعلم منه أجيال عديدة على مدار العقود الثلاثة الماضية وحتى البرامج الترفيهية والإخبارية والمنوعات وأشهرها كان برنامج «صباح الخير يا مصر» والنشرة الإخبارية باللغة الإنكليزية. موهبته الفنية والإعلامية بزغت في أحضان كلية فيكتوريا. وهو طبيب نفسي لكنه آثر العمل في مجال الإعلام الذي عشقه من خلال الإذاعة المدرسية في كلية فيكتوريا.

■ كيف كانت قصة دخولك إلى كلية فيكتوريا، هل كان نزولًا عند رغبة والدك؟

كان والدي طبيبًا جرّاحًا في الإسكندرية وكان لي أخ واحد، وخمس أخوات بنات من والدتي وينتمون لعائلة فرغلي باشا. وكان المعتاد لدى العائلات العريقة في الإسكندرية أن متحدثي اللغة الفرنسية يفضلون التوجه إلى كلية سان مارك، ومتحدثي الإنكليزية فيكتوريا، وللبنات

EGC . ودخلت أنا وأخي كلية فيكتوريا، أما أخواتي البنات فقد دخلن مدارس فرنسية.

■ أحقًّا كانت كلية العظماء والمشاهير؟

بالطبع كنا نعلم أن أغلب الباشوات ورؤساء الوزارات المصرية وأبناء الحاشية الملكية خريجوها، وأذكر أن المصاريف كانت باهظة تشبه مصروفات الجامعة الأميركية، وكنا نمرّ بأزمات مالية في المنزل بسببها. لكننا بالطبع كنا نعلم أن الاستثمار في التعليم أمر هام جدًّا.

■ كيف كانت حياتكم في كلية فيكتوريا؟

حياتنا كلها كانت بالأجراس. الدخول بميعاد والفسحة بميعاد، أما حياتنا ما بعد اليوم الدراسي كانت ترتبط بذكريات الترام الزرقاء الذي ينتهي عند المدرسة بالظبط وكنا لما كبرنا نأخذه، وفيه طبقتان وبلكون وكنا نتشاجر للجلوس في البلكونة.

■ هل شعرت بالفرق حينما ترك الإنكليز مصر وتبدلت الإدارة الإنكليزية لمصرية؟

أتذكر كثيرًا الفترة الحرجة التي مرّت بها فيكتوريا سنة خروج الإنكليز والحالة التي وصلت إليها بعدها، أدين بدرجة كبيرة لطريقة التعليم الصارمة التي علمتني الالتزام في حياتي كلها وأن احترام المواعيد شيء مقدس. ولما تحولنا للإدارة المصرية كانت من أكثر المدرّسات المؤثرات في حياتي ميس راوية أباظة، وهي من عائلة الأباظية، وعملت بالفن لفترة، كانت تعلمنا الإنكليزية بطريقة جميلة جدًّا، كانت تأخذنا إلى

حديقة الكلية ونغني «que sera srea» تعلمنا بأسلوب ممزوج بالمرح والحرية. وفي الحقيقة مستر تشارلز حمدي لحق المدرسة واحتضنها فترة التغيير وظل رمزًا لنا طوال سنوات الدراسة، وكان هو يمثل بقايا الإدارة الإنكليزية وهو علامة من علامات المدرسة.

■ حدثنا عن المعلمين الذين أثروا في حياتك وأشهر المعلمين في كلية فيكتوريا؟

أذكر جيدًا ميس «دورا» كان تضربنا على أقدامنا، وكانت تمرّ علينا ميس «نوميس» لترى أظافرنا، والـ «Uniform»، ومن لم يرتد الزي المدرسي بالكامل كان مستر توفار ناظر الابتدائي «يجعله يطأطيء ويأخذ خيزرانات، وكنا نطلق عليها «He is going for the stick». مستر حنا كانت له طريقة تدريس صعبة في الرياضيات وكان يقول لي إن لي «عقلية الخروف» بطريقته المعتادة «you have the brain of the خروف»، وكنت أكره الرياضيات بسببه، ولكن أحببتها بعد ذلك على يد اليوناني مستر مايكل كوستنتنيديس، كان يدرس الرياضيات كان حنونًا وطيبًا فجعلني من المتفوقين في الرياضيات.

■ هل حضرت نظام «الهاوس سيستم» ومن كانوا زملاؤك في الأسرة التي انتميت إليها؟

عندما ابتدأ نظام «الهاوس سيستم» كنت في أحمس هاوس، وكان بيرلي قبل الثورة، وكان في نظام البيرفيكت، وكان وجود الطلاب من كل أنحاء العالم، فكان معي نيكولا

مفرج من لبنان، ووائل فتيح من السعودية، وعلي السنوسي ابن الملك السنوسي، ناصر الخرافي كان رئيس المدرسة وكنا صغيرين ولما كبرنا وجدناه مسؤولًا عن شركة «دلة» وبعد ذلك «أميركانا».. وكنا خليطًا جميلًا بعد ذلك سمعنا عن الوحدة العربية فاستغربنا لأننا كنا بالفعل وحدة عربية في المدرسة.

■ هل تتذكر أي من كبار الشخصيات أو المشاهير الذين زاروا كلية فيكتوريا أثناء وجودك بها؟

في مرة جاءت الفنانة الساحرة زبيدة ثروت والفنان يحيى شاهين وكانت فرحة العمر بالنسبة لي، لأني عاشق للفن من صغري وكانوا يلوحون إلينا وهو مشهد لن أنساه العمر كله.

■ كيف لعبت التنشئة والتربية في فيكتوريا دورًا في مشوارك العملي والمهني؟

كنت مسؤولًا عن الإذاعة وطابور الصباح وكنت أفكر في الفقرات وأنظم مسابقات وكانت المدرسة تترك لنا المسؤولية كاملة. وكنت أقوم بعمل مجلة حائط وكل أسبوع أغيّر الموضوعات وكانت أهمها عندما مات كينيدي. ومن ثم كبر بداخلي حب الإعلام والإذاعة وهكذا قدر لي أن أعمل بهما. وأصبحت الإذاعة المدرسية سببًا في جعلي رئيسًا للميديا في منظمة الصحة العالمية بكل أصنافها، الويب والنشرات الصحفية كما أدير ورش عمل تجمع جنسيات مختلفة ذات إيقاع سريع ومتجدد، وكل هذا يرجع لكلية فيكتوريا.

■ هل لك مواقف لا يمكن نسيانها مع الكلية؟

أثناء مرحلة الثانوية العامة صمّم والدي أن أدخل القسم العلمي، ووقف معي جميع المدرسين وظلوا يقولون له: «حرام عليك ده كل ميوله أدبية» ولكنه أصرّ، فقمت بدفع مصروفات المواد الأدبية من دون علمه وذاكرتها وامتحنت فيها مع مواد القسم العلمي فدخلت أدبي وعلمي وكان دافعي الخوف من الرسوب. ورغم ذلك دخلت كلية الطب، رغم أنني كنت الأول على الثانوية العامة الأدبي كنت الأول في مادة الاقتصاد، وتسلم أخي جائزة الأول على الثانوية العامة بدلًا مني لأنني كنت قد حصلت على منحة دراسية لأميركا وهو نظام تبادل طلابي. ورغم رفض أبي في البداية لكنه وافق، وسافرنا 25 طالبًا من فيكتوريا وكلهم في مراكز مرموقة جدًّا الآن.

▪ وهل شعرت بفارق بين أسلوب التعليم الإنكليزي والأميركي؟

بالفعل كانت نقلة كبرى، هذا إلى جانب طبيعة الحياة الاجتماعية الأميركية فقد عشت مع أسرة أميركية تعلمت منهم الكثير، وأول يوم استيقظت معهم طلبوا مني قصّ النجيلة، فرحبت ظنًّا مني بأنها أمر سهل، وجدت مهمة لا تنتهي وسألوني «هل تريد أن تأكل؟» ونظرًا لخجلي قلت إنني لست جائعًا حتى لا أثقل عليهم وتركوني من دون أكل حتى العشاء وكنت أتضور جوعًا، فكان الانخراط في عادات وتقاليد جديدة تمامًا، كل تلك الخبرات خلقت شخصيتي.

▪ هل كان سهلًا بعد تلك النقلات الثقافية التأقلم في الجامعات المصرية؟

كان التأقلم أصعب، وكانت النظرة إلينا أننا خريجون «كلية فيكتوريا» كطلاب مرفهين ومدلّلين، رغم أن ذلك أمر خاطىء تمامًا. وكان سبب تلك النظرة أننا كنا نجتاز الامتحانات باللغة الإنكليزية دونًا عن باقي الطلاب، كنا نجيد العربية تمامًا ولكن الإنكليزية كانت بالنسبة لنا لغة وثقافة.

■ هل قامت الكلية بنجلزة حياتكم على حساب اللغة العربية؟

على العكس، الإنكليزية لغة الكلية نعم، ولكن كان لدينا معلمون لغة عربية على أعلى مستوى، كما كان والدي يحرص على أن تساوي اللغة العربية اللغة الإنكليزية ويقول لي «إنت مصري أوعى الإنكليزي يتغلب عليك، ولكن تتكلموا مع بعض إنكليزي في البيت لأنه ممارسة.. العربي حتتعلموه حتتعلموه».

■ وهل كانت مدرسة المرفهين والمدللين الذين يمارسون الكريكيت والتنس ويزاملون الأمراء والملوك؟

إطلاقًا، بل كانت وكأنك في معسكر، وكان وسيلة الكلية عدة أنظمة منها «نظام البريفيكت» كنا حتى ونحن طلبة مع بعض نحافظ على النظام مع بعض، فكان من حقي كطالب بريفيكت على مجموعة من الطلاب أن أعاقب من يسير على النجيلة مثلًا بأن يكتب 100 جملة كواجب للغد. كانوا قاسين جدًّا والمعاملة تشبه معاملة الجيش، كنا نلعب تسلق الحبال وكنت أخاف جدًّا من مسألة التسلق وكان مستر «ناودي» يضربنا بالحبل إذا لم نتسلق.

■ **لعبة الكريكيت الإنكليزية، هل كنتم تميلون إليها باعتبارها تضفي رونقًا بريطانيًا خاصًا؟**

كنت اعتبرها لعبة غبية، وكنت أتضرّر جدًّا من لعبها خاصة وأن الكرة الخاصة بها خشبية قد تؤدي لضرر اللاعبين وإصابتهم إصابات خطيرة قد تودي بحياتهم.

■ **وماذا عن الكشافة؟**

الكشافة علمتني أشياء كثيرة جدًّا، وكان الكشافة الكبار يعلموننا كيف نعمل العقد، وتعلم الساعة، وكنا نسير حول الأشجار نتعلم أسماءها وكيف تتمّ زراعتها وهذا جعلني حاليًّا أشتري فدانين وأزرعهم، فكانت دروسًا ليست من الكتب بل من الحياة.

■ **وفقًا لنظام فيكتوريا كان لا بدّ أن تمارس رياضة ما على الأقل، فماذا كانت لعبتك الرياضية المفضلة؟**

لم أكن متفوقًا رياضيًّا، لكنني كنت أحب مرحلة التحضير للعبة الوثب العالي وكنا نمارسها يوم Sports day وكان احتفالًا كبيرًا جدًّا. ومن المواقف الطريفة التي أذكرها بخصوص الألعاب الرياضية؛ ذات مرة ماتش «بينغ بونغ» مع فريق قوي مع مدرسة أخرى، ووضعوني مع الفريق القوي للمدرسة الأخرى، باعتباري كبش فداء وحين أخسر يلعب زميلي البارع في البينغ بونغ، وإذا بالمفاجأة تحدث أن أكسب الماتش فكانت الفرحة عارمة في المدرسة باعتباره أمرًا غير متوقع وحملت على الأكتاف وطافوا بي المدرسة كلها، كان شعورًا

رائعًا بالنسبة لي من الصعب وصفه. وأيضًا في لعبة كرة القدم كان عندنا فرق الكرة ثلاث درجات وفقًا للمهارة «فيرست ايليفن وسكند ايليفن، وثيرد ايليفين».

■ ما الذي يمثله لك مسرح المدرسة «بيرلي هول»؟

المسرح كان عشقي، وكانت أجواء احترافية.. أذكر مستر «جون أباظة» وهو نصف إنكليزي من ناحية الأم، وكان يختارنا لعمل البروفات وكان في تنافس بيننا أنا وزميلي رؤوف بلبع، على الأدوار مثل كبار الفنانين. قدمت دور مارك أنتوني في يوليوس قيصر، وقمت بدور هلينيا في «ميد سمر نايت» لأنه لم يكن معنا فتيات في المدرسة، وقدمت دور «ماجدا» في ماكبث، وبعد التخرج عملنا فرقة مسرحية ضمتني أنا وصديقي رؤوف وشقيقته أميرة وأشرف شقيقه، وأختي لوثيار وشقيقي محمد، وأسميناها «كربال» من «كرداني بلبع»، وكانت الفرقة معروفة جدًّا في الإسكندرية، ومنذ فترة قابلت محمود قابيل وقال لي: «أنا لسه فاكر لما كنت أدفع 50 قرشًا علشان أتفرج عليك وأنت بتمثل».

وكنت أذهب لمسز خلف الله مديرة كلية النصر للبنات، وكانت هي التي تولت المدرسة بعد الإدارة الإنكليزية تمامًا مثل مستر تشارلز حمدي، وكانت صارمة جدًّا وشديدة وكنت أرتعب من الدخول إلى مكتبها لأطلب منها تأجير مسرح المدرسة. وقالت لي سأعطيك المسرح بدون مصاريف، وكنا نبيع التذكرة فقط بخمسين قرشًا لتغطية مصاريف الملابس.

وقدمنا مسرحية «قطة على نار» ولاقت إعجابًا كبيرًا، وقالت لي سيدة أميركية: أعجبت بالمسرحية جدًا وتعجبت من إخراجها بشكل غير خادش للحياء.

■ **هل ندمت على شيء ما أثناء وجودك في كلية فيكتوريا؟**

نعم، ندمت لأنني لم أتعلم النجارة وكلما حاولت أن أصلح شيئًا في البيت أندم ندمًا شديدًا. فقد كانت الكلية تتيح لنا تعلم كل شيء وأن نقوم بكل شيء بأيدينا.

■ **هل شعرتم كطلاب بتغيير جذري في مجتمعكم الطلابي بعد ثورة 1952؟**

أتذكر أن مرحلة ما بعد الثورة دخل الدين الإسلامي وكان المسيحيون يدخلون ليدرسوا اللاتينية، واليهود كانوا قد رحل معظمهم وأذكر من زملائنا اليهود: راشد شعشوع. وبدأنا نشعر بالحزن لأنهم كانوا زملاءنا وأصدقاءنا ولم نكن نفكر يومًا في ديانة بعضنا، كنا نعلم أننا في فيكتوريا لنتعلم فقط، كنا فعلًا كأننا أسرة واحدة.

■ **هل تذكر فترة التأميم وأثرها على كلية فيكتوريا؟**

التأميم.. «ربنا ما يعيد تلك الأيام» أذكره جيدًا لأنه أثّر على الكثير من أصدقائنا، كانت الأهرام تنشر صفحتين بهما أسماء الناس الذين أُممت أملاكهم، فمثلًا ملك القطن فرغلي باشا كان «عم أخواتي البنات»، وكان يسير بالرولز رويس وانتهى به الحال بسيارة «رمسيس» كان أمرًا صعبًا. ورغم كل ذلك رفض أن يهاجر ويترك مصر رغم علاقته العالمية، أذكر

جيدًا أثناء لقائي به في نادي سبورتنغ كان يقول لي «أوعى تسيب البلد ديه، ديه أحسن بلد في الدنيا، سيبك من اللي اتعمل فيا، دي مصر لازم تبقى واقف جنبها».

■ هل تعتقد أن ثقافتكم الإنكليزية جعلت من الصعوبة التأقلم على الأوضاع الثورية في مصر؟

على العكس لقد وظفنا ثقافتنا الإنكليزية في الدفاع عن وطننا وعن حقنا، فلم نكن سوى مصريين وطنيين لهم خلفية ثقافية منفتحة، وفي واقعة مهمة جدًّا تؤكد على ذلك ساهمت في تأسيس أول نادي روتر أكت في مصر، مع أحمد مسعود وإيهاب جزايرلي، وكتبت خطابًا لكل نوادي الروتر أكت في العالم بعد حرب 1973، حول حقنا في سيناء وهاجمت الاحتلال الإسرائيلي وكان ذلك مؤثرًا جدًّا وأثار غضبهم.

■ ماذا يمثّل لك أن تكون من «الأولد فيكتوريان» أو الخريجين القدامى؟

إنه أمر نفخر به كثيرًا ويعتبر وسامًا على صدورنا، وقد شرفت بأنني كنت أول من فكر في تأسيس جمعية للخريجين لتجميع الفيكتوريانز، وكان معي الدكتور أدهم النقيب، ود.عبد الفتاح طوقان من الأردن، وأرموند كحيل وهو أرمني مصري. ثم انسحبت وتمّ تجميع كثير من الطلاب القدامى حول العالم. وبعد ذلك تطور نشاط الجمعية وكان أحد الفيكتوريين القدامى أحمد النحاس مدير رمسيس هيلتون، يقيم اجتماعات «الأولد

فيكتوريانز» به وساهم في نجاحها. وأتمنى أن تعود الكلية لسابق عهدها ومجدها.

■ هل لا زالت لك علاقة بأعضاء أو أصدقاء من «الفيكتوريين القدامى»؟

أصدقاء الدراسة من فيكتوريا الوحيد الذي ما زال في مصر فيهم هو أنا!! لكن ما زلنا على اتصال وأنا على اتصال بناظم عبد الله، ووائل فتيح من المملكة العربية السعودية وغيرهم، وهناك تواصل وصداقة مع دفعات أكبر منا وأصدقاء أصدقائنا الفيكتوريين وهكذا، فهي شبكة علاقات لا تنتهي.. نتزاور مع بعض، وطبعًا أكون في قمة السعادة حينما يفاجئني كثير منهم بالاتصال أثناء برامجي الإذاعية. علي السنوسي كان طويلًا ونحيفًا وكل سنة يترجانا أن نذهب لقضاء فصل الصيف في ليبيا، وأنه سيقيم لنا خيمة كبيرة وأنه سيذبح الخراف، ثم انقطعت أخباره ولم نعرف عنه شيئًا.

■ هل تعرفت على الملك حسين رحمه الله عن قرب باعتباره أيقونة الفيكتوريين؟

حضرت حفل تأبين الملك حسين وكنا كلنا في حالة حزن شديد، وفي الحقيقة لم أكن قد قابلته عمري ولكن عبد الفتاح لطفي «زوج شقيقتي» كان زميله في الكلية ومقربًا منه كثيرًا، ولكن الغريب أنني كنت كلما زرت الأردن كنت أشعر بالأمان حتى لو لم أقابله بل كنت أشعر بأنني في كنفه، وأنني في بيتي.

■ **هل لا زلت حريصًا على زيارة كلية فيكتوريا رغم مشاغلك؟**

ذهبت كثيرًا إلى الكلية وكثيرًا ما كنت أتواصل مع مستر إلهامي، وتلك الزيارت تجعلني أتذكر شقاوة زمان، ومن المواقف التي كنا نمارس فيها تلك الشقاوة أننا ذات مرة صعدنا فوق المسرح وفجأة سقط أشرف من بيننا، لأن السقف كان من الورق المقوى ولولا أننا أنقذناه لكان مات، وحتى الآن ما زال الثقب الذي يوثق الواقعة موجودًا.

بسام الشمّاع.. حينما تحول الطلاب لكومبارس يوسف شاهين!

كاتب وباحث المصريات الشهير، تخرّج من كلية فيكتوريا ليدرس الآثار ويصبح شيخ المرشدين السياحيين في مصر، وله أكثر من 50 كتابًا باللغتين العربية والإنكليزية حول التاريخ المصري القديم، وله جهود في شنّ حملات عالمية لاسترداد الآثار المصرية المنهوبة في الخارج، وهو محاضر في العديد من المتاحف والمراكز الثقافية حول العالم، وهو حاصل على مجموعة من الجوائز منها: درع النادي البحري الملكي ببورت سميث في إنكلترا لمجهوداته في إلقاء المحاضرات التاريخية، وهو يتمتع بعضوية شرفية لجمعية الآثار المصرية بجنوب أفريقيا.

المدرسة بها سنترال دولي!!

■ **حدثنا عن علاقتك بكلية فيكتوريا؟**

قضيت في فيكتوريا 14 سنة لم أترك الكلية من أول الحضانة حتى ثانوية عامة، لم أرَ مدرسة غيرها، وكانت هي الأقوى من حيث تعليم الإنكليزية وأسلوب التعليم وإمكانيات المدرسة من معامل لا مثيل لها، كان بها ملاعب أولمبية في كافة المجالات، وكان بها القسم الداخلي في وقت لم يكن هناك في أي مدرسة في مصر قسم داخلي، في الوقت الذي كنت فيه في الكلية كان أغلب الطلاب ليبيين وأشهرهم عائلات بوغازيا، وكان لدينا نظام البريفيكت «الألفا» وكان هذا الطالب مسؤول عن تحية العلم، وكانت المدرسة فيها مبنى سنترال دولي نظرًا لوجود القسم الداخلي.

تعلمنا فيها كيف نقف، وكيف نجلس، وكيف نأكل؟.. كل ذلك ونحن في ابتدائي، وكان يا ويله من ينسى ويضع مرفقه على الطاولة فإذا به يفاجأ بخيزرانة من أعلى تهوي عليه. كانت تلك خيزرانة مسز «جيلبرسون» وأتذكرها جيدًا وكانت المعلمة الإنكليزية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فارعة الطول جادة جدًّا وحازمة ولا تكل ولا تمل وكلمتها سيفًا.

■ **هل كان لأحد من المدرسين فضلًا في تحديد مسارك المهني؟**

المدرّسة التي لعبت الدور القوي في حياتي كانت مسز منى قدري، مدرسة الإنكليزي كانت الأم والمعلمة والصديقة والزميلة والأخت، علمتنا رسم وكيمياء ورياضة وحتى فنون وضع المكياج، فكنا أثناء اللعب نضع مكياج الهنود الحمر،

وأحاول جاهدًا البحث عن هذه المعلمة الفاضلة والسبب الرئيس الذي يجعلني أبحث عنها هو أن أقبّل يديها، فقد لعبت دورًا كبيرًا جدًّا في تكوين شخصيتي.

ودورها لا يقل عن دور والدي ووالدتي بعد أن أخذوني في رحلة لأسوان وعمري ست سنوات وأتذكر جيدًا أول طاقية نوبي ومعبد فيله وهو جزء منه تحت المياه، وصورة العائلة وكلنا في مقبرة الآغا خان، وكأنهم زرعوا فيّ عشق النوبة وحب التاريخ المصري القديم. إلى جانب مدرّسة التاريخ مدام «علية» في كلية فيكتوريا وكان هناك وقتها إنكليز ومصريين، ولعبت «مسز ليتسا» دورًا كبيرًا في حياتنا وكانت شبيهة بمسز جيلبرسون في صرامتها.

▪ هل كانت لك مواقف طريفة مع أحد المدرّسين سواء الإنكليز أو المصريين؟

كان لدينا مدرّس اللغة العربية أستاذ إبراهيم صاحب أشهر إمضاء بالقلم الحبر في كلية فيكتوريا، وكان يثير ضحكنا بشكل هستيري، خاصة وأنه يوقع بعصبية ثم يلقي بالقلم حتى أنه قد يطير بعيدًا.

يوسف شاهين على أعتاب الفصل!!

▪ هل التقيت أحدًا من مشاهير الفنانين الذين تخرّجوا من كلية فيكتوريا؟

أتذكر يوسف شاهين حينما وجدته دخل فصلي رافعًا

نظارته الشهيرة، ليصور فيلم إسكندرية ليه، وقال لنا «حتخرجوا من الفصل كلكم وتجروا في الاتجاه ده، بس محدش يبصّ في الكاميرا»، وطبعًا كلنا نظرنا إلى الكاميرا، وكان من الطرائف أن كلنا ذهبنا إلى السينما لنرى الفيلم ولم نرَ اللقطة التي صورناها.

كان شاهين بالنسبة لنا الناصر صلاح الدين والأرض، وأنا أعتبر فيلم الأرض أقوى أفلام السينما المصرية، أما فيلم الناصر صلاح الدين فأراه يحتوي على أخطاء تاريخية ارتكبها يوسف شاهين. فأنا أرفض وضع الإبداع الشخصي في أحداث تاريخية، لأنه أخطأ حينما لعب شخصية عيسى العوام.

■ **هل كان لك نشاط رياضيٌّ في الكلية؟**

كنت ضمن فريق كرة السلة وكانت منافسة خطيرة بيننا وبين كلية سان مارك التي كان لديها فريق سلة قوي جدًّا على مستوى الجمهورية، وكانوا يغلبوننا كثيرًا، أما كرة القدم فكنت أمارسها بشكل عادي غير احترافي، ولكن في نهائي الماتش بيننا وبين فيكتوريا القاهرة كنت أنا آخر من يصوب ركلة الترجيح النهائية، ويومها أذكر أنني كنت أرتدي تي شيرت عليه كلمات أغنية عبد الحليم حافظ «أحلف بسماها وترابها»، وهنا يجب أن نتوقف ماذا يشتري لك الأهل، ثم فجأة صوبت وحققت هدفًا وأصبحت بطلًا مغوارًا لوهلة. وأذكر أنه في اليوم الرياضي كانت الإسكندرية كلها تقف على قدم واحدة، وكان هناك عرض خيول على أعلى مستوى.

■ **ماذا كانت تمثّل لك مكتبة كلية فيكتوريا، هل كان لها دور في تغذية حبك لتاريخ مصر القديم؟**

كانت مكتبة كلية فيكتوريا لا ترقى إليها أي مكتبة في مصر، وبها أسماء أمناء المكتبة من أول أمين مكتبة إنكليزي، وكانت مبهرة بها عدد لانهائي من الكتب حتى الأسقف وبها هدوء غير طبيعي رغم أنها على بعد خطوات من الملعب. وأخذت جائزة المدرسة كأمين مكتبة في الـ SPEECH DAY كان يومًا لإلقاء الشعر والمسرحيات والأوائل، وكان على مسرح الكلية الذي يُعدّ تحفة.

■ **وما هي ذكرياتك الأخرى عن يوم الـ Speech day؟**

كان يوم الحلم بالنسبة لنا كلنا نريد أن نكون مثل هؤلاء المكرمين. وتكرمت عام 1979 من محافظ الإسكندرية فوزي معاذ، وكان التكريم عبارة عن مجموعة كتب ومنها كتاب «بيغماليان» لبرنارد شو. وكنت حصلت على ميدالية وكأس في الصحافة المدرسية وكان من ضمن الجائزة قلم حبر أنيق جدًّا وكانت تلك بدايتي مع الكتابة.

■ **وماذا عن مسرح «بيرلي هول» هل كانت لديك تجارب مسرحية عليه؟**

لن أنسى أبدًا مسرحية يوليوس قيصر الأصلية لشكسبير، وكان مستر ديفيد توماس مدرس الإنكليزية وكان إنكليزيًّا «قُحًّا»، وكان هو يجري اختبار الممثلين وكلنا كان حلمنا أن نكون يوليوس قيصر وكانت الفتيات كلها تنهار عند مقتله

ويكون البطل هو فتى أحلام كل الفتيات. وخضت الاختبار وقال لي أنت «جوليوس سيزرز سيرفنت» قبل أن يقول ذلك كنت قد سافرت في الأحلام وتخليت أنني بطل المسرحية ولكن ارتطمت بأرض صلبة عندما عرفت أنني سأكون الخادم. وأحضروا خياطًا خاصًا لتفصيل الملابس، وبالفعل شاركت في المسرحية بأربعة جمل. وكان البطل لبنانيًا اسمه أنور سكرية، وكان معنا أكرم النقيب ابن الملكة ناريمان، في أحد المشاهد، وكنت أنا سأذهب لأشعل الشمعدان، وكانت أختي وصديقاتها من كلية EGC جالسين في البلكون وما أن أخرج يدوي تصفيق حاد في قاعة المسرح، وكنت أعود ومعي الروب بتاع يوليوس قيصر ودخلت فصفقوا مرة أخرى وأصبحت أنا أكثر شخص تمّ التصفيق له في المسرحية أكثر من يوليوس قيصر نفسه!!. وكنا نضحك كثيرًا بسبب مظهرنا الكوميدي جدًا بالملابس الرومانية القصيرة. كل ذلك زرع بداخلنا حبًا عميقًا للثقافة.

■ **هل لديك ذكريات أخرى في الكلية؟**

كان هناك كشف دوري بالمدرسة، عيادة أسنان على أعلى مستوى وممرضات، ويتمّ تقييم حالة الطالب الصحية. هذا فضلًا عن المرور الصباحي. كان عدم الالتزام والإهمال في النظافة الشخصية له عقاب كبير. كان «عم جمعة» ـ مسؤول البوابة ـ صديقنا ولكنه كان يرفض دخول أي فرد بعد الميعاد. وكان زميلي المسؤول عن الإذاعة المدرسية هو أسامة كمال وهو مقدم برامج إذاعية وتلفزيونية ناجح جدًا، وكان للغته

الإنكليزية الرائعة دور في أن أعطاه توماس دورين في مسرحية يوليوس سيزر، ولما دخلنا الجامعة في القاهرة أقمنا معًا في شقة واحدة.

▪ هل تتذكر متى تغيّرت أحوال الكلية من قلعة بريطانية إلى مدرسة تعلم اللغة الإنكليزية؟

حتى عام 1978 كان ما زال هناك مدرّسون إنكليز، ولكن كانت حصة الموسيقى تدرّسها لنا مسز إيزيس وهي مصرية، وكان المكان فسيحًا وبه بيانو وصورة ضخمة لبيتهوفن بشعره الأشعث، ونظرة الغضب على وجهه كانت مرعبة لنا جدًّا. ومن الطريف أنه حينما ظهرت الطباشير الملونة كان اختراعًا مبهرًا لنا، ولكن إدارة الكلية لم توافق على استخدامه واعتبروه نوعًا من الرفاهية والدلع.

قلادة فيكتوريا في المحيط

▪ هل التقيت أحدًا من قدامى الخريجين أثناء جولاتك العالمية للتعريف بتاريخ مصر القديم؟

كانت صدفة غريبة حقًّا في أحد الأماكن وهي سفينة The world، أن ألتقي رجلًا غاية في الأناقة، شعره أبيض فضي لامع ويمسك بعصا خشبية ينادي عليّ أنت «أولد فيكتوريان»..؟؟ مممم»، ويخرج من جيبه قلادة ذهبية عليها شعار الكلية VC، وقال لي: «أنت أفضل من يحتفظ بها، هذه الوحيدة والأخيرة من نوعها حول العالم. أريدك أن

تحتفظ بها». ثم صمت لوهلة وأخذني من يدي وذهبنا إلى حجرته بين الأدوار الـ 13 للسفينة في عرض المحيط، وأخرج من خزانته بلوفر تريكو صوف إنكليزي مرسوم عليه شعار الكلية وقال لي عليك الاحتفاظ بهذا أيضًا. وحتى هذه اللحظة لم أعرف من هذا الرجل الثري الذي كان يعطي البقشيش بالآلاف للعاملين في السفينة!.

■ هل كانت هناك أي آثار لحرب أكتوبر على الدراسة في الكلية؟

لا أذكر شيئًا مؤثّرًا ولكن كانت أيام الحرب النوافذ كلها باللون الأزرق تحاشيًا للغارات الجوية، وكنا نأخذ حصص تربية عسكرية نحضرها بالزي العسكري كحصة إلزامية وتأهيل عسكري وكنا مستمتعين بها جدًّا، فلم نكن مرفهين كما يظن البعض.

■ هل لا زالت علاقتك بالكلية قائمة أم انقطعت؟

للأسف أنا لست عضوًا في جمعية الخريجين وقد زرت الكلية منذ عامين، وأرغب في عمل محاضرات عن التاريخ المصري لخريجي كلية فيكتوريا في شكل لقاءات شهرية كرد لجزء من فضلها علينا.

مصطفى رمضان

محامٍ مرموق بالإسكندرية، كان أول من أقنع إدارة كلية فيكتوريا بتأسيس قسم أدبي في مرحلة الثانوية العامة، وله

حكاية مع كلية فيكتوريا كان لها أثر مهمٌّ في تغيير مسار حياته، فإلى الحوار:

■ **ماذا تمثل لك كلية فيكتوريا؟**

كنت في الكلية في المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية، وبمجرد دخولنا إليها كأننا انتقلنا من عالم إلى عالم آخر، أثرت علينا في الشخصية والفكر والعلاقات، وجودنا مع جنسيات وثقافات مختلفة، ونظام تعليمي يفتح أمامك آفاقًا أخرى وينقلك كل فترة من مرحلة إلى مرحلة جديدة، وكان الأمر صعبًا في بدايته لأن حياتنا في فيكتوريا كانت لا تنطبق مع الواقع... عالمان مختلفان.

مهنيًّا وواقعيًّا المدرسة كانت على النهج السديد، هي النموذج الصحيح للتربية والتعليم، التعامل والمواجهة مع الآخرين.

■ **ما هي الفترة التي كنت طالبًا فيها بالكلية؟**

من 66 إلى 77، وكلها ذكريات عظيمة، وكان المعلمون والإدارة نخبة ممتازة.

■ **هل أغلقت الكلية أثناء حرب أكتوبر؟**

لا أذكر أنها أُغلقت في تلك الفترة، كانت الدراسة تبدأ في النصف الثاني من تشرين الأول/أكتوبر دائمًا وأبدًا، منذ نشأتها لذا لم نحضر توقيت الحرب ونحن في الدراسة.

■ **كيف تصف فيكتوريا في فترة الستينيات والسبعينيات؟**

كانت جامعة دول عربية، الطلاب كان أغلبهم من الدول العربية. وأذكر أن تلك الحقبة كانت ثرية فكريًا بشكل كبير جدًّا. كان التعامل راقيًا جدًّا والأدبيات عالية والاحترام كان مبدأ التعامل في كل شيء مما جعلنا نعتز جدًّا بالمدرسة التي أثّرت في المجتمع الإسكندري.

■ هل تتذكر أشهر العائلات العربية التي كان أبناؤها في فيكتوريا في ذاك الوقت؟

أذكر تحديدًا عاصم صبان من عائلة الصبان من السعودية وهو فنان ومبدع ويقيم حاليًّا في فرنسا، وعائلة عبد العزيز، وأيضًا كمال عبد العزيز الكردي من العائلات السعودية العريقة، وكان زميلًا أكنّ له كل الاعتزاز والتقدير. كان هناك باكستانيون ومن العائلات الليبية بوغازيا وباكوش والشيباني، وعائلة شلش السوريين، ومن إيران عائلة «سالاري»، وأيضًا كان معنا طلاب من الأردن ولبنان وسوريا وإيران في الإعدادي والثانوي في توقيت الحرب الأهلية في لبنان، ولم يستمر أغلبهم، واستمرت «سالاري» حتى الانتهاء من المرحلة الثانوية. وأذكر جيدًا شخصية هامة كانت الأكثر تأثيرًا وحضورًا في كافة الأنشطة كان هذا د. عبد الفتاح طوقان. كذلك يشاء القدر أن يكون زميلي طوال مرحلة الدراسة ورفيق مشواري العملي أكرم النقيب نجل الملكة ناريمان.

■ مَنْ مِنَ المعلمين أثّر فيك أو لك موقف معين معه لن تنساه؟

لا يغيب عن ذاكرتي أبدًا مستر تشارلي حمدي، كان مدرّس كيمياء وفيزياء ووقت أن برز الاختراع الجديد المبهر آنذاك «الآلة الحاسبة» أردنا أن نستعين بها للمعالجات الحسابية، وكان هو من أشد الرافضين لها وكان يقول لنا: «هذه الآلة ستصيبكم بإصابة شديدة في الذاكرة، وستؤدي لتبلدكم» وأصرّ أن نعتمد على تشغيل دماغنا، كنا غاضبين جدًّا ولكن اكتشفنا فيما بعد أنه كان على حق.

■ ما هي ذكرياتك عن اليوم الرياضي؟

كان لا بدّ أن يحضر المحافظ ووزير التربية والتعليم إلى جانب عدد من الشخصيات المرموقة. كنا نطمع في يوم أو يومين إجازة قبل الـ«speech day» كنا نعدّ له قبلها بحوالي شهر، فنيًّا وثقافيًّا وكان لنا بروتوكولات معينة وكنا نقوم ببروفات في المسرح، وكان يسمح للطالب المشارك ألا يحضر جميع الحصص، وكان هذا ينمي لدينا الإحساس بالمشاركة والثقة.

■ كيف كان اليوم الدراسي في فيكتوريا؟

من الثامنة إلا الربع وحتى الثالثة مساء، الطابور المدرسي كان يستمر 30 دقيقة، كان هناك اهتمام كبير بالإذاعة المدرسية، كانت مجمع مراحل تعليمية وكل مرحلة لها زي معين، والمدرس المسؤول عن كل فصل لا بدّ أن يكون على رأس الطابور كل يوم، وهناك مدرّسون مشرفون مسؤولون

للتفتيش على الزي. أما الفصول فقد كان عدد الطلاب في الفصل لا يزيد عن 20 طالبًا في الفصل فقط.

■ هل لك موقف مميز لا يمكن نسيانه مع الكلية؟

لم يكن في فيكتوريا سوى ثانوية عامة علمي فقط. وحينما أنهينا السنة الأولى من المرحلة الثانوية وزعوا علي ورقة الرغبات، كنت أنا وزملائي وكنا أربعة مصريين وليبيين، قررنا أن نطلب أن ندخل القسم الأدبي، ولا تتخيلي أبدًا أن المدرسة التي تنتمين إليها قررت أن تُعدّ قسمًا أدبيًا لتلبية رغبات طلابها، واشترطت فيكتوريا كي يفتح القسم الأدبي أن يكتمل العدد ثم بدأنا الفصل بأربعة طلاب ومن ثم زادوا إلى ثمانية وفي النهائية بعد وجود طلاب وافدين من الدول العربية أصبحنا 12.

وفي لجنة الثانوية العامة وضعونا في لجنة مع القسم الأدبي من مدرسة الـ EGC فكانت اللجنة الوحيدة في جمهورية مصر العربية التي تجمع طلابًا من مدرستين مختلفتين.

كذلك لا يمكن أن أنسى الأيام التي كان يصور فيها المخرج الكبير يوسف شاهين فيلمه «إسكندرية ليه» وأيامها سجل عددًا من اللقاءات مع الطلاب وكنا في أولى ثانوي ولكن يبدو أنه عمل مونتاجًا لتلك اللقطات.

■ هل كانت هناك تفرقة في المعاملة مع الطلاب؟

كانت التفرقة قائمة بسبب تفوق الطالب العلمي ومدى متابعة ولي الأمر، وليس بسبب الأصل أو الجنسية، وكانت

تلك ظاهرة صحية جدًّا. الطالب المتميز تسمح له المدرسة بالاشتراك في كافة الأنشطة من مسرح أو أنشطة رياضية.

مدرسة جمال عبد الناصر العسكرية أُقيمت على جزء من ملاعب كلية فيكتوريا وكان أمرًا محزنًا جدًّا في أواخر الستينيات، وكانت المدرسة العسكرية الوحيدة التي أُنشئت في ذلك الوقت، وكان لهم زي عسكري موحد وكان يقوم على إدراتها أحد رجال القوات المسلحة، وكان أحد الضباط ينتدب من تلك المدرسة ليدرس لنا مادة التربية العسكرية وكانت مادة أساسية بالنسبة للمدارس في تلك الفترة بناء على قرارات من وزارة التربية والتعليم. وكان الطالب يلتزم بالزي العسكري بكل تفاصيله على ارتدائه أثناء الحصة الدراسية المخصصة لتلك المادة.

وقد أفادنا جدًّا أن نتنازل عن زي المدرسة الذي كان عزيزًا علينا جدًّا فقد كان يميّزنا بين مختلف المدارس، فكرة التنازل عن ذلك الزي وارتداء زي عسكري لأداء واجب وطني والانصياع للتعليمات والأوامر.

■ ما الشيء الذي تعلمته من فيكتوريا ولازلت حريصًا عليها؟

الالتزام بالمواعيد ووجود توقيت لكل شيء والانضباط. وهو أمر نعاني منه مرتين هو محاولتنا الجهيدة للالتزام بالوقت في ظل كل المعوقات من أزمات مرورية وغيرها، وكذلك عدم الالتزام من جانب الأشخاص الذين نتعامل معهم في الحياة.

الفصل التاسع

فيكتوريا في ذاكرة طلابها

مروان شماع

أحد الفيكتوريين القدامى وتخرج من الأكاديمية العربية للنقل البحري بالإسكندرية، ثم سافر إلى أميركا، ونظرًا لأن فيكتوريا زرعت فيه حب التربية والتعليم أصبح مالكًا لمدرسة في ولاية وسكنسن، وكان من الطلاب الذي داوموا في كلية فيكتوريا المختلطة والتي كان يسمح فيها باستيعاب طالبات وكان ذلك في الثمانينيات، فإلى حكايته مع كلية فيكتوريا:

■ **ماذا يعني أن تكون من الفيكتوريين القدامى Old Victorian؟**

أن تكون طالبًا في كلية فيكتوريا يعني الولوج تلقائيًا إلى بيئة ملكية ومحفزة لأن تكون طالبًا نابغًا.. تتعلم أن تكون قائدًا، تقود فرقًا وجماعات، وأن تبذل أقصى ما في وسعك بنزاهة وفخر، أن تكون متفردًا ومبدعًا، وألا تقلل أبدًا من شأن أحد، باختصار تمكنك كلية فيكتوريا من دخول المجتمع

الدولي دون أي تحفظات. كان التعليم ليس فقط معلومات يتمّ حشوها ولكن كانوا يعلموننا كيف نطبق ما نتعلمه على حياتنا العملية، وهو ما أطبقه مع أبنائي الآن مستخدمًا الأمثلة ذاتها.

■ **ما الذي غرسته فيكم تلك الكلية العريقة؟**

زرعت كلية فيكتوريا فينا البذور ونحن نحصد الثمار اليوم. الانضباط والتعليم هي مفاتيح كلية فيكتوريا لنجاحنا. كان النظام قاسيًا حقًّا، وأحيانًا كثيرة كان المدرسون صارمين جدًّا، لكن في الوقت ذاته يحترموننا بشدة. وبالمثل، كنا نكنّ لهم احترامًا شديدًا ونحترم قدراتهم التعليمية وما يعلموننا إيّاه. كانوا بمثابة كائنات مقدسة ورأينا فيهم القدوة والمثل الأعلى. لقد صنعوا اختلافًا في حياتنا وهو الأمر الذي كان فارقًا معنا طوال حياتنا.

حينما التحقنا لأول مرة بكلية فيكتوريا وفي مرحلة الحضانة كان يقال لنا إن من يسيء التصرف سيتمّ حبسه بغرفة الفئران، كانت تلك الغرفة المظلمة أسفل الدرج تمثّل لنا رعبًا جعلنا نحسن التصرف ونلتزم طوال الوقت، دون أن نرى باب تلك الغرفة مفتوحًا لمرة واحدة، فلم يدخلها أي منا. فقد كان الانضباط قائمًا طوال الوقت بدون استثناءات.

أتذكر حينما كنت في الصف الأول قمت بتقليد بعض زملائي بالقفز من نافذة الفصل، التي كانت مكسورة، وقد جرحت يدي وتركت ندبة مدى الحياة، وأخذت إلى العيادة لتضميد الجرح، ولكنني عوقبت بالوقوف طوال النهار إلى جانب الجدار رغم الألم الذي كنت أعاني منه.

لم يكن هناك فرق إذا نسيت أداء الواجب المدرسي أو نسيت الكراس، لأنه في كلتا الحالتين ستفتح يديك انتظارًا لعصا خشبية طولها متر. علّمنا المدرّسون أيضًا احترام زملائنا فلا زلت أتذكر مقولتهم لنا: «أنت تقضي مع زملائك ثماني ساعات يوميًا، هذا أكثر مما تقضيه مع عائلتك»، فكان الصبية بمثابة أخوة لنا والفتيات أخواتنا.

■ هل تذكر أي من المواقف الطريفة التي حدثت وأنتم كنتم من أول الدفعات التي كانت كلية فيكتوريا فيها مختلطة تجمع البنات والبنين؟

في الثمانينيات، حدثت واقعة تناقلتها الصحف حول إضراب طلاب كلية فيكتوريا في مطعم المدرسة، بسبب إهانة أحد المعلمين الجدد لأحد الطلاب، وطالبنا بطرده وبالفعل طرد من الكلية.

ومن المواقف التي أذكرها أيضًا، كانت تجاورنا مدرسة جمال عبد الناصر للبنين وكانوا يغازلون فتيات فيكتوريا، لذا كنا نرافق الفتيات عندما يستقلن ترام الرمل حتى يكنّ في حمايتنا. وأتذكر مشاجرتين حدثتا بين طلاب المدرستين، في واحدة منهما تجمع عدد كبير من الطلاب وأقاموا حاجزًا بشريًا لمنعنا من الخروج من كلية فيكتوريا وهم في حالة تأهب لمعركة مميتة، هبّت إدارة فيكتوريا لوقف المعركة وتشاورت مع إدارة المدرسة الأخرى وأُعطيت لنا تعليمات بعدم مغادرة المدرسة إلا بعد فضّ المشكلة.

■ كيف كانت تمثّل الرياضة واليوم الرياضي في فيكتوريا، هل كان بالصخب نفسه الذي كان عليه في الماضي؟

حياتنا في فيكتوريا كانت من التعليم إلى الرياضة، وبين ملاعب التنس وملاعب كرة السلة وملاعب كرة الطائرة وملعبين لكرة القدم، وحمام السباحة وصالة الألعاب الرياضية «الجيمنازيوم». كل عام كان يوم الرياضة sports day عرض خاص للوالدين.

ومن المواقف الطريفة التي حدثت معي في أول يوم لممارسة الجودو، لم يكن في حوزتي رداء التمرين، وطلب المدرب من إحدى الفتيات التي تتدرب معي أن تقوم برمية الجودو وكنت أرتدي قميص المدرسة، فإذا بها تلقي بي أرضًا وأنا أستمع لصوت تمزيق قميصي وقد قُدّ نصفين، يومها أصبت بخجل شديد.

طابور الصباح:

■ هل كان طابور الصباح من أصعب الفترات التي تمرّ عليكم في الكلية خاصة وأنه كان نقطة تفتيش؟

بالطبع، كنا نقف في صفوف متراصين بعناية، نستمع إلى الإذاعة المدرسية التي يقرأ فيها زملاؤنا أهم الأخبار أو المقالات، ثم نغني النشيد الوطني «بلادي بلادي» ونحيي العلم بالعربية والإنكليزية.

خلال هذه الفترة كان مدير المدرسة مستر المصري،

يسير بين الصفوف، ليتحقق مما إذا كانت أحذيتنا نظيفة وبرّاقة، إذا كنا نرتدي الجوارب ذات اللونين الأسود أو الرمادي، والتحقق من ربطة العنق «الكرافات»، والقميص، وإذا كانت الأظافر مقلّمة، والشعر مسرحًا أم لا. أما مسز ليتسا فلورنتس Florentace فكانت تفعل الشيء نفسه مع الفتيات، ربطات الشعر، والتأكد من عدم ارتدائهن الأقراط والخواتم الذهبية. كان علينا أن نكون ملتزمين تمامًا بالزي، وإلا يتمّ سحبنا من الطابور للوقوف أمام بقية المدرسة مع المتأخرين حتى تنتهي تحية العلم، وبعد صعود الطلاب إلى الفصول، تتم معاقبتنا.

■ **حدثنا عن ذكرياتك مع المسرح، وهل كنتم مستمرين في تقديم مسرحيات من الأدب الإنكليزي؟**

أذكر أن مستر نيل Mr. Neil، ومستر ديفيد توماس Mr. David Thomas كانا مدرسين للغة الإنكليزية وفي الوقت ذاته مخرجين لمسرحيات شكسبير. وكنت أنا وصديقي رفيق نساهم في العديد من مسرحيات شكسبير التي كانت تقام على مسرح المدرسة، وكانت مهمتي طلاء الديكورات وقد تعلمت كيفية صنع الطلاء وخلط البودرة الملونة مع الغراء. وكانت مهمتي في كل مسرحية أنا وزملائي تغيير الديكورات كل مشهد، وكان علينا القيام بذلك في تسع ثوان فقط، وكان هذا له الفضل في تعلمنا الالتزام بالوقت وسرعة الإنجاز.

وكانت من ذكرياتنا الجميلة أن كل من اشترك في المسرحية كان له زي وكان يجب أن يكتب اسمه على باب

غرفة تبديل الملابس، وذات مرة صرخ فيّ مستر نيل Mr. Neil غاضبًا: لماذا اسمك أكثر الأسماء ترديدًا يا مروان؟! فرددت بكل بساطة : لأنني من يملك فرشاة الطلاء.

يتذكّر مروان أيضًا أن مستر ديفيد ومستر نيل كانا زملاء حجرة واحدة، وكان دائمًا بابهما مفتوحًا أمام كل الطلاب للحديث معهم، فقد كانوا بالنسبة لنا أكثر من مدرّسين بل أقرب الأصدقاء، فقد كانوا يشجعوننا ويدفعوننا لتنمية مواهبنا وإشباع اهتماماتنا. فالبنسبة لي كان هناك موقف ساعدني فيه مستر نيل كثيرًا حيث كنت أرغب في الاشتراك في مجلة أميركية وكانوا لا يقبلون الاشتراكات إلا عن طريق الشيكات. فساعدني مستر نيل عن طريق أحد أصدقائه الأميركان ودونه لم أكن لأشترك بها، وهي المجلة التي غيّرت مسار حياتي فيما بعد.

مع بداية كل عام دراسي كان لا بدّ لنا من زيارة عم سيد، أحد عمال المدرسة المسؤولين عن أخذ مقاساتنا لكي يرسلها لخياط كلية فيكتوريا، كما كان متخصصًا ببيع الكراسات التي تحمل شعار الكلية والتي كانت أيضًا مما يميّز كلية فيكتوريا.

■ **البعض يقول إن الكلية كانت قائمة على نظام استخباراتي، فكل طالب موثق عنه كل شيء فهل هذا صحيح؟**

لا أعلم بدقة ولكن ربما يكون هذا صحيحًا، حينما جاء الوقت لكي أنهي رحلتي الدراسية مع كلية فيكتوريا وآن الأوان

لكي أنتقل إلى الكلية تمّ تسليمي ملفًا وحينما فتحته وجدت درجاتي في جميع المواد الدراسية منذ لحظة دخولي الكلية وحتى خروجي منها، كذلك درجات عن تقدمي في الدراسة ودرجات تقييم للسلوك على مدار سنوات عمري. وفي تقرير عن مرحلة الحضانة كُتب فيه: «مروان طفل هادىء الطباع ومنطو»، وفي تقرير الشهر التالي «مروان بدأ يتأقلم ويندمج وبدأ بتكوين صداقات مع زملائه في الفصل».

■ وما هي ذكرياتك مع مكتبة الكلية؟

يتذكر مروان مكتبة الكلية قائلًا: «لدينا واحدة من أروع المكتبات وأضخمها، لذا كان من الصعب أن يستطيع أمين المكتبة العناية بها وحده، فكان الطلاب يتطوعون لمساعدته وكان اسمهم «Library Prefect» وكان ذلك واحدًا من الالتزامات لكل سنة دراسية، فكان علينا إرشاد الطلاب إلى أماكن المراجع والكتب على الأرفف، لقد كان شعور بالفخر يغمرنا بسبب ذلك، كما كنا نحظى باحترام باقي الطلاب.

■ هل تحدثنا بدقة أكثر عن نظام البريفيكت؟

كان «البريفيكت» من مهامه مراقبة الطلاب في طابور الصباح، والقبض على المتأخرين، وكان لهم سلطة عقاب الطلاب بكتابة مئة سطر من جمل مثل: «I must not be late, I must be on time» وكانوا يكتبون اسم الطالب وفصله لمتابعة تنفيذه للعقاب في اليوم التالي. وإذا لم يتمّ تنفيذ العقاب كان يتمّ زيادة السطور إلى مئتي سطر. وإذا نسي الطالب إحضار ما

كتبه من جمل فعليه أن يكتب مئة سطر من جملة «I must not forget my punishment» وإذا شاهدك مدرّس أخطأت فالعقاب يكون بالضرب على اليدين عدة مرات.

■ مَنْ مِن المعلمين ترك فيكم أثرًا عميقًا؟

ترك الكثير من المعلمين فينا أثرًا كبيرًا ولنا معهم ذكريات لم ننسها ولم ينسوها هم أيضًا، وهؤلاء المعلمون يتذكروننا بالاسم أيضًا وبالأخص مسز جوو Mrs. Go وكانت يونانية وتدرس لنا مادة الرياضيات.

ومن المعلمين الذين لا يزالون حاضرين في كل حديث لنا عن كلية فيكتوريا مستر وهيب معلم الرياضيات الذي كان له شخصية مثيرة جدًّا، وكان الكثير من الطلاب لا يظهرون له الاحترام كباقي المدرّسين، كان قصير القامة وكان طولي مترين وكنت أتباهى بطولي كلما وقفت بجواره فكنت أشد قامتي أكثر فما كان منه إلا أن يقول جملته الشهيرة للجميع «Sit down YA HAYWAN» «اجلس يا حيوان»، ويطاردني بعصاه ثم يضحك كثيرًا معنا.

وكان من المواقف المضحكة أيضًا أنه كلما نادى أحد ليسأله سؤالًا يجيب طالب آخر «Huh, are you talking to me?» «ها.. أتقصدني أنا يا أستاذ؟!» فقد كنا جميعًا نتظاهر بأننا لا نستطيع أن نحدّد إلى أي طالب يتحدث. أستطيع أن أقول إنه لا يوجد طالب في كلية فيكتوريا لم يسخر من مستر وهيب أو يداعبه سواء كان طالبًا مشاغبًا أو هادئًا فقد كان زميلنا طارق

مدحت من الطلاب الهادئين جدًّا فكان أحيانًا يداعبه قائلًا «Apologize Wahib BEY».

■ رغم إقامتك في الولايات المتحدة الأميركية، هل تداوم على زيارة كلية فيكتوريا أثناء وجودك في مصر؟

بدون شك! وقد قمت بزيارة الكلية منذ حوالي تسع سنوات وغمرتني السعادة حينما وجدت اسمي أنا وزملائي لا يزال محفورًا في قاعة الرسم، فأخذت لقطات بالكاميرا في محاولة لاستعادة الزمن.

وقمت برفع تلك اللقطات ومقطع فيديو على موقع الفيس بوك لزيارتي للكلية ووجدت تعليقات مليئة بالحنين الجارف للكلية من جميع أصدقائي. وحينما قلت لهم عن مشروع هذا الكتاب لم يتوانَ الجميع عن المشاركة في استعادة الذكريات حتى تستطيع الأجيال القادمة التعرف من خلال هذا الكتاب على مجد تلك الكلية.

ونستعرض هنا ذكريات فيكتوريا في عيون أوائل الخريجات من كلية فيكتوريا المختلطة:

منى الحوشي

تتذكر منى جميع المعلمين الذين درّسوها في كلية فيكتوريا، وقد ترك كل منهم انطباعًا خاصًّا لديها، وكان من اللطيف أنه بعد عشرات السنين أن تلتقي معلمة الرياضيات إيناس الشافعي وقد تعرفت عليها رغم ارتدائها

الحجاب، وكانت منى في زيارة لمدرسة ابنتها وتشاء الأقدار أن تدرس مسز إيناس لابنة منى التي درستها في كلية فيكتوريا في الماضي.

ومن الذكريات التي تركتها فيكتوريا في ذاكرة منى يوم «Speech Day» الذي كانت تحرص أن تشارك فيه كل سنة، وكان من الأمور الرائعة بالنسبة لها هو مغادرة الفصل للتدرب على العرض وبروتوكول الترحيب بمحافظ الإسكندرية الذي كان عليهم أن يسلموا عليه يدًا بيد، وكان هذا أمرًا رائعًا لها أن تصعد على خشبة المسرح وتتسلم شهادة تقدير من المحافظ.

ومن الأيام الممتعة بالنسبة لمنى والتي لا تنساها أبد الدهر هو يوم الموسيقى، وتذكر منى مسز إيزيس معلمة الموسيقى التي لا تنسى بحسب وصفها. وتتذكر منى الأغنية التي كانت تتغناها مع زميلها طارق مدحت حيث كانوا لا بدّ أن يغنوا أغنية «sala gadola mitchi cabola, bibi di bobi dibo» والتي كانت كفيلة بأن تطرحهم أرضًا من كثرة الضحك، وكان طارق يراهن الفصل دائمًا على الفستان أو الطقم الذي سترتديه مسز إيزيس وكان دائمًا ما يكسب الرهان فقد كان يعلم كل الأزياء التي تمتلكها.

يوم وقف عمر الشريف على باب الفصل

دينا المانسترلي

لا تزال دينا هي وأصدقاؤها وزملاؤها في الفصل

يتبادلون الحكايات والذكريات عبر الهاتف أو عبر الـ «فيس بوك» وهي تتذكر جيدًا مسز إيزيس باعتبارها شخصية لا تنسى فقد جعلت من حصة الموسيقى وجبة شهية ينتظرها الطلاب بشغف شديد. فتقول: «كانت دائمًا ما تحضر معها طفلها الرضيع في عربته الخاصة لينتظرها حتى تنتهي من حصة الموسيقى وكان طفلًا لطيفًا جدًّا، وقد كانت مسز إيزيس سببًا في عشق الكثير من الطلاب لآله البيانو وقد اتخذوه مهنة لهم ومنهم زميل لي يدعى نبيل وقد كنا دائمًا متواجدين أينما كان يعزف حيث كان عازفًا مشهورًا جدًّا، فكان يعزف ونحن نجتمع لنتواصل ونستجمع ذكرياتنا معًا».

وتتذكر دينا أيضًا زيارة عمر الشريف للكلية وتقول: «كنت أنصت لمعلمة اللغة الفرنسية حيث كانت تشرح درسًا جديدًا ورفضت أن يتمّ وقف الدرس من أجل الفسحة، وكان كل طلبة الفصل البنين والبنات على استعداد للتضحية بأي شيء للخروج لرؤية عمر الشريف نجمهم المحبوب وخريج مدرستهم، لكنها كانت مصرّة على استكمال الدرس. وإذا بعمر الشريف يقف أمام فصلهم فما كان منها إلا أن ألقت بالطباشير في عرض الفصل وصاحت بغضب شديد وهي تهمّ بالخروج من الفصل «حراام.. أنا بشر.. كيف لي أن أشرح الدرس وعمر الشريف في الخارج؟ طزّ فيكم وطزّ في المدرسة». ثم خرجت واحتضنت عمر الشريف.

هنا تذكر دينا بحماس شديد: «تبعت فتيات الفصل كله المعلمة وتمّ حصار عمر الشريف وسط صيحات وصرخات

الفتيات، وكان يومًا لا يمكن أن أنساه ما حييت ولا زلت أروي عن اليوم الذي رأيت فيه عمر الشريف على باب الفصل ولا زلت لا أقوى على تصديق الأمر حتى الآن!».

محمد شلبي

دائمًا ما يؤكد أن كلية فيكتوريا في سيرته الذاتية لا تقل عن شهادة تخرجه من كلية الصيدلة أو حصوله على شهادة MBA، فهو دائمًا ممتن لوالديه بأنهم أدخلوه تلك المدرسة التي جعلت حياته على ما هي عليه الآن.

أحمد داوود

لا زال أحمد يتذكر حينما قام عدد من الأطفال في فصله بإشعال النيران فيه، مما جعل إدارة المدرسة تجبرهم على إعادة طلائه مرة أخرى على نفقتهم الخاصة وكان على كل طالبين أن يقوما بدهان الحائط الذي يجلسون بجواره بأنفسهم حتى لو كان باللون الذي يرغبان فيه.

لا زال أحمد يتذكر أيضًا مستر عادل شعراوي والمقالب الشنيعة التي كان يقوم بها معه، وكان من بينها أن حشر أعواد الثقاب في موضع مفتاح باب سيارته، وقتها اتهم مستر عادل زميلي وصديقي جلال الركايبي وقد أمسكه من ذراعه بقوة ولم يستطع جلال الردّ لأنه لم يعلم حقيقة ما يجري. وبعد حوالي 26 عامًا، علم جلال من خلال دردشة على مجموعة «Old Victorians» على موقع «فيس بوك» أنه اتهم في الواقعة التي كنت أنا السبب فيها.

ويستطرد داوود في ذكرياته عن مغامراتهم مع المدرسين، ويتذكر مستر تشارلز حمدي، معلم الكيمياء الذي جعلهم يقيسون قطر شعر رأسهم، قائلًا لهم إنه سيكون له دلالة في حال تدنيه عن رقم محدد مما سيؤدي لإصابتهم بالصلع بعد 30 عامًا، وبالفعل هذا ما حدث.

ويتذكر أحمد مع جلال الركايبي ومروان الشمّاع حينما كانوا في معمل الكيمياء مع مستر تشارلز حمدي وكان المعمل على وشك الانفجار بسبب قطعة كبيرة من الماغنسيوم ألقاها مستر تشارلز في وعاء كبير للماء وكانت الأمور ستخرج عن السيطرة وكان مستر تشارلز قد أصيب بالهلع جرّاء ذلك.

ويضيف: «عم بشر شخصية لا يمكن نسيانها رغم أنه لم يكن معلمًا أو عاملًا بالمدرسة، لكنه كان صاحب عربة الفول التي كانت تقف أمام المدرسة ورغم كل التحذيرات التي كنا نتلقاها يوميًا من إدارة المدرسة بخصوص عدم تناول سندويتشات منه، لكننا كنا يوميًا لا بدّ أن نتناول ساندويتش عم بشر».

«وبالرغم من رحلاتي المتعددة حول العالم والأماكن العديدة التي قمت بزيارتها فإنني لا زلت أجزم بعد كل تلك السنوات بأنه لا يوجد مكان أروع من فيكتوريا وأفضل أصدقاء لي على الإطلاق هم زملاء الدراسة».

عايدة درويش

من الطالبات اللواتي حضرن في كلية فيكتوريا بعد

تحولها لكلية «النصر»، وكانت الفترة التي كانت فيها مختلطة تجمع البنين والفتيات، ولعبت بطولات العديد من مسرحيات شكسبير التي قدمت على خشبة «بيرلي هول» تتذكر كلية فيكتوريا قائلة: سنواتي الدراسية في كلية فيكتوريا كانت من أروع سنوات حياتي على الإطلاق، وحقيقة أشعر بالفخر لأنني انتميت يومًا لتلك المدرسة، وأشعر بحنين بالغ للأيام التي قضيتها على خشبة ذلك المسرح، فأنا فخورة بانتمائي لأشخاص منتشرين حول العالم فلم أشعر في حياتي بأي انتماء أقوى من ذلك الذي يجمعنا معًا مهما كانت المسافات بيننا».

علي النقيب

هو عضو مجلس إدارة جمعية خريجي كلية فيكتوريا الإسكندرية، وهو أحد الأجيال الشبابية التي انضمت لمجلس إدارة الجمعية ويعمل على مشروع جديد لإحياء أنشطة جمعية الخريجين وضمّ دماء جديدة شابة لهذا الكيان العريق.

■ **تشهد أقدم جمعية خريجين للمدرسة محاولات تطوير، فهل تحدثنا عنها؟**

وجدنا فجوة بين الخريجين القدماء وبين صغار الخريجين، ونحن بصدد مشروع لزرع القيم والمبادىء الخاصة بالفيكتوريين القدماء، القائمة على التربية الإنكليزية، والتي كان من أهم سماتها النظام، والانضباط على الجميع، نريد للأجيال الجديدة أن تتعرف على أن سرّ تفوق ونبوغ طلاب كلية فيكتوريا القدامى كان هو الانضباط والالتزام».

جزاء «البريليانتين»

■ **هلا حدّدت لنا مثالًا لتلك القيم التي تريدون استيعادها؟**

يروي النقيب حكاية عن مبادىء وقيم كلية فيكتوريا كما سمعها من كيفورك بليكيان، أرمني بولندي مصري، وهو أحد أقدم الفيكتوريين القدامى الذي كان يلعب في فريق كرة القدم بالكلية، وكان الكريم جديدًا من بيت «ياردلي» اللندنية ظهر لأول مرة وأصبح شهيرًا فيما بعد هو «بريليانتين» وكان صرعة جديدة انجذب إليها المراهقون الأثرياء، طلبه بليكيان من والده أثناء سفره إلى لندن، وطبعًا كان بليكيان يريد أن يكون أول من يضع الكريم الإنكليزي الجديد فذهب إلى المدرسة به وكان في هذا اليوم عليه أن يتدرب مع فريق كرة القدم من أجل مباراة هامة مع إحدى مدارس الإسكندرية، ولسوء حظه لمحه المدرّب وهو يتباهى أمام الفريق بشعره فأحس بأن ذلك سيكسر روح الفريق، وإذا به ينادي عليه، فجاء بليكيان بكل ثقة وإذا بالمدرب يهوي سريعًا إلى تراب الملعب ليحضر حفنة من التراب ووضعها على الكريم اللزج، وقال له: «إذا كنت تريد أن تتباهى فهيا اذهب لتتباهى بشعرك» وجعله يلعب بذلك الشكل. كان ذلك التصرف رسالة لكل الطلاب أنه لا مجال لأحد أن يتميز عن الآخرين، هنا اليوم يوم تمرين كرة ولا بدّ من الانضباط وليس التباهي.

■ **تعتقد أن نظام ونواميس فيكتوريا البريطانية هي التي خلقت تلك الأسطورة التعليمية، أم أن هناك عوامل وأسبابًا أخرى؟**

إسكندرية تحديدًا كانت مجتمعًا متميزًا جدًّا وما زالت، فلا زال بها الجالية الأرمنية التي لا توجد سوى فيها دونًا عن باقي محافظات مصر، والإسكندرية كانت بها ثروات جعلتها مركزًا تجاريًّا كبيرًا فكانت كل تلك الظروف هي التي خلقت أسطورة كلية فيكتوريا.

▪ كانت تلك الإسكندرية الكوزموبوليتانية تضمّ أيضًا مدارس فرنسية وإيطالية وألمانية ويونانية وأرمنية وغيرها، ولكن التي حققت ذلك الصيت العالمي كانت كلية فيكتوريا فقط؟

بالتأكيد لأن فيكتوريا كانت لها قواعد صارمة يلتزم بها الجميع، ولكن برغم صرامتها فقد كانت تنحصر للحفاظ على كرامة الطالب وقوة شخصيته، المسألة كلها هنا تربوية تهدف لبناء الشخصية، والفارق الكبير بين التعليم البريطاني والفرنسي مثلًا، أن البريطاني كان يعاقب الطالب بخصوصية، أما كلية «سان مارك» الفرنسية مثلًا والتي كان لي أصدقاء بها، كان الطالب يعاقب أمام كل زملائه، وكان الفارق الجوهري هو الحفاظ على كرامة الطالب أمام زملائه فكان الطالب يخرج من حجرة الناظر رافعًا رأسه.

وهنا أذكر مسز ليتسا التي كانت مديرة كلية فيكتوريا قبل أن تتحول إلى «كلية النصر» أقول: «كانت حازمة جدًّا لكنها لم تكن لتجرح كرامة أحد أو تهينه بلفظ أو غيره».

الفصل العاشر

ذكريات خريجي كلية فيكتوريا القاهرة

محمد سلماوي

رئيس اتحاد الكتاب العرب واتحاد كتاب أفريقيا وآسيا، درس اللغة الإنكليزية بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة، وتخرج فيها عام 1966، ثم حصل على دبلوم مسرح شكسبير بجامعة أكسفورد عام 1969، ثم التحق بالجامعة الأميركية بالقاهرة وحصل على درجة الماجستير في الاتصال الجماهيري عام 1975. وعمل مدرّسًا للغة الإنكليزية وآدابها بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة عام 1966، وفي عام 1970 انتقل إلى جريدة الأهرام ليعمل بها محررًا للشؤون الخارجية، وفي عام 1988 عين وكيلًا لوزارة الثقافة للعلاقات الخارجية. وفي عام 1991 عين مديرًا للتحرير بجريدة «الأهرام ويكلي الصادرة باللغة الإنكليزية، ثم عيّن رئيسًا للتحرير بجريدة «الأهرام إبدو» الصادرة بالفرنسية. وإلى جانب ذلك يعمل محمد سلماوي كاتبًا بجريدة «الأهرام اليومية».

وعُرف سلماوي بقربه الشديد من أديب «نوبل» نجيب

محفوظ، حيث أجرى معه العديد من الحوارات، وتمّ نشر هذه الحوارات وترجمتها إلى اللغتين الإنكليزية والفرنسية، وقد اختار نجيب محفوظ محمد سلماوي ممثلًا شخصيًا له في احتفالات نوبل في ستوكهولم عام 1988.

له عدة مؤلفات منها: مجموعة قصصية بعنوان الرجل الذي عادت إليه ذاكرته، مسرحيات: فوت علينا بكرة واللي بعده، القاتل خارج السجن، سالومي، اثنان تحت الأرض، رواية الخرز الملون. وقد حصل محمد سلماوي على العديد من الأوسمة والجوائز منها: وسام التاج الملكى البلجيكي من الملك ألبير الثاني بدرجة «قائد» عام 2008 ـ وسام الاستحقاق من الرئيس الإيطالي كارلو تشامبي بدرجة «ضابط عظيم» عام 2006 ـ وسام الفنون والآداب الفرنسي بدرجة «فارس» عام 1995.

■ **ماذا تمثّل لك كلية فيكتوريا؟**

لطالما رأيت كلية فيكتوريا نموذجًا للتعليم البريطاني في أفضل صورة، فقد كان مدير الكلية يأتي من أكبر مدارس ثانوية في إنكلترا ألا وهي كلية إيتون، وكان مدير كلية فيكتوريا وقت انتسبت إليها إليوت سميث الذي كان مديرًا لإيتون. فقد أسّست فيكتوريا لتكون نموذجًا للمدارس البريطانية الخاصة التي كانت مخصصة لعلية القوم وتضمّ قسمًا داخليًّا. وبالفعل كانت فيكتوريا باهظة المصاريف قياسًا بذلك الوقت. حتى وقت تخرجي عام 1962 لم تكن مختلطة كانت للبنين فقط.

■ **هل تأثّر مستوى كلية فيكتوريا التعليمي بعد التمصير؟**

«كانت تتّبِع تعليمًا إنكليزيًّا بكل ما للكلمة من معنى وكنا ندرس تاريخ أوروبا والتاريخ الإنكليزي، وكانت الجرعة المصرية قليلة جدًّا. لحسن حظي أنني كنت طالبًا بها أثناء فترة التمصير، فأضيف للمناهج التاريخ المصري إلى جانب المقررات الخاصة بالتعليم المصري، فحصلت على مميزات النظامين التعليم البريطاني رفيع المستوى والمقررات المصرية، والاهتمام باللغة العربية، وهو ما كان له عظيم الأثر على حياتي فيما بعد.

وأعتقد أن الفترة التي قضيتها من حياتي في فيكتوريا كانت أفضل الفترات التي حظي فيها الطلاب بالعديد من المزايا.

■ هذا عكس ما يقوله بعض الخريجين الذين كانوا يرون أن الانضباط والحزم وجودة التعليم قد تقلصت بل تلاشت مع رحيل الإنكليز؟

من سبقوني كانوا لا يجيدون العربية فلا يجيدون التعبير والكتابة بها، ومن تخرّجوا بعد ذلك فاتهم التعليم الجيد الذي حصلنا عليه، لأنه مع الوقت المستوى التعليمي الخاص بالمدرسة تدهور جدًّا.

■ برأيك، ما هي أهم الأنشطة التي كانت تتيحها لكم فيكتوريا؟

كل سنة كنا ندرس مسرحية لشكسبير ورواية لأحد أهم المؤلفين البريطانيين الكبار ومنهم: توماس هاردي،

وتشارلز ديكينز، وذلك لم يكن له علاقة بكوننا طلاب الأدبي أو العلمي.

وكنت مسؤولًا عن الإذاعة المدرسية بكلية فيكتوريا في المعادي، وكانت الكلية لها الفضل في الاهتمام بأشياء وأنشطة كثيرة ومتنوعة خارج المناهج الدراسية، وكان الهدف التربوي هو تشكيل شخصية الطالب وتكوينه، وفتح الباب على مصراعيه أمام الهوايات، وأتذكر أننا كنا نقوم بتصنيع الفخار، كانت المدرسة تأتي لنا بالطمي، فنما عندنا حبّ الفن التشكيلي. وكان لدينا إسطبل خيل لا مثيل له، فتعلمنا الفروسية.

■ **ما هي الرياضة التي كنت تفضلها أثناء الدراسة؟**

كنت في فريق التمثيل المدرسي لم أكن ميالًا لممارسة الرياضة غير أنها كانت إجبارية، فكانت لدينا حصتان للرياضة. أذكر في فريق التمثيل كان يؤدي دور هاملت فتى وسيم قوي البنية وكان يدعى ميشيل شلهوب، حينما كبرت عرف في العالم كله باسم عمر الشريف، وتشاء الأقدار أن يقطن معنا في عمارة لوبون في الزمالك مع الفنانة فاتن حمامة فأصبحنا جيرانًا بعد سنوات طويلة.

■ **ما هي أهم القيم التي زرعتها فيكم كلية فيكتوريا؟**

أهم ما زرعته فينا فيكتوريا كان كيفية التعايش معًا كطلاب من مختلف الجنسيات، والروح التنافسية والروح الرياضية، وأتذكر جيدًا المباريات الرياضية الثلاثية التي كانت

تقام كل سنة ما بين ثلاث مدارس إنكليزية كبرى في مصر هي: كلية فيكتوريا، والإنكليش ميشن، والإنكليش إسكول.

■ هل ترى أن التعليم البريطاني ساعد على عمل غسيل مخ للبعض مما يجعله أقل وطنية؟

لم ينتقص تعليمنا البريطاني من وطنيتنا بل كنا ضد الإنكليز كمحتلين وهو ما ليس له علاقة بدراسة أدبهم وثقافتهم، خصوصًا مع حرب 1956 وتأميم القنال، وقيام حركة وطنية قوية، تحركت بداخلنا أيضًا مشاعر الوطنية وكان الفضل لمنصور حسن الذي كان قائدنا ومشعل الوطنية فينا، فكل من تعليمنا وثقافتنا الإنكليزية لم يحولا دون الاهتمام والانجراف وراء المشاعر الوطنية.

■ من كان أقرب معلم لك في الكلية سواء من المصريين أو الإنكليز؟

كانت أقرب المعلمين لي مسز رادلي وكانت مديرة القسم الابتدائي بالكلية. وأتذكر كيف كانوا يعلموننا الإنكليزية الفصيحة ويرفضون تمامًا سماع اللكنة الأميركية، فكان من يقول كلمة أميركية يعاقب ويكتب جملة 300 مرة مثل «لا يجب أن أقول « HI» هاي بل يجب أن أقول «good morning».

■ هل تسبب تعليمكم في كلية المشاهير والعظماء في خلق حالة من العزل والشعور بالاغتراب عن المجتمع المصري؟

أي نظام تعليمي يقاس بمدى قدرته على تخريج أجيال قادرة على الاندماج في أي مجتمع، وأعتقد أن كلية فيكتوريا خلقت تلك الأجيال التي اندمجت وتفاعلت في مختلف المجتمعات حول العالم. اعتبر أن تعليمنا في فيكتوريا كان فرصة أتاحت لنا الانفتاح على ثقافات عديدة عربية وأوروبية وآسيوية وأفريقية، فقد كنا نسمع لغات ولهجات كثيرة ساهمت في تكوين ثقافة كونية.

■ **هل لك ذكريات خاصة مع جمعيات «الفيكتوريين القدامى؟»**

بالطبع أذكر جلالة الملك حسين، رحمه الله، حينما دعانا إلى عمان كقدامى الخريجيين كان احتفاءً كبيرًا نابعًا من أنه احتفاء بالزمالة.

سمير صبري.. الطالب الذي خدع العندليب

الفنان سمير صبري، من مواليد الإسكندرية عام 1949، بدأ حياته العملية وهو لا يتعدى العاشرة من عمره مع إذاعة البي بي سي، وهو فنان متعدّد المواهب وله بصمات في المجال الإعلامي والفني، واشتهر كمقدم برامج بارع وكان من أشهر برامجه الإذاعية برنامج النادي الدولي، وقدم للسينما أفلامًا أصبحت علامات في تاريخها، وبلغ رصيده الفني 138 فيلمًا، والعديد من البرامج والمسلسلات التلفزيونية المتميزة، حينما حدثته عن فكرة الكتاب رحّب تمامًا وشعرت بحنينه الجارف لأيام الدراسة في فيكتوريا، ووجدته يهاتفني وحددنا

موعدًا والتقيته في القاهرة في المكان المحبب إليه فندق ماريوت الزمالك، فإلى الحوار:

■ **هل لنا أن نسترجع معك ذكرياتك مع كلية فيكتوريا الإسكندرية؟**

داومت في كلية فيكتوريا بالإسكندرية لمدة عام واحد فقط، كنت وقتها في مرحلة الحضانة، واستكملت باقي السنوات التعليمية في فيكتوريا المعادي حتى الانتهاء من التوجيهية. كانت مدرسة رائعة حيث كانت تقبع في المعادي الهادئة، فهو حي عامر بالأشجار والفيلات، كانت رياضة ركوب الدراجات المفضلة للجاليات الأجنبية الكبيرة بها، وكان خلف المدرسة جبل وصحراء، وكان الأساتذة يأخذوننا لتسلق الجبل. كان الاهتمام بالرياضة عاليًا جدًّا، ولم تكن هناك لعبة رياضية غير موجودة. كان اليوم الدراسي طويلًا ولكن الغداء يبدأ من الساعة 12 إلى الواحدة.

■ **هل كانت حقًّا مدرسة العظماء والمشاهير؟**

كانت المدرسة الأولى في الشرق الأوسط. كلية فيكتوريا كانت ذائعة الصيت في كل أنحاء العالم العربي، وكان وقتها من يدخل ابنه فيكتوريا يكون من الأثرياء. كانت المصاريف 300 جنيه في السنة، وكانت وقتها مصاريف باهظة جدًّا. وكان من شروط القبول الاستعلام عن أسرة الطالب، وكانت تشبه الدخول على كليات الشرطة والجيش. كان الامتحان يأتي من أوكسفورد وكامبريدج مغلقًا بالشمع الأحمر ويفتح في الوقت ذاته الذي يُفتح فيه في لندن.

■ هل تتذكر أول مدير مصري وهل حدث تغيير شديد بعد الإدارة الإنكليزية؟

عاصرت حصار الإنكليز من أستاذة وناظر، الأساتذة الإنكليز جميعهم كانوا يقطنون المعادي ولكن الناظر كانت له فيلا داخل المدرسة نفسها. وجاء بعدهم إيرلنديون مع مصريين وذلك بعد العدوان الثلاثي سنة 1956. وجاءت أول ناظرة مصرية بعد الإنكليز.

■ هل تتذكر من كان «قائد الطلبة» «Head Boy» أول دخولك الكلية؟

«الهيد بوي» كان الأكبر سنًا ويكون الأكثر تفوقًا، ولكن وقتها كان منصور حسن وزير الثقافة والإعلام فيما بعد، الشخصية القيادية التي انسقنا وراءها جميعًا، ولم نكن نفهم سبب خلافه مع الإنكليز أو معنى الوطنية. أوائل الخمسينيات كانت هناك معارك في القناة، وكنا وراءه في كل آرائه السياسية أستطيع أن أقول إنه شكّل وجداننا الوطني.

■ هل كنت متفوقًا في رياضة معينة، وهل كنت تشارك في اليوم الرياضي لكلية فيكتوريا؟

كنت أمارس كل الرياضات: الكريكيت والتنس وركوب الخيل والسباحة، وطبعًا كرة القدم، وكنا دائمًا ما نلتقي في معركة فيكتوريا «إسكندرية والقاهرة». ولكن الأهم من الرياضة أيضًا كانت ميزة الاهتمام بالثقافة العامة والقراءة.

■ كيف تشكل وجدانك الأدبي في فيكتوريا؟

كان المدرّس يوزع علينا مرتين في الأسبوع كتبًا مثل «هاملت» وكنا 12 طالبًا في الفصل. في نهاية القراءة الأولى يطرح علينا سؤالًا، لماذا لم ينتقم هاملت؟ فنبدأ نفكر ما هو تركيب وتكوين شخصية هاملت؟.. مع صغر عمرنا وكنا وقتها 8 سنوات مثلًا. فيقول لنا هناك 35 كتابًا يتحدث عن شخصية هاملت، ابحثوا عنها واكتبوا رأيكم الخاص عن شخصيته، ثم نناقش تلك الشخصية في الفصل. ومع صغر عمرنا علّمونا كيف نتكلم ونتناقش ونحترم الرأي الآخر ونعبّر بالكلام دون خجل. ولما دخلت كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية كان الأدب الإنكليزي بالنسبة لي «لعب عيال» لأن الأساس سليم.

■ صف لنا شعورك حينما اعتليت خشبة مسرح فيكتوريا لأول مرة؟

كان شعورًا رائعًا وكنا نشعر بثقة شديدة خاصة مع تصفيق الجمهور، وكنا لا بدّ أن نقدم مسرحيات في نهاية العام واحدة كلاسيكية وأخرى كوميدية، ثم بعد ذلك قدمنا مسرحيات عربية ومنها «الأيدي الناعمة» لتوفيق الحكيم، وقدمنا أعمال شكسبير وبرنارد شو.

فضلًا عن أنني كنت في جميعة التمثيل وكل أسبوع كنا نختار مسرحية ونمثلها أمام الأساتذة، وكان يشرف علينا ثلاثة معلمين إنكليز أتذكر منهم مستر هيل، شجعوني واكتشفوا موهبتي. كان لمسرح كلية فيكتوريا لا شك أثّر فيّ أنني مثلت على مسرح الجامعة، ثم لعبت أدوارًا سينمائية مع العملاق فؤاد المهندس

ومنها «أخطر رجل في العالم»، و«شنبو في المصيدة» ودور في فيلم «اللص والكتاب»، وهو ما أفادني في حياتي العملية أن أعمل وأنا في سن مبكرة، وطعم الكسب وكيف أكسب، بلا شك تعليمي في فيكتوريا كان له الفضل في تكوين شخصيتي.

■ ما هي أهم قوانين كلية فيكتوريا الصارمة؟

لا دين ولا سياسة علم فقط. تعلمنا أن نظل طوال حياتنا نتعلم وهو ما دفعني بعد ذلك لتعلم العديد من اللغات فإلى جانب الإنكليزية والفرنسية تعلمت من أصدقائي وزملائي الإيطالية واليونانية والإسبانية، فعشقي للعلم والثقافة ووجودي في الإسكندرية ساهم في ذلك. ومن القوانين أيضًا: ممنوع التحدث بالعربية.

■ ما هي أنواع العقاب الصارم الذي كانت تطبقه كلية فيكتوريا وأنت طالبًا بها؟

كانت مدرسة صارمة جدًّا برغم أن بها أثرياء العرب، وكان الضرب بالعصا لو هناك أي أمر خطأ، وأما إذا تحدثتِ بغير الإنكليزية فعليكِ الدوران حول ملعب كرة القدم أربع مرات، أو كتابة جملة مثل: «مش حعمل كده تاني» مائة مرة. وقد أخذت العقابين. ولو كان الأمر خطيرًا كان يستدعي الناظر الطالب ليضرب على المؤخرة ثلاث مرات، ولكن الحمد لله لم آخذ ذلك العقاب البشع.

■ كيف لعبت الكلية دورًا في تكوينك الفني المتنوع؟

أذكر أن الأساتذة الإنكليز كانوا يدعوننا لمشاهدة الأفلام

العربية المأخوذة عن روايات أجنبية. ومنها كان فيلم ليحيى شاهين وماجدة عن «جين آير» قصة إيمي لوبرنتيه، «مرتفعات واذرينغ» كان اسمه «الغريب»، وكان زمان الأفلام العربي عليها ترجمة فرنسي. وكان يطلب منا قراءة الرواية الأصلية ومقارنة التغييرات التي تمّت بها، وكان أهم ما يركزون عليه: قل رأيك.

▪ هل صدمت بنظام التعليم الجامعي حينما تخرجت من كلية فيكتوريا؟

في الجامعة كانت هناك غيرة شديدة من طلاب فيكتوريا كانوا ينظرون إلينا باعتبارنا مدلّلين ومرفهين ونتباهى باللغة الإنكليزية ولكنها كانت لغتنا الأولى، لذا فقد كنا نجتمع مع خريجي مدارس اللغات الأخرى.

▪ هل تعليمك في فيكتوريا جعلك تعشق كل ما هو بريطاني؟

لقد كانت بريطانيا العظمى لم يكونوا في حاجة لتعليمنا حب ثقافتهم أو كل ما يتعلق بهم، ولما بدأنا نعي معنى الوطنية والاحتلال لم تَحُل ثقافتنا دون ذلك بل على العكس كنا نثور ضدهم، كان حبنا الطاغي للمدرسة والأساتذة الإنكليز فقط.

▪ من أشهر الخريجين الذين ربطتك علاقة صداقة بهم؟

اهتم الملك حسين بجمعية فيكتوريا وحضرت أحد اللقاءات معه في الإسكندرية، وأقام أربع حفلات برعايته، وكان أحمد رمزي وعمر الشريف «إسكندرانية» ومن الطلاب الذين نقلوا إلى فيكتوريا شبرا لكنني حينما دخلت الكلية كانوا هم في

أوج شهرتهم وكانوا يقدمون أفلامًا سينمائية رائعة ويتحدث عنهم العالم العربي كله، كانوا نجومًا ويمثلون مع عبد الحليم حافظ، وكانت الكلية كلها تفخر بأنهم من الخريجين، بالطبع التقيتهم بعد ذلك ولكن خارج إطار الكلية. ولي صداقة جيدة مع عدد كبير من الخريجين العرب والمصريين ومنهم: رئيس وزراء الأردن زيد الرفاعي والشيشاكلي وكان على رأسهم الراحل منصور حسن.

■ الشخصية المشاكسة من سمات طلاب كلية فيكتوريا، هل لك أن تروي لنا أحد المواقف التي كنت بطلها؟

نعم كنا مشاكسين في حدود اللياقة، ومن المواقف الطريفة التي قمت بها كانت مع العندليب الأسمر عبد الحليم حافظ، حينما انتقلت مع والدي إلى القاهرة كان عمري تسع سنوات، كنا نقطن أسفل الطابق الذي يقطنه عبد الحليم، وكنت يوميًّا أنتظره في «البلكونة» الشرفة حتى أراه وهو يدخل العمارة ليأخذ المصعد، كنت أنزل فورًا حتى أمر أمامه على السلم وأتحدث معه وحتى ألفت نظره أفهمته أنني أميركي الجنسية واسمي بيتر، وظللنا سنة على هذه الحال وطلبت منه حضور تصوير أحد أفلامه. وقد صدّق ذلك لطلاقتي بالإنكليزية.

عندها «زوغت» هربت من المدرسة وحضرت تصوير الفيلم وفي هذا الوقت كنت أمثل مسرحيات المدرسة.

■ هل لا زلت على علاقة بأي من زملاء الدراسة؟

أحيانًا نتقابل والحياة فرّقتنا، معظمنا هاجر والآخر

توفي، وفعلًا الرابطة التي تجمعنا أننا كلنا واحد وهي صلة روح وثقافة ويمكن أن تكون صلة دم.

■ بما أنك أحد أبرز الفنانين الذين أنجبتهم كلية فيكتوريا، فهل كنت تشارك بأغنياتك واستعراضاتك في حفلات الخريجين؟

كنا نعمل حفلات سنوية لفيكتوريا نغني فيها، وشاركت بالغناء في أكبر احتفاليتين جمعت خلالهما «الفيكتوريين القدامى» من مختلف أنحاء العالم، وكان معنا حشمت ابن الفنان الكبير عبد العزيز محمود، وابن رمسيس نجيب. وحاليًّا في اجتماع شهري على العشاء، ونستضيف شخصية بارزة مثل: أنيس منصور وإحسان عبد القدوس، أو في أي مجال لتلقي محاضرة حتى ونحن مجتمعون لا بدّ أن نستفيد.

الفصل الحادي عشر

الفيكتوريون القدامى
يقومون برحلة عُمرة سنوية

المهندس علي صالح.. أمين صندوق جمعية خريجي كلية فيكتوريا القاهرة. هو الدينامو المحرك لأنشطة جميعة الخريجين في القاهرة، وهو من الفيكتوريين القدامى الذين حظوا بتجربة الدراسة في فيكتوريا الإسكندرية، وفيكتوريا شبرا، ثم فيكتوريا المعادي، وله قصص وذكريات خاصة، فهيا إليها:

■ كيف كانت قصة تأسيس جمعية لخريجي فيكتوريا القاهرة؟

قرر عدد من الخريجين من فيكتوريا القاهرة تأسيس جمعية منفصلة يكون مقرّها في القاهرة، ورئيس مجلس إدارتها منذ نشأتها هو المهندس إسماعيل عثمان، وعضويتها مفتوحة لأي تلميذ «حتى إذا كان دخل كلية فيكتوريا لسنة واحدة فقط».

■ ما هي الأنشطة التي تقومون بها؟

من الأنشطة الثابتة هي العشاء الذي يقام شهريًا على نيل

القاهرة، ويجمع الكثير من الفيكتوريين القدماء ويأتي محاضر مرموق ليتحدث في السياسة أو الأدب وكان من بينهم أنيس منصور وعمرو موسى. كما نقوم برحلة عُمرة كل سنة نلتقي الزملاء السعوديين ويستضيفنا كل سنة محمد الشربتلي ويكون لقاء سنويًا رائعًا، وكان قد شجعنا عليها هشام الناظر، سفير المملكة السعودية السابق في مصر فضلًا عن الرحلات الداخلية والخارجية.

■ تضمّ الجمعية شخصيات مرموقة وكبار رجال الأعمال في العالم العربي، فكم هي قيمة الاشتراك في الجمعية؟

الاشتراك في جمعية القاهرة 250 جنيهًا، ويتمّ التبرع من قبل رجال الأعمال لمساعدة الطلاب غير القادرين على استكمال تعليمهم، وذلك في كافة المدارس وليست منحة خاصة بطلاب فيكتوريا.

■ حدثنا عن معايشتك لفيكتوريا في ثلاثة أماكن مختلفة، هل شعرت بفارق بين الإسكندرية والقاهرة؟

في البداية درست في فيكتوريا بالإسكندرية ثم انتلقت إلى شبرا ثم المعادي، وكنت day boy و border أي طالب يومي، وطالب القسم الداخلي وهي أمر مختلف تمامًا، والميزة الكبيرة جدًا في القسم الداخلي في كلية فيكتوريا أننا كنا نعيش معًا. وأذكر أنه حينما انتلقت لشبرا كان الإقبال على الكلية شديدًا جدًا خاصة وأنه لم يكن يوجد غير الانكليش ميشن والانكليش إسكول.

وأذكر أنه في مدرسة المعادي كانوا يجمعون التبرعات من أجل بناء فيكتوريا المعادي 1952 على 22 فدانًا، وكانت مدرسة

بها كل ما يمكن تخيله. وكان جميع المدرسين إنكليزًا على مستوى عالٍ جدًا، وكان المصريون هم فقط مدرسو اللغة العربية.

■ تحديدًا ما هو أهم ما تعلمته في فيكتوريا الإسكندرية والقاهرة؟

جميع المدرسين والمعلمين كانوا على أعلى مستوى وتعلمنا منهم الكثير بغضّ النظر عن العلم، تعلمنا أصول الحديث والأكل وأهمية الرياضة، والصواب والخطأ والصرامة وأن الخطأ لا بدّ أن يتبعه عقاب. كان كل شيء بمواعيد، الاستيقاظ في جرس والمشرف يمرّ، نستيقظ ثم نستحم وننزل لتناول الإفطار قبل حضور الطلاب، وكان هناك مواعيد لتأدية الواجبات الدراسية وكل شيء كان يتمّ بنظام، المدرسة تنتهي الساعة الثالثة، هناك وقت للترفيه من الثالثة إلى الخامسة مساء، ووقت للمذاكرة من السادسة إلى الثامنة، ثم العشاء ومن بعدها ساعة مفتوحة حرّة ثم ميعاد النوم. تعلمنا قيمة وأهمية الفن والرياضة، فكان كل أسبوع لا بدّ من مشاهدة سينما وكنا نمارس الغولف والكريكيت وكرة القدم التي كانت ألعابًا أساسية.

■ هل هناك حكاية معينة سمعتها أو تعرفها عن أحد المعلمين أو المديرين الإنكليز؟

أتذكر جيدًا مدير فيكتوريا سير إليوت سميث كان لديه حصان عربي أصيل غاية في الروعة ولما جاء وقت رحيله عن مصر لم يكن مستوعبًا أن يترك حصانه هنا فأطلق عليه الرصاص فأرداه.

■ هل تعرضت لصدمة بعد أن ترك المعلمين الإنكليز الكلية؟

سنة 1956، كان عمري وقتها 14 سنة تبدل المعلمون الإنكليز بالمصريين وواجهتنا مشكلة في «اللكنة» الإنكليزية لأننا كنا مؤسّسين على أعلى مستوى.

■ بمعايشتك فيكتوريا الإسكندرية والقاهرة تكوّنت لديك صداقات عديدة، أليس كذلك؟

بالتأكيد، وهو كنز لا أستطيع أن أقدّره بثمن، وكان من زملائي محمد رضوان، وزير الثقافة الأسبق، وكنا معًا في القسم الداخلي ومحمد الشربتلي من السعودية، واللواء محمد بركات وهو مدير أمن حاليًا، وعلي بدوي كان عضو مجلس الشورى لمدة 14 سنة. كان معي في الهاوس «الأسرة» الرياضي الشهير «سمير زاهر» وكانت أسرتنا دائمًا ما تحصد الكؤوس.

■ هل كان الانتقال إلى القسم الداخلي أمرًا صعبًا أم أنك كنت تشعر بأن المدرسة بيت لك؟

لما توفي والدي وعندي 12 سنة وكان لنا ثلاث خروجات «Leaves» خارج الكلية لزيارة الأهل والمبيت خارج الكلية في التيرم وهو ثلاثة أشهر. وكان أمرًا صعبًا لكن بعد ذلك أدركت قيمة الترابط بيني وبين زملاء الكلية لدرجة أننا يمكن أن نتعرف على بعض حتى بعد مرور 50 سنة.

■ وما هي ذكرياتك عن اليوم الرياضي، هل كان يختلف عن الإسكندرية؟

لا ، ولكن كان هناك إضافة وهي يوم «Triangle sports» كان يومًا رياضيًّا يُقام في القاهرة يضم مدارس كلية فيكتوريا ، والانكليش سكول، والانكليش ميشين. وكانت أشبه بأولمبياد مصغر. وكان لا بدّ من ماتش كرة قدم وكريكيت بين فيكتوريا القاهرة والإسكندرية.

كان لنا زميل دراسة سعودي اسمه «رفيع» يجري مئة متر في أقل من عشر ثوان كان بالنسبة لنا يطير، ولما التقيته في السعودية وجدته سمينًا جدًّا فلم أصدق أنه هو وكانت تلك من الطرائف التي تجمعنا.

■ **كيف كان التعايش بينكم وبين الطلاب اليهود؟**

ومن القصص الطريفة التي لعبت كلية فيكتوريا دورًا فيها كان حينما سافرت للدراسة في لندن، وكنت أعمل مقابلات في عدد من الجامعات، ثم كان لدي موعد مقابلة في جامعة City university في مكان على الأطراف، وجاءني خطاب بأنني يجب أن أقابل دكتور يدعى كوهين، وطبعًا توقعت أن يتمّ رفضي لأنه كان ذلك بعد الحرب، وكنت قد أرسلت سيرتي الذاتية وفيها أنني خريج كلية فيكتوريا، وكنت مترددًا في الذهاب وكان الموعد بعد الظهر، وفي النهاية اتخذت القرار وذهبت، وما أن دخلت ظل يتحدث معي عن المدرّسين وعن فيكتوريا ولم يسألني أي شيء واتضح لي أنه كان Old Victorian وترك المدرسة عام 1948، وتمّ قبولي على الفور في الجامعة ودرست الهندسة هناك. وهو أمر يبرز الرابطة

العجيبة والعلاقات الإنسانية بين الفيكتوريين رغم العداوة ما بين اليهود والعرب، لذا أي جمعية خريجين في مصر أو في العالم لم تستطع أن تخلق تلك الروابط بين خريجيها.

■ **هل هناك ذكريات معينة تعتزّ بها من خلال لقاءات جمعية الخريجين؟**

من الذكريات الجميلة أن أول اجتماع لنا في القاهرة حضره فرغلي باشا في رمسيس هيلتون.

كان أيضًا اللقاء الذي دعانا له عدنان خاشقجي في «ماربيا» على اليخت الخاص به وكان حوالي 90 مترًا، ومزرعة البركة الخاصة به، وكان لقاء جمع معظم الفيكتوريين القدماء.

أكرم النقيب

والدته الملكة ناريمان آخر ملكات مصر، وشقيقه منها هو آخر ملك لمصر هو أحمد فؤاد الثاني، وهو محامٍ شهير بالإسكندرية ووالده كان أول رئيس لجمعية خريجي كلية فيكتوريا.

■ **هل كان دخولك إلى كلية فيكتوريا تنفيذًا لتقليد عائلي؟**

انتقلت لفيكتوريا من حضانة إنكليزية اسمها «وودلي» في مصر الجديدة ثم مدرسة الانكليش ميشن في سراي القبة، ثم الـ «Britsh Boy School» ثم كلية فيكتوريا. وانتقالي بين كل تلك المعاهد الإنكليزية جعلني لم أصطدم بالنظام الصارم في فيكتوريا لأنه كان سمة عامة في كل المدارس البريطانية. نظام تعليمي قائم على الانضباط وكان

انتقالي يؤكد لي أنه نظام حياة لا بدّ أن أكمل حياتي وفقًا له. كانوا يركزون على بناء الإنسان لكي يكون نافعًا لمجتمعه وبلده. فكان الانضباط أسلوب حياة أبدأه من البيت ويستمر في المدرسة، فكل يوم كنا نتطلع أن نتوجه للمدرسة التي تعلمنا أن نعتز بها. جرس المدرسة النحاسي كان شيئًا رائعًا، كان مقدسًا بالنسبة لنا أن نذهب فورًا إلى الفصل.

■ **برأيك، هل كانت الكلية صارمة أكثر مما يجب؟**

على الإطلاق، وإلّا كنا سنشهد انهيارًا تربويًا كالذي نراه الآن، لقد أهّلنا نظام التعليم أن نحافظ على سلوكياتنا ونجتهد حتى نكون جديرين بالتكريم وألا نعاقب. كان العقاب أحيانًا يؤدي لحرماني من الذهاب إلى المدرسة لعدة أيام، وهو ما عمل على زيادة تعلقنا وحبنا للكلية.

المعلم بالنسبة لنا كان إنسانًا هامًا جدًا مثل والدي ووالدتي حينما كانوا يقسون علينا كان من أجل التعلم. لم يكن هناك ضرب بقوة أو بعنف، كما أن تأثير شخصية المدرّس كان كافيًا لأن نلتزم، كما كانت أناقتهم والتزامهم دافعًا لالتزامنا.

■ **هل كانت الكلية تعمل على «نجلزة» الطلاب؟**

على العكس، كان هناك الكثير من المعلمين إنكليز متمصّرين وُلدوا في مصر من أبوين إنكليزين انتقلوا للعيش في مصر منذ عهد محمد علي باشا، وكان البعض منهم قريبًا جدًّا من الثقافة المصرية، كان نسيجًا مجتمعيًا ساهم في بناء هذه المعاهد، وكان بينهم يهود وأرمن وشوام وفرنسيون وطليان،

كانت طبيعة المجتمع المصري كذلك ربما تكون تلك المعاهد الأجنبية ولدت بإدارات أجنبية لكنها انصهرت داخل المجتمع المصري. لم يكن هناك إنكليز وفرنسيون كلهم كانوا متمصرين واعتادوا على العادات المصرية، والكل اتفق على أن يمارس ما يخصه من عقيدة وإيمان في إطار نظام عام منعكس داخل الأسرة والبيت والشارع والمدرسة.

■ **ولكن كان للكلية نشيد خاص بها يمجد ملكة بريطانيا؟**

كنا نقول النشيد الوطني ثم نشيد المدرسة، فكل مدرسة لها نشيد خاص بها وبه معانٍ تدور حول الأخلاق والسمو والتفوق.

دخولنا مدرسة إنكليزية لم يعنِ الخروج عن أصولنا المصرية أو عن الأصول في تعلم اللغة العربية، لكن طالما دخلت مدرسة إنكليزية كان جزءًا من إتقان اللغة هو عدم التحدث بسواها والذي هو نوع من التدرب، كما كان في المدارس الإيطالية والألمانية. ولما نتقابل نتحدث الإنكليزية نحن لا ننتقص من مصريتنا.

■ **أنت تنحدر من دماء ملكية، فكيف كان التعامل معك هل كان لذلك اعتبار؟**

لم يكن هناك تفرقة بين أبناء العائلات الملكية أو الوجهاء أو النبلاء وغيرهم، لم يكن أحد يجرؤ على سؤال أي طالب من أنت أو من أين جئت أو أنت ابن من؟ كل معلم وكل مدير حريص على إكمال رسالته التعليمية.

■ **هل كان دخولك كلية فيكتوريا تقليدًا عائليًا؟**

والدي وأعمامي خريجو كلية فيكتوريا، ودخلتها لكوني كنت أرغب في دخول القسم الأدبي في الثانوية العامة رغم أن عائلتي كلها أطباء. كنت مقيمًا في القاهرة مع والدتي الملكة ناريمان بعد انفصالها عن والدي، وحينما حان الوقت للعودة لكنف والدي لاستكمال تربيتي كرجل وانتقلت إلى الإسكندرية ودخلت الـ EGC وهناك تعلمت كيف أتخاطب مع المرأة وكيف أتعامل مع الجنس الآخر، كيف أخاطب البنت أو السيدة وهي الأزمة التي نعاني منها من عدم قدرة الولد والبنت على التعامل مع بعضهم وبالتالي في حياتهم الزوجية فلم يتعلموا أن يشعروا ببعض أن يتنافسوا مع بعض في الدراسة والموسيقى والرياضة وغيرها. وبعد ذلك جاءت فيكتوريا لكي أتعلم كيف أخوض معارك الحياة من خلال تأهيل عالي المستوى فهي كانت مصنعًا الرجال.

■ **هل حدث أن شكوت لوالدتك الملكة، أو والدك من قسوة الكلية في موقف ما؟**

بالعكس كانت والدتي دومًا تقول لي «اتفضل على مدرستك، لا تتأخر على مدرستك» هناك مواعيد محددة لاستيقاظ ووقت للاستعداد والتأهب للذهاب إلى المدرسة، كانت تحفزني على الذهاب للكلية والانضباط والاجتهاد والتفوق، كانت تعدّني كل عام لرحلة استلام الزي المدرسي من «هانو» أو «شيكوريل» أو «صالون فير» كل تلك كانت أشياء مقدسة ولها بروتوكول معين. حتى أدوات المدرسة كان لا بدّ أن يكون الكشكول أو «الكراس» مغلفًا بلون الزي نفسه،

والكتب يجب أن نحافظ عليها دون إهمال لأنه سيطلب مني تسلميها لآخرين بعدي. وكان الانتقال من مرحلة دراسية إلى أخرى يمثل احتفالية كيوم التخرج.

▪ هل كانت تحرص على حضور المسرحيات التي كنت تؤديها على مسرح «بيرلي هول»؟

بالتأكيد، وكان التمثيل على المسرح ينمي فينا كسر الحواجز مع المشاهدين، الخطابة والجرأة والوقوف على خشبة المسرح، كلها تدرب على الحياة.

▪ ما هي ذكرياتك عن يوم تخرجك من كلية فيكتوريا؟

يوم التخرج كان احتفالًا مهيبًا وكان القائمون على العمل العام يتمّ دعوتهم، رجال التربية والتعليم ونُظار المدارس الأخرى ووكلاء الوزارة والوزير والمحافظ، كان يومًا مشهودًا في الإسكندرية.

▪ برأيك، ما هو أهم ما يميّز تجربة التعليم في كلية فيكتوريا؟

الاختلاط والتعايش مع الجنسيات الأخرى كان أمرًا جميلًا يجعلنا نتعلم عادات ولغات وتصرفات، وكانت العلاقات رائعة بيننا وبين المدرسين نذهب معًا للمنتزه والمعمورة وأنطونيادس، التواصل جعلنا عند تخرجنا حريصين على التواصل معهم حتى الآن.

▪ وما رأيك في الحال الذي وصلت إليه الكلية الآن؟

فيكتوريا انتهى بها الأمر وهلهلت، والاهتمام بالنظام والإتيكيت والبروتوكول تلاشى، ليس فقط في فيكتوريا بل في كل شيء، وسجلات المعاهد العريقة مثل فيكتوريا إرث ينبغي أن ننهل منه، وراؤنا إرث رائع يجب أن يعود إليه المسؤولون والقائمون على التعليم.. نجاحنا كخريجين من كلية فيكتوريا ليس بسبب أننا ولدنا وفي أفواهنا ملاعق من ذهب، إطلاقًا كان نجاحًا مبنيًا على الالتزام والجدية.

■ أرى أنك تحتفظ بصور عديدة في مكتبك من فترة دراستك بكلية فيكتوريا وشهادة التخرج منها إلى جانب العديد من الشهادات والصور العائلية، فما السرّ؟

شعار المدرسة يفكرني كلما رأيته بما تعلمته فيها، وتجدد الحنين داخلي إلى المدرسة التي كان لها الفضل فيما أنا فيه الآن. علّمونا كيف نفخر بمدرستنا بتلك المحطة الهامة في حياتنا.

وأرى أنه في تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر، نحتاج لأن نرى أناسًا ملتزمين أمامنا، فهم تعلموا أن يقسوا على أنفسهم من أجل الوطن، والشعوب لا يمكن أن ترتقي بالفوضى، والثورة ليست فوضى.. الثورة تعني أن نغيّر نظامًا ونعيد ترتيب أنفسنا بصرامة... نريد طهارة وانضباطًا وقيادة حكيمة.

الوضع أصبح فوضويًا.. نحن من أول يوم في الثورة كنا نؤدي عملنا وحتى ساعات الليل إما أن نتظاهر أو نقوم بعملنا كلجان شعبية.. هناك واجبات ينبغي على كل مصري أن يقوم بها وأهمها العمل.. العمل على ترتيب أولويات الوطن.

وأبسط دليل على أن النظام الذي أرسته كلية فيكتوريا ناجح جدًا، هو أن بلادنا تحتاج للمنهج نفسه ألا وهو انضباط ونظام وفصل الدين عن السياسة، كما كانت حياتنا في كلية فيكتوريا. مصر كانت بحق باريس الشرق، دبي اليوم مصر من سبعين سنة.

■ **لماذا لم تستكمل جمعية الخريجين ما بدأه والدك د. أدهم النقيب؟**

جمعية الخريجين أُنشئت من أجل دعم المدرسة لكن عدم تعاون الإدارة أدّى إلى هذه الفرقة، خاصة بعد انتهاء فترة الدكتور أدهم النقيب، فلم يكن هناك مثابرة في التعاون مع إدارة المدرسة لتستلهم من خلال ذاكرة خريجيها الغيرة على المدرسة وعلى مكتبتها ومقتنياتها ووثائقها.

اجتماعات الجمعية كانت تمدّنا بروح الشباب، وكل هؤلاء العظماء تشعرين كأنهم في فسحة أو في يوم دراسي، نذكر بعض بالقفشات والمواقف المضحكة والناظر ومواقفه معنا، الروح مهمة جدًا في أشياء كثيرة، تعلمنا كيف نقسو على أنفسنا من أجل هدف محدد ومن أجل النجاح، تعلمنا أن كل مكان وكل وقت له زيّه وهذا وراؤه فكر عميق.

هذا الصرح كان بحق مصنع الرجال وبالفعل هذا الكتاب فجّر فينا أشياء ونأمل أن يفيد هذا الكتاب الأجيال، ففيكتوريا نموذج للتعليم التربوي الذي يخلق الشخصية القيادية، بالفعل كانت تلك الكلية منارة وتعتبر مرجعًا من المراجع التي يجب دراستها جيدًا بتأنٍ للخروج من كارثة الأزمة التعليمية في مصر.

الفصل الثاني عشر

كلية فيكتوريا في عيون الباحثين

الدكتورة سحر حمودة

أستاذة الأدب الإنكليزي بجامعة الإسكندرية، ونائبة مدير مركز دراسات الإسكندرية والبحر المتوسط بمكتبة الإسكندرية، وهي مؤلفة كتاب «كلية فيكتوريا.. تاريخ يتكشف» الصادر بالإنكليزية عن دار نشر الجامعة الأميركية، الذي صدر في احتفالية المئة عام لكلية فيكتوريا. وكانت هي الرائدة في كشف تاريخ تلك الكلية وقدمت توثيقًا تاريخيًا لها.

■ **ما الذي يميّز كلية فيكتوريا من وجهه نظرك؟**

كلية فيكتوريا كانت أكثر من مجرد مدرسة، فقد كانت بوتقة لكل الأديان والثقافات والدراسة بها كانت لمختلف الجنسيات، فكانت بحق مرآة للمجتمع الإسكندري الكوزموبوليتاني في ذلك الوقت.

■ **ما هي العقبات التي واجهتك أثناء الشروع في الكتابة عن فيكتوريا في مئة عام؟**

عملية البحث والتنقيب في أرشيف المدرسة كانت شاقة جدًّا، بداية في فيكتوريا القاهرة لم أجد أي ورقة ولا أي أرشيف ولا أي شيء كنا نعتمد على المقابلات الشخصية.

أما فيكتوريا الإسكندرية فمع البحث في سجلات المدرسة التي كانت مهملة، فبعد أسبوع وجدت غرفة فوق السطوح، ووجدت الكثير من المعلومات الخاصة بكل ما يتعلق بالطلاب. ووجدت أرشيفات بأسماء الطلاب منذ بداية افتتاح المدرسة وحتى ثورة 1952. ولكن هناك الكثير من الأوراق المفقودة التي قد تكون وثائق سرية خاصة بالألمان، ومن المرجح أنهم قاموا بحرقها والتخلص منها إبان الحرب العالمية الثانية لأن مستر ريد كان يعمل في المخابرات البريطانية وكانت هناك مراسلات بينه وبين أولياء أمور هؤلاء الطلاب ومنهم الملوك والأمراء والوزراء، ومنها وثائق كانت أيام الحرب وغيرها لم نعثر عليها.

ومن أكبر المشكلات أيضًا، أننا كنا نطلب معلومات من خريجي فيكتوريا القدامى، كانوا كسالى وقليل منهم من استجاب. في النهاية استطعنا إعادة بناء سيناريو كلية فيكتوريا وساهم د. محمد عوض في التعرف على أسماء وتصنيف الصور.

■ **من خلال رحلة بحثك في خفايا كلية فيكتوريا، كيف تصفينها؟**

المدرسة تعبّر عن تاريخ الإسكندرية تحديدًا ومصر عامة

وعن المنطقة الشرق أوسطية كلها وقت الجلاء وقت الثورة والحرب العالمية الأولى والثانية، لأن كل التغيرات السياسية والجغرافية ستجدين لها انعكاسًا في المدرسة. وفي الكتاب قدمنا سردًا قصصيًا عن حياة هؤلاء الطلاب وهم صغار، مثلًا وهم يقومون بمعاكسة بنات الـ EGC، أي إن الكتاب لا يقدم معلومات تاريخية جافة ما جعله كتابًا ناجحًا ويطبع منه طبعات جديدة حتى الآن وقد بلغ الطبعة الحادية عشرة، فتقريبًا كل سنة يطبع من جديد.

▪ كمؤرخة وأكاديمية متخصصة في الثقافة الإنكليزية، كيف ترين فترات ازدهار وأفول كلية فيكتوريا؟

أتصور أن فترة الثورة والتأميمات كانت الفترة الحرجة لكلية فيكتوريا. ولكن المدرسة صنعت تميزها من شيئين؛ أولًا: كانت مدرسة على النظام الإنكليزي للمدارس الخاصة الإنكليزية التي يذهب إليها أبناء العظماء، وكما قال المؤرخ الإنكليزي الشهير تريفيليان «شيئان إنكليزيان لا يمكن أن يتمّ تقليدهما في العالم كله خارج إنكلترا، البرلمان الإنكليزي والمدارس الخاصة الإنكليزية». ولكن تجربة الإسكندرية كانت ثرية فقد ضمّت فيكتوريا 53 جنسية وديانة فهي تجربة لا يمكن تكرارها في العالم كله.

▪ هل من الممكن تكرار تلك التجربة في المدن العربية التي توجد بها تعددية مثل «دبي»؟

الفرق بيننا وبين دبي أن التعددية التي كانت موجودة بكل

جنسياتها كانوا إسكندرانية مثلًا : إسكندرانية من أصل إيطالي أو أرمني أو تركي أو شامي أو لبناني أو سويسري وغيرها فقد كانوا يعيشون هنا ، وأقاموا بيوتهم، والأهم أن استثماراتهم ومدخراتهم ومستشفياتهم ومدارسهم كانت هنا ، أما في دبي فالعلاقة تعاقدية فقط، ولكن لا يوجد تعايش حقيقي، فلم يصبح الأجانب فيها مثلًا «كأهل البلد» كمن أصبحوا «إسكندريين» فهي تجربة مختلفة تمامًا ، تجربة الإسكندرية انتهت ولن تتكرر لأن الظروف التاريخية اختلفت في العالم. وبالنسبة لفيكتوريا فالكلية حاليًا منهارة، ولن أتطرق للحديث عن تدهورها ، وظروف الإسكندرية اختلفت فلا يوجد غير المصريين.

■ **هل صادف أن درست الأدب الإنكليزي لأي من خريجي كلية فيكتوريا؟**

لا أتذكر أنني قمت بذلك ولكن ربما يكون صادف أنني درست اثنين من خريجي فيكتوريا لكن تحديدًا لا أذكر ذلك فعليًا لأنني أرفض التمييز حسب المدرسة أو التعليم.

■ **لماذا ظلت كلية فيكتوريا ظاهرة فريدة من نوعها؟**

فيكتوريا تمثّل تاريخ الإسكندرية، نشأة المدينة وشخصيتها والتعددية والتسامح، الاختلاط الرائع بين الجنسيات أثرى الأطفال وكانوا يتحدثون لغات مختلفة، وكان الشيء المميز في المدارس الأجنبية هو تأثرهم بتلك الثقافة التي يتعلمونها فكانوا يعبدون أساتذتهم وتلك الثقافة.

وكان بها الشقّ الداخلي الذي خلق لها شخصية فريدة،

وهي تجربة غير موجودة في مصر، وهي تجربة جعلت الطلاب يعيشون يأكلون ويبيتون مع بعض. فيكتوريا كانت أول مدرسة من نوعها في مصر لا تتبع طائفة، فكانت فريدة من نوعها، وكان يديرها الإسكندريون بمختلف جنسياتهم. لذا فهي تجربة تعبّر عن تاريخ مصر للأسف انتهت ولكن يجب أن نستفيد منها.

■ **هل تعتقدين أن بعض الطلاب تمت نجلزتهم أو تأثروا بالثقافة الإنكليزية؟**

بالفعل البعض من الطلاب تعرض لما يسمى «Colonization of the minds» استعمار العقول، وهو أمر خطير جدًّا ولا يتمّ إلا عن طريق التعليم، لأن طفلًا عمره خمس سنوات كل ما حوله إنكليزي مدرسون ولغة وكتب ومادة علمية وتاريخ إنكلترا وجغرافية إنكلترا وثقافة إنكلترا، من المؤكد سيصبح هذا الطفل يفكر بطريقتهم، ومن الممكن أن يصبح ذلك ميزة ويمكن أن يصبح أمرًا سلبيًّا، فإذا فكر الطالب أن يعيش في بريطانيا فسيجد نفسه يصطدم بالواقع بأنه ليس بريطانيًّا، فغالبًا ما كان يقال لهم «أنتم شرقيون»، أو «أنت لست إنكليزيًّا» وهو الأمر الذي قد سبّب لبعضهم صدمة نفسية، وقد مرّ إدوارد عطية بتلك التجربة لأنه لما ذهب إلى السودان ليدرس في مدرسة بريطانية، وأراد أن يستقر في غرفة المعلمين الإنكليز نبذوه وقالوا له «لا، توقف أنت لست إنكليزيًّا. عليك البحث عن غرفة أخرى». كما كتب جورج أنطونيوس أول نصّ ما بعد الكولونيالية، وضد الإمبريالية بأسلوبهم ولغتهم بنفس خطابهم.

على الجانب الآخر، هناك بعض الطلاب استطاعوا الاستفادة من دراستهم في مدارس بريطانية، فاعتبروا أن لديهم ثقافتين، «أنا عربي شرقي ومسلم.. لكنني في الوقت نفسه إنكليزي غربي» هؤلاء الطلاب كانوا هم الوسطاء بين الثقافتين العربية والغربية.

ولكن هناك سؤال يجب أن نلتفت إليه ألا وهو: هل كان «استعمار العقول» هدفًا واضحًا عند الإنكليز لاحتلال عقول العرب أم أنه أمر جاء بالصدفة مع احتلالهم للمستعمرات حول العالم؟!.

كنت طفلة في طرابلس في ليبيا، وكان هناك مدارس أميركية وفرنسية وإيطالية، ووجدت نفسي عقلي وتفكيري كله إنكليزيًا ولكني وجدت استفادة من ذلك واعتبرتها إضافة، فليس عيبًا أن يكون لديك ثقافتان ولغتان، ولما عشت في مصر درست في كلية إنكليزية أيضًا ولكن وطنيتي لم تتأثر بشيء، فأنا أخدم مصر وأعمل بالجامعات المصرية فقد عشت هنا ولن أترك مصر طوال عمري.

■ **من وجهة نظرك، هل هذا ما تعرض له وجيه غالي نفسه صاحب رواية «بيرة في نادي البلياردو»؟**

وجيه غالي كتب رواية عظيمة جدًا، وجديرة بالمزيد من الدراسات والأبحاث وعانى من الانفصام في الشخصية وعبّر كثيرًا عن واقع تلك الفترة التاريخية.

■ **أنت كنت طالبة في مدرسة إنكليزية أيضًا كانت نسخة**

كلية فيكتوريا للفتيات هي الـ EGC، فهل بالفعل قامت تلك المدارس البريطانية بتحويل طلابها إلى عملاء إنكليز؟

المدرسة كان هدفها تعليم قادة المستقبل، وبالفعل كان الإنكليز يستخدمونهم كوسيط بين الشعوب المحتلة وبينهم، ولكن في حالات كثيرة كانوا هؤلاء الوسطاء من ينقلبون على كل ما هو بريطاني بل كانوا وطنيون جدًا، وكانوا يحاولون التوفيق بين الثقافتين، فمثلًا أمين عثمان الذي اتهم بأنه خائن وعميل، درس في أوكسفورد لكن ظل محتفظًا بهويته المصرية العربية الأصيلة لكنه كان يفهم الإنكليز جيدًا، كان يصلي ويصوم ولا يأكل الخنزير، ورغم تأثره بالثقافة الإنكليزية لدرجة أنه كان يكتب مقالات في مجلة الكلية كأنه طالب إنكليزي وليس مصريًا، فقد كان يصف المناظر الطبيعية المليئة بالثلوج في الوقت الذي لم يكن قد سافر إلى إنكلترا أو شاهد الثلوج أصلًا في مصر. لكنه فيما بعد أخذ دورًا وطنيًا وكان يحارب الإنكليز بطريقة مختلفة لأنه حينما يكون العدو أكثر قوة فالطريق الدبلوماسي أفضل وسيلة لذلك، فحاول أن يكون وسيطًا بين الإنكليزي والمصريين في فترة حرجة من تاريخ مصر. ولكن يجب أن نؤكد، أنه ليس كل ما في الغرب سيئًا، لأننا استفدنا منهم، ليسوا أشرارًا وتعلمنا منهم أشياء رائعة جدًا. فهم مثلنا لديهم قيم متمسكون بها، وكما تعلمنا منهم هم تعلموا منا أيضًا. ويجب أن نشير إلى أن المدرسين في كلية فيكتوريا كانوا تربويين فعلًا، ولم يتكلموا في مسألة الدين والعرق أبدًا.

■ هل أثرت تلك التجربة على بعض الإنكليز وخلقت إنكليزًا متمصّرين؟

مستر ريد ظلّ في مصر حتى مماته، وكولين كليمنت الذي ساهم معي في الكتاب جاء إلى كلية فيكتوريا كمدرس، ولكنه ما زال يعيش بمصر منذ 30 عامًا وله بنت تكمل تعليمها هنا، وهو لا يقوى على ترك مصر.

■ هل رصدت أي محاولات للتمييز بين الطلاب في كلية فيكتوريا، فقطعًا كانت هناك بعض الهنات في ذلك النظام التعليمي الصارم؟

بالتأكيد كان هناك مميزات وبعض العيوب، فمن المميزات أن الطلاب المتفوقين كان يتمّ إعفاؤهم كليًّا أو جزئيًّا من المصروفات، وربما كان التمييز الأكبر أن الطلاب الإنكليز يتمّ قبولهم فورًا.

■ ما هو الأمر المثير في كلية فيكتوريا؟

كانت الكلية تضع خطة تعليمية للأمراء تمهيدًا لكي يصبحوا ملوكًا، فمثلًا كان من المثير العثور على خطابات من مستر ريد إلى ملك العراق كتب فيها عن خطة لإعداد الأمير عبد الإله حفيد الشريف حسين لكي يتولى عرش العراق يومًا، وكان يحدد المواد الدراسية التي يجب أن يدرسها، فكتب أريد أن يزور فرنسا في الصيف ليتعلم الفرنسية، ويذهب إلى إنكلترا ثم سأرسله إلى أوكسفورد وهكذا.

خاتمة

الاستعانة بالقديم لفهم الجديد هو ما ينطبق على قراءتنا لتاريخ تلك المدرسة الظاهرة. فالخوض في تاريخ كلية فيكتوريا يعتبر بمثابة قراءة تاريخية ثقافية اجتماعية لمدينة الإسكندرية التي كانت في عصرها الذهبي وقراءة أيضًا لتاريخ مصر كلها.

تلك القراءة التي تضفي بانعكاساتها على واقعنا الحالي وكيف يعيش العالم العربي حالة من الانقسام والتفكك والتشرذم، في حين أنه كان متناغمًا متجانسًا كتناغم طلاب كلية فيكتوريا الذين حققوا المعادلة الصعبة بانصهارهم تحت ثقافة مغايرة عن ثقافتهم فاستخلصوا رحيقها وأعادوا إنتاجه ممزوجًا بتراثهم ليدحضوا الكولونيالية ويزدادوا تمسكًا بتراثهم وحضاراتهم سواء الفرعونية أو العربية.

الترابط والتعاون بين خريجي كلية فيكتوريا حتى الآن رغم الظروف التاريخية والحروب التي نشبت والعداء بين الدول التي ينتمون إليها، جعل من كلية فيكتوريا ليست مجرد مدرسة بريطانية، وإنما هي مكان يحتفظ بحكايات عن تاريخ مصر والعالم في 111 عامًا، برغم التحول الدراماتيكي لها عقب

1956 وبداية الأفول لمدرسة عريقة مما جعلها... أسطورة تبددت!

كان مديرو كلية فيكتوريا على قدر كبير من العبقرية التي جعلتهم يخلقون فيما بين هؤلاء الطلاب ذوي الأصول الراقية «رأس مال اجتماعي» قبل أن تظهر نظريات علم الاجتماع حوله في أواخر التسعينيات. فقد خلقوا علاقات اجتماعية قابلة للاستنفار في أي لحظة، فمن خلال نظام التعليم المعتمد على الأسر المدرسية التي تربط كل الطلاب من لحظة دخولهم للحضانة وحتى نهاية الدراسة، أصبح كل طلاب فيكتوريا على علاقة قوية ببعضهم البعض. فما أن يحتاج أي فيكتوري إلى مساعدة حتى يهبّ الآخرون لمساعدته والقضاء على أي مشكلة، فكل فرد منهم يستطيع من خلال علاقاته بأبناء كبار المسؤولين في الدولة أن ينجز أموره.

خلقت كلية فيكتوريا ثقافة ما.. هي خلاصة ثقافات العالم وجعلت من مجتمع المدرسة مجتمعًا قويًا له تقاليده وعاداته.. إنه مجتمع «الفيكتوريين القدامى».

بعض خريجي كلية فيكتوريا من المصريين والعرب والأجانب

الاسم	الجنسية	المهنة
إبراهيم الكرداني	مصري	طبيب وإعلامي شهير ومتحدث إعلامي باسم منظمة الصحة العالمية
أحمد رمزي	مصري	ممثل شهير
إدوارد سعيد	فلسطيني	كاتب وناقد
أسامة كمال	مصري	مذيع ومقدم برامج تلفزيونية
أسعد خالد الحمد	الكويت	
إسماعيل شيرين «الفريق»	مصري	آخر وزير حربية قبل ثورة 52 وابن عم الملك فؤاد الأول ملك مصر والسودان وزوج الملكة فوزية
إسماعيل عثمان	مصري	رئيس مجلس إدارة شركة المقاولون العرب
أكرم النقيب	مصري	ابن الملكة ناريمان آخر ملكات مصر، وشقيق آخر ملوك مصر أحمد فؤاد الثاني
أمين عثمان باشا	مصري	وزير مالية مصر في حكومة الوفد
بدر يوسف الحميضي	الكويت	

بسام البسام	الهند	
توفيق صالح	مصري	مخرج سينمائي
توم لوينز	كندي	عالم آثار ومصريات
جابر الحمود الصباح	الكويت	
جاسم الخرافي	كويتي	رئيس مجلس الأمة الكويتي
جاسم محمد الخرافي	الكويت	رئيس مجلس الأمة سابقًا
جاسم المعاودة	البحرين	
جاسم يوسف الحميضي	الكويت	
جورج أنطونيوس	لبناني	أول مؤرخ للقومية العربية، ملقب بكاتب العروبة
حازم نسيبة	أردني	وزير خارجية أسبق وعضو مجلس الأعيان
الحسين بن طلال	الأردن	ملك الأردن
خالد شومان	فلسطيني أردني	رجل أعمال وأحد مؤسسي البنك العربي
خالد عبد المحسن الصقر	الكويت	
رعد بن زيد	الأردن	كبير أمناء البلاط الملكي
زيد بن شاكر	الأردن	رئيس وزراء أردني أسبق
زيد الرفاعي	الأردن	رئيس مجلس الوزراء والأعيان
سليمان خالد الحمد	الكويت	رجل أعمال

سمير صبري	مصري	ممثل وإعلامي
سيمون الثاني	بلغاريا	آخر ملوك بلغاريا ورئيس وزرائها الأسبق
شادي عبد السلام	مصري	مخرج ومصمم ديكور عالمي
الشيخ أمين جميل الدهلاوي	سعودي	رجل أعمال
الصادق المهدي	سوداني	زعيم حزب الأمة حاليًا، ورئيس وزراء السودان الأسبق
عادل علي الحمد	الكويت	رجل أعمال
عبد الإله	عراقي	ولي عهد العراق
عبد الله	الكويت	
عبد الله خليفة الحميدة	الكويت	
عبد الله العطاس	سعودي	رجل أعمال
عبد الله النفيسي	كويتي	مفكر وسياسي وأكاديمي كويتي
عبد اللطيف خالد الحمد	الكويت	
عبد اللطيف البحر	الكويت	رجل أعمال
عبد اللطيف يوسف الحمد	الكويت	وزير المالية الكويتي سابقًا
عدنان الباجة جي	عراقي	مستشار رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة وزير خارجية العراق الأسبق ونجل رئيس وزراء العراق مزاحم الباجة جي

عدنان خاشقجي	سعودي	ملياردير وأشهر تجار الأسلحة في العالم
عصام البسام	الهند	
علي الثنيان الغانم	الكويت	رجل أعمال
علي السنوسي	ليبي	نجل الملك السنوسي
علي عبد الله الجابر الصباح	كويتي	حفيد الأسرة الحاكمة الكويتية ونجل أول وزير التربية والتعليم في الكويت
عمر الشريف (ميشيل شلهوب)	مصري	ممثل عالمي
فاضل دعيج الصباح	الكويت	
فوزي البسام	العراق	
فيرنر فيكسر	ألماني	وزير العدل الألماني
فيصل آل سعود	سعودي	أمير من العائلة المالكة السعودية
فيصل أحمد الحمد	الكويت	رجل أعمال
فيصل بن عبد الرحمن السديري	سعودي	رجل أعمال
قسطنطين الثاني	يوناني	آخر ملوك اليونان وشقيق الملكة صوفيا ملكة إسبانيا
كمال أدهم (الشيخ)	سعودي	رئيس المخابرات السعودية الأسبق

يوسف عبد اللطيف جميل	سعودي	رجل أعمال بارز
ليكا زوغو	ألباني	ملك ألبانيا الأسبق
مايكل عطية (السير)	لبناني - بريطاني	عالم رياضيات
مبارك الهنائي	سلطنة عمان	سفير
محمد سلماوي	مصري	أديب ورئيس اتحاد الكتّاب العرب واتحاد كتّاب أفريقيا وآسيا
محمد الصيرفي	سعودي	طبيب مرموق
محمد الفوزان	السعودية	مذيع
محمود سعيد	مصري	فنان تشكيلي عالمي
مشاري يوسف الحمد	الكويت	رجل أعمال
منصور حسن	مصري	سياسي بارز ورئيس المجلس الاستشاري بعد ثورة 2011
ناصر الخرافي	كويتي	رجل أعمال كويتي ورئيس مجموعة الخرافي
نايف عبد العزيز السديري	السعودية	
هاشم الغربلي	الكويت	
هاني الملقى	أردني	وزير التجارة والصناعة الأسبق
هشام ناظر	سعودي	وزير النفط السعودي
يوسف شاهين	مصري	مخرج سينمائي عالمي

ملحق الوثائق

VICTORIA COLLEGE.

Form of Application.

1. Pupil's name in full...	Ayesha Osman
2. Date of Birth	December 14th 1927
3. Nationality and Religion	Egyptian - Moslem
4. Date of entering School	October 5th 1933
5. Name and Address of Parent or Guardian ... (State relationship to pupil)	Amin Osman (father) Palais, Ramleh
6. State if Boarder or Dayboy.. ... ... (if Dayboy, does he lunch at School or at home?)	
7. CLASSIFICATION :— Division of School ... ... Form	
Extras mentioned in prospectus :— (a) Music (Violin or Piano)... ... ... (b) School Omnibus.. ... ... (c) Boxing... ... ... (d) Scout ... ... (e) Cub	
State if Private Tuition required, and in what subject	
State address to which accounts are to be sent and in what language	Palais, Ramleh

I hereby request the Council of Victoria College to admit the above-named boy as a pupil at College and I undertake full responsibility for the payment at the due dates of all School fees and er sums due in respect of his education and for expenses incurred on his behalf.

(Signature of Parent or Guardian).

Amin Osman

NOTES.

استمارة دخول عائشة عثمان ابنه أيمن عثمان باشا لكلية فيكتوريا وموقعة منه بصفته ولي أمرها بتاريخ تشرين الأول/ أكتوبر عام1933.

VICTORIA COLLEGE
ALEXANDRIA

FORM OF APPLICATION FOR ADMISSION

...name in full ...in BLOCK LETTERS)	Samir SABRY
...of Birth ...of Birth required)	20. 9. 1936
...ality and Religion	Egyptian Moslem
...School, with dates	V.C. Cairo
...ledge of English	good
...of entering Victoria College	oct. 1948
...& Address of Parent or Guardian ...relationship to pupil) ...'s profession or occupation	Colonel Galal Sabry 1 Rue Malika Nazli
...Boarder or Dayboy ...Dayboy, does he lunch at School ...home?)	D.B. lunch at School
...Dayboys: ...the School Omnibus required?	—
...address to which accounts are ...be sent	Colonel Galal Sabry 1 Rue Malika Nazli

...request the Council of Victoria College, Alexandria, to admit the above-named boy as a ...the College and I undertake responsibility for the payment at the due dates of all School ...other sums due in respect of his education and for expenses incurred on his behalf. I agree ...by the regulations as set out in the Prospectus.

(Signature of Parent or Guardian).
Soad Sabry.

...A deposit of L.E. 1 for Dayboys and L.E. 5 for Boarders must be paid when the pupil has been accepted

FOR SCHOOL USE ONLY

...FICATION:
...of School Lower School
U.IX.
Approved: Hubnent
Headmaster.

استمارة دخول الفنان سمير صبري ومدوّن فيها بياناته الأساسية وتاريخ انضمامه لكلية فيكتوريا في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1948، وقد كتب في نهاية الاستمارة أنه في حال قبول الطالب يتمّ دفع مصاريف جنيه واحد، وفي حال قبوله بالقسم الداخلي يدفع مبلغ 5 جنيهات كدفعة مالية أولية.

END OF YEAR 1950/51

Name of Pupil .... M. Toussoun

Form .... L.V.2.

Percentage Marks and Order				REMARKS:
Term. %		Exam. %		
56	24	Ab		*English* Poor. Not working at all. Work when finally brought in careless & untidy. Needs a great effort
Not [illegible]		abs.		*History* [illegible]
35	26	abs.		*Geography* Not the slightest effort to improve
35	21	abs		*French* very unsatisfactory [illegible]
ab.	—	abs	—	*Arabic/~~Latin~~* Has not worked well lately. S.S.
23	27	abs.		*Mathematics* Unwilling to make the slightest effort S.A.
75	19	abs.		*Chemistry* Has worked well.
				Physics ....
				Biology ....

Headmaster ....

بيان بدرجات وتقييم عام لمحمد طوسون أحد أحفاد الأمير عمر طوسون الشهير بأمير الإسكندرية للعام الدراسي 1950 ـ 1951.

VICTORIA COLLEGE,
ALEXANDRIA

BOARDER

Winter Term 1952

ACCOUNT No.: 183

NAME OF BOY Mahdi Sadik School Upper

SCHOOL FEES FOR THE TERM COMMENCING OCT 1953 1 -

	L.E.	m/ms	L.E.	m/ms
School Fees			62	200

EXTRAS FOR THE TERM ENDED

Holiday Boarding Fees

Extra Tea, Milk, Sour Milk

Books

1822/2

File in Saddek El Mahdi file

DAIRAT
SIR EL SAYED
ABDULRAHMAN PASHA ELMAHDI
P. O. B. 218 Khartoum
P. O. B. 19 Omdurman

Khartoum, 14th November, 1952.

attached bill (Account) No.183 we
El Mahdi is not returning to school

Yours faithfully.

(Saddik Abdel Rahman El Mahdi)
GENERAL MANAGER,
DAIRAT EL MAHDI.

IMPORTANT
...ase notify us immediately
...f any change of address.

TOTAL 81 800

Add:

Less:

ملف أوراق السيد الصادق المهدي بكلية فيكتوريا
من لحظة دخوله الكلية إلى أن غادرها بعد عامين.

دائرة طوسون باشا
DAÏRA TOUSSOUN PACHA

14/8/51

Alexandria 11 August 1951 الاسكندرية

The Headmaster,
Victoria College,
Victoria,
Alexandria

1402

Dear Sir,

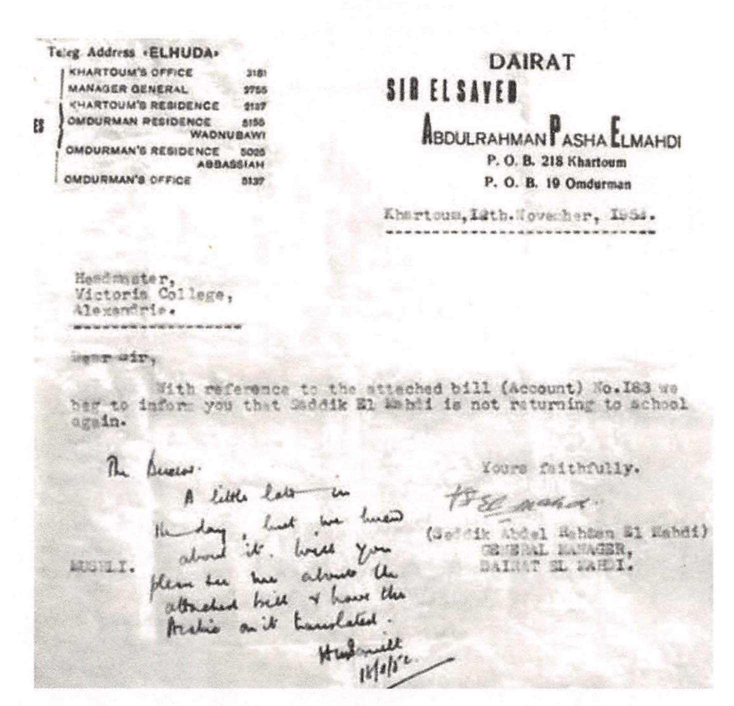
I am directed by His Highness Prince Said Toussoun to convey to you His Highness' thanks for your having kindly sent Him the End of Year 1950/51 Reports on His Sons.

I am also to inform you that, owing to the fact that His Sons will join a teaching institution in Switzerland, His Highness regrets very much their being unable to resume their studies at Victoria College at the next school year or the subsequent years.

His Highness wishes to avail Himself of this opportunity to express you His warmest appreciation for the special care and great attention which were not spared to His Sons during their attending the College, and for which He is much pleased to renew His most sincere thanks.

Yours faithfully,

«خطاب مرسل من دائرة أملاك طوسون باشا إلى إدارة كلية فيكتوريا نيابة عن الأمير سعيد طوسون، يعبّر فيها عن شكره لاهتمام الكلية بأبنائه ويخبرهم بأن أولاده سيضطرون لمغادرة كلية فيكتوريا واستكمال تعليمهم في سويسرا معربًا عن أسفه لذلك».



Teleg. Address «ELHUDA»

KHARTOUM'S OFFICE	3181
MANAGER GENERAL	9755
KHARTOUM'S RESIDENCE	2137
OMDURMAN RESIDENCE WADNUBAWI	5155
OMDURMAN'S RESIDENCE ABBASSIAH	5025
OMDURMAN'S OFFICE	5137

DAIRAT
SIR ELSAYED
ABDULRAHMAN PASHA ELMAHDI
P. O. B. 218 Khartoum
P. O. B. 19 Omdurman

Khartoum, 12th. November, 1952.

Headmaster,
Victoria College,
Alexandria.

Dear Sir,

With reference to the attached bill (Account) No.183 we beg to inform you that Saddik El Mahdi is not returning to school again.

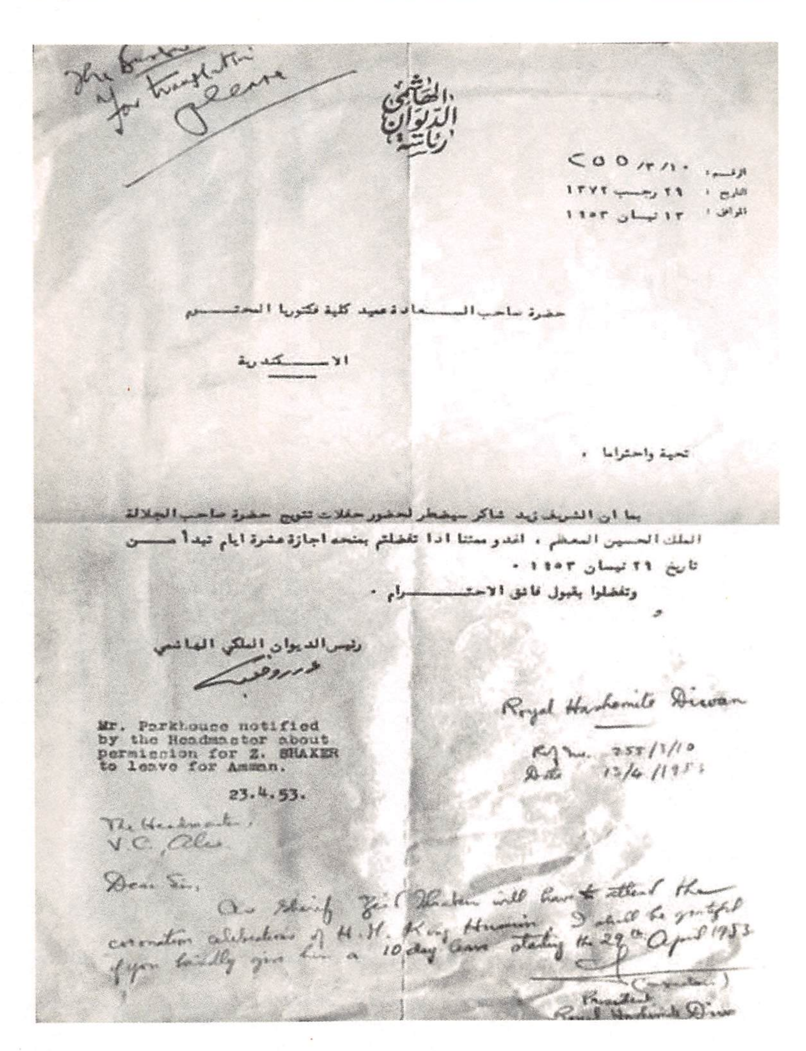
Yours faithfully.

(Saddik Abdel Rahman El Mahdi)
GENERAL MANAGER,
DAIRAT EL MAHDI.

MUSLI.

The Bursar.
A little late in the day, but we knew about it. Will you please see me about the attached bill & have the Arabic on it translated.
[illegible]
[illegible]

خطاب بتاريخ تشرين الثاني/ 12 نوفمبر 1952 من دائرة السيد عبد الرحمن المهدي بأم درمان لإدارة الكلية لإخطارهم بأن الصادق المهدي لن يعود للدراسة بالكلية مرة أخرى.



الديوان الهاشمي رئاسة

الرقم: ٢٥٥/٣/١٠
التاريخ: ٢٩ رجب ١٣٧٢
الموافق: ١٣ نيسان ١٩٥٣

حضرة صاحب السعادة عميد كلية فكتوريا المحترم

الاسكندرية

تحية واحتراما ،

بما ان الشريف زيد شاكر سيضطر لحضور حفلات تتويج حضرة صاحب الجلالة الملك الحسين المعظم ، اغدو ممتنا اذا تفضلتم بمنحه اجازة عشرة ايام تبدأ من تاريخ ٢٩ نيسان ١٩٥٣ .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

رئيس الديوان الملكي الهاشمي

Mr. Parkhouse notified by the Headmaster about permission for Z. SHAKER to leave for Amman.

23.4.53.

Royal Hashemite Diwan

Ref. No. 255/3/10
Date 13/4/1953

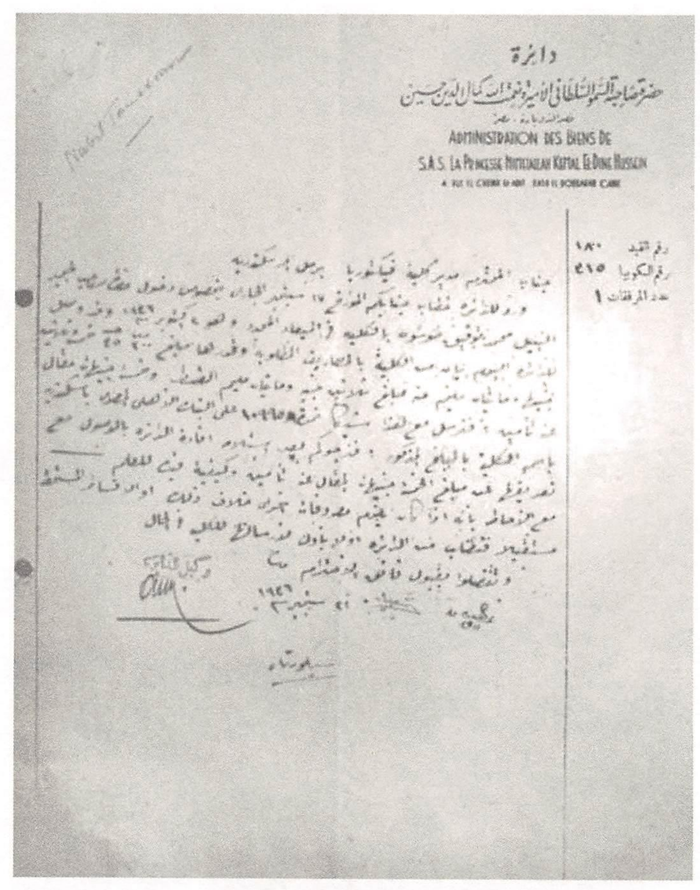
The Headmaster,
V.C. Alex.

Dear Sir,

As Sherif Zeid Shaker will have to attend the coronation celebrations of H.M. King Hussein, I shall be grateful if you kindly give him a 10 day leave starting the 29th April 1953.

(Signature)
President
Royal Hashemite Diwan

خطاب بتاريخ 13 نيسان/ إبريل 1953 من رئاسة الديوان الملكي الهاشمي، يخبر الكلية بضرورة السماح للطالب زيد بن شاكر بمغادرة الكلية لحضور مراسم تتويج حضرة صاحب الجلالة الملك حسين المعظم، وذلك لمدة 10 أيام، وتظهر تأشيرة بأنه تم إخطار مستر بارك هاوس من قبل مدير الكلية(عميد الكلية) وأنه قد وافق على منحه إذن بالمغادرة.



دائرة

حضرة صاحبة السمو السلطاني الأميرة نعمت الله كمال الدين حسين

ADMINISTRATION DES BIENS DE

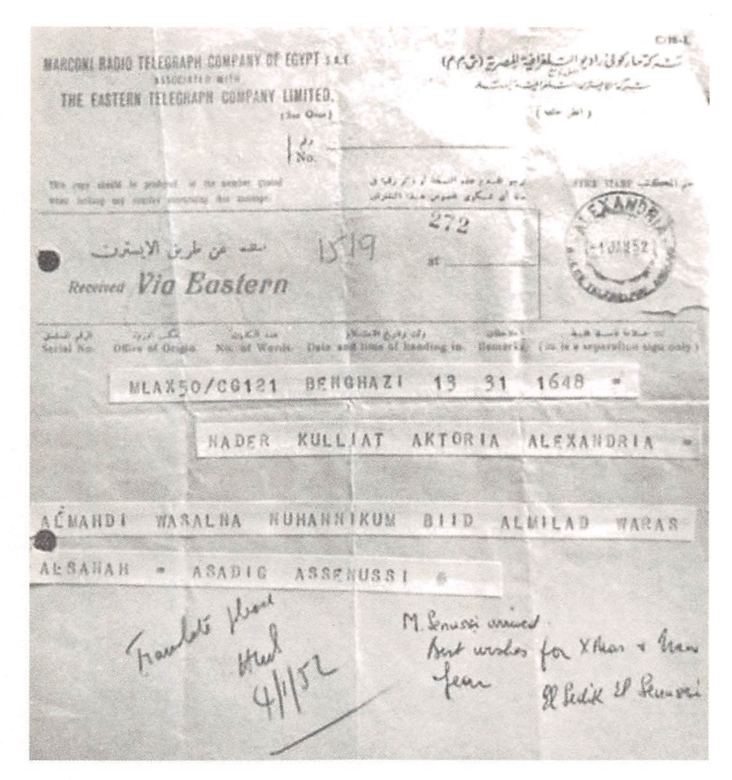
S.A.S. LA PRINCESSE NEMATALLAH KEMAL EL DINE HUSSEIN

رقم القيد ١٨٠

رقم الكوبيا ٤١٥

عدد المرفقات ١

خطاب بتاريخ 21أيلول/ سبتمبر 1936 من دائرة صاحبة السمو السلطاني نعمة الله كمال الدين حسين، يوضح وصول خطاب من الكلية لإخطارهم بمصاريف دخول الأمير نبيل طوسون للكلية وقدرها 35 جنيها، و200 مليم، وأنه سيتم تحويل شيك بالمبلغ المالي على البنك الأهلي بالإسكندرية.



MARCONI RADIO TELEGRAPH COMPANY OF EGYPT S.A.E.
ASSOCIATED WITH
THE EASTERN TELEGRAPH COMPANY LIMITED.

No.

272

1519

Received Via Eastern

ALEXANDRIA

Serial No. | Office of Origin | No. of Words | Date and time of handing in | Remarks

MLAX50/CG121 BENGHAZI 13 31 1648 =

NADER KULLIAT AKTORIA ALEXANDRIA =

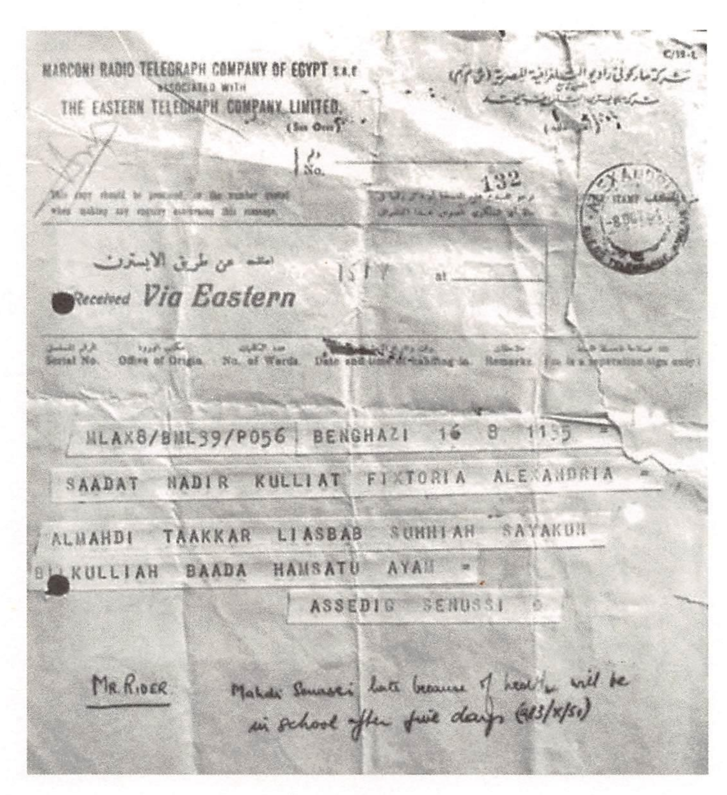
ALMAHDI WASALHA MUHANNIKUM BIID ALMILAD WARAS

ALSAHAH = ASADIG ASSENUSSI =

M. Senussi arrived
Best wishes for Xmas & New Year
El Sedik El Senussi

4/1/52

تلغراف بتاريخ 4 كانون الثاني/يناير 1952، يخطر الكلية بوصول المهدي السنوسي للبلاد، ويهنئ الإدارة بعيد الميلاد ورأس السنة الجديدة، من الصادق السنوسي.



MARCONI RADIO TELEGRAPH COMPANY OF EGYPT S.A.E
ASSOCIATED WITH
THE EASTERN TELEGRAPH COMPANY LIMITED.

No. 132

Received Via Eastern

MLAX8/BML39/P056 BENGHAZI 16 8 1135 =

SAADAT NADIR KULLIAT FIXTORIA ALEXANDRIA =

ALMAHDI TAAKKAR LIASBAB SUHHIAH SAYAKUN
BILKULLIAH BAADA HAMSATU AYAH =

ASSEDIG SENUSSI

MR RIDER

Mahdi Senussi late because of health will be in school after five days ([illegible])

تليغراف مرسل من بنغازي إلى مدير كلية فيكتوريا مستر ريدر يقول:
«المهدي السنوسي تأخر عن الكلية لأسباب صحية وسيكون في الكلية بعد خمسة أيام».



Lion Vainqueur de la Tribu de Juda,

Haile Selassie Ier.,

Elu du Seigneur, Empereur d'Ethiopie.

Qu'il parvienne à Monsieur Reed,

Directeur de Victoria Collège.

Que la Paix soit avec Vous.

Ayant l'intention d'envoyer deux enfants, fils de Nos serviteurs dévoués, à Victoria College, Nous vous prions de vouloir bien Nous informer s'il vous sera possible de faire un arrangement spécial en tenant compte de la situation actuelle.

Fait à Bath le 29 novembre 1937.

خطاب من إمبراطور أثيوبيا هيلا سيلاسي لمستر ريد مدير كلية فيكتوريا الإسكندرية تنبئه فيها برغبته في زيارة الكلية.

The Acting-Headmaster of Victoria College offers his humble duty to His Imperial Majesty and begs to inform him that Mr. Reed is at present in Algeria for a few weeks and that he will communicate on the subject of His Imperial Majesty's letter of November 29th on his return to Egypt at the end of the present month.

His Imperial Majesty,
Haile Selassie Ier.,

خطاب من مستر ريد إلى هيلا سيلاسي يخبره فيه بأنه في الجزائر لبضعة أسابيع، وأنه سيتواصل معه بخصوص موضوع الخطاب فور عودته.

DAIRAT
SAYED ABDEL RAHMAN PASHA EL MAHDI
P. O. BOX NO. 218
KHARTOUM

TELEGRAPHIC ADDRESS «EL HUDA»

TELEPHONES
GENERAL MANAGER
HEADQUARTER OFFICE KHARTOUM
RESIDENCE KHARTOUM
SPECIAL OFFICE OMDURMAN
RESIDENCE OMDURMAN
RESIDENCE WAD MEDANI

17th. April, 1948

Headmaster,
Victria College,
Alexandria.

Dear Sir,

I would like to admit (send) my sons Sadig, Mustafa and Isam El Dine to Victoria college next year and I beg to attach herewith the school certificates and birth certificates.

I would be grateful if you would kindly consider this letter as an application form and thanks.

Yours Faithfully

Siddik El Mahdi.

خطاب بتاريخ 17نيسان/ إبريل عام 1948 من السيد صديق المهدي لفيكتوريا الإسكندرية يخبرهم فيه برغبته بإلحاق أبنائه الثلاثة صادق ومصطفى وعصام الدين بالكلية العام المقبل، ويوضح فيه إرفاق شهادات ميلاد أبنائه.

VICTORIA COLLEGE
ALEXANDRIA

NO.

FORM OF APPLICATION FOR ADMISSION

1 Pupil's name in full (Surname in BLOCK LETTERS)	MAHDI, Sadik El Siddik Abdel Rahman
2 Date of Birth (Certificate of Birth required)	December 1935 12/10
3 Nationality and Religion	Sudanese Moslem
4 Previous School, with dates	Comboni College
5 Knowledge of English	
6 Date of entering Victoria College	October 1949
7 Name & Address of Parent or Guardian (State relationship to pupil) Father's profession or occupation	Siddik el Mahdi father P.O.B. 211 Khartoum
8 State if Boarder or Dayboy (if Dayboy, does he lunch at School or at home?)	Boarder
9 For Dayboys: Is the School Omnibus required?	—
10 State address to which accounts are to be sent	As above

I hereby request the Council of Victoria College, Alexandria, to admit the above-named boy as a pupil at the College and I undertake responsibility for the payment at the due dates of all School fees and other sums due in respect of his education and for expenses incurred on his behalf. I agree to abide by the regulations as set out in the Prospectus.

(Signature of Parent or Guardian).
(Parent's letter attached)

DATE 11-5-48

NOTE - A deposit of L.E. 1 for Dayboys and L.E. 5 for Boarders must be paid when the pupil has been accepted.

FOR SCHOOL USE ONLY

CLASSIFICATION: Noted & Reg fee [illegible]

Division of School Upper School

Form LV 10% brother of Isam [illegible]

Approved: [illegible]
Headmaster.

استمارة التحاق السيد الصادق المهدي كطالب بالقسم الداخلي لكلية فيكتوريا ومدوّن بها كافة بياناته.

VICTORIA COLLEGE
ALEXANDRIA

FORM OF APPLICATION FOR ADMISSION

1. Pupil's name in full (Surname in BLOCK LETTERS)	MAKRAM EBEID, Farouk.
2. Date of Birth (Certificate of Birth required)	27th Dec. 1945 1942
3. Nationality and Religion	Egyptian - Copt.
4. Previous School, with dates	—
5. Knowledge of English	slight knowledge
6. Date of entering Victoria College	Oct. 1948 1949 1950
7. Name & Address of Parent or Guardian (State relationship to pupil) Father's profession or occupation	Father, George Makram Ebeid Member of Parliament
8. State if Boarder or Dayboy (if Dayboy, does he lunch at School or at home?)	Dayboy
9. For Dayboys: Is the School Omnibus required?	~~Yes~~ No confirmed by telephone
10. State address to which accounts are to be sent	273 Av. Fouad 1st

I hereby request the Council of Victoria College, Alexandria, to admit the above-named boy as a pupil at the College and I undertake responsibility for the payment at the due dates of all School fees and other sums due in respect of his education and for expenses incurred on his behalf. I agree to abide by the regulations as set out in the Prospectus.

(Signature of Parent or Guardian).
G. Makram Ebeid

DATE 3/9/48

NOTE – A deposit of L.E. 1 for Dayboys and L.E. 5 for Boarders must be paid when the pupil has been accepted.

FOR SCHOOL USE ONLY

CLASSIFICATION

Division of School ~~Transition (E)~~ P/S — Approved: — Headmaster.

Registration fee paid

استمارة التحاق فاروق مكرم عبيد وهو حفيد أحد كبار الزعماء المصريين مكرم عبيد، ووالده جورج مكرم عبيد كان أحد أعضاء البرلمان المصري، والوثيقة ترجع لعام 1948.



Republic of Bulgaria
The Prime Minister

September 10th, 2002

Dear Dr. Awad,

Thank you so much for your letter-invitation to the Victoria College Centennial Reunion. I had already received a word from Mr. Wagih El Mehelmi to all old Victorians but due to my terribly busy schedule I simply could not answer earlier.

I am very much impressed by the extraordinary program you have come up with, which will certainly attract a great number of us! As to myself, the above fact frustrates me even more because I would have loved to attend such a memorable get-together. Unfortunately my duties here will prevent me from going to Egypt but besides the tight program during the days of the event, I will have to face a personal one, which is my daughter's wedding on October 26th.

I will, however, be in my thoughts and wishes with all of you, in particular, the really "old boys" of my generation with whom so many good memories unite me!

With renewed thanks for your invitation, I send you and all members of the Old Victorian Association my very cordial greetings.

Yours sincerely

Simeon Saxe-Coburg

Dr. M.F. Awad
President of the Old Victorian Association
Alexandria

خطاب مرسل من ملك بلغاريا، الملك سيمون الثاني آخر ملوك بلغاريا، إلى د. محمد عوض رئيس جمعية خريجي فيكتوريا الإسكندرية يعتذر فيه عن حضور الاحتفال بمئوية كلية فيكتوريا لتعارضه مع موعد زفاف ابنته. وكان ملك بلغاريا قد درس فيها وكان زميله ولي عهد ألبانيا الأمير ليكا.

THE BRITISH RED CROSS SOCIETY

9 GROSVENOR CRESCENT
LONDON, SW1X 7EJ

Overseas Cables: REDCROS, LONDON, S.W.1
Inland Telegrams: REDCROS, LONDON, TELEX

Patron and President: HER MAJESTY THE QUEEN

JMM/LJ

George Kardouche Esq
10 Chesterfield Street
London SW1

6 April 1983

Dear Mr. Kardouche,

We are writing to express our thanks to you and all the Members of the Victoria College Association who contributed to the magnificent total of £12743.52 for Red Cross relief work in the Lebanon.

You are familiar with the role that the International Committee of the Red Cross (ICRC) has played in the Lebanon since the escalation of hostilities in June last year. The generosity of the Association played a significant part in the £400,000 which the British Red Cross has contributed to the ICRC programme of aid. This money helped pay for medical teams and ambulances, for food parcels and drugs, for the welfare tracing operation and the visiting of prisoners of war.

The activities carried out by the ICRC continue. Regular visits by Red Cross delegates to prisoners of war in the camp at Insar, where approximately 5,200 people are still detained are maintained, and as a neutral intermediary the ICRC continues to provide protection to vulnerable groups and ensure their presence in the Palestinian camps in Beirut and in the South of the Lebanon. The ICRC Central Tracing Agency works for the detainees at Insar camp (registration, exchange of messages, repatriations) and maintains a network for the exchange of family messages, particularly for the Palestinian population in Lebanon and abroad. The British Red Cross has just sent a surgical team to work in the Bekaa Valley, reinforcing the medical situation at Baalbek Hospital and making surveys of other hospitals in the area. Emergency medical supplies, food, blankets etc are stocked for the use of the Lebanese Red Cross and the Palestinian Red Crescent should armed incidents occur. Two field hospitals have been provided; one is being run by the Palestinian Red Crescent in Tripoli and the other is being held on stand-by in Zahle. During 1983 the ICRC is setting up and running three prosthetic centres and work-shops for the provision of artificial limbs for war casualties. These are at Beit Chebab in Beirut, in Sidon and in Damascus for Palestinian patients.

As you will see, the ICRC's activities are wide in scope and the help of the Victoria College Association to maintain this sorely needed help to the population of the Lebanon is very much appreciated.

Again, our warmest thanks to you all.

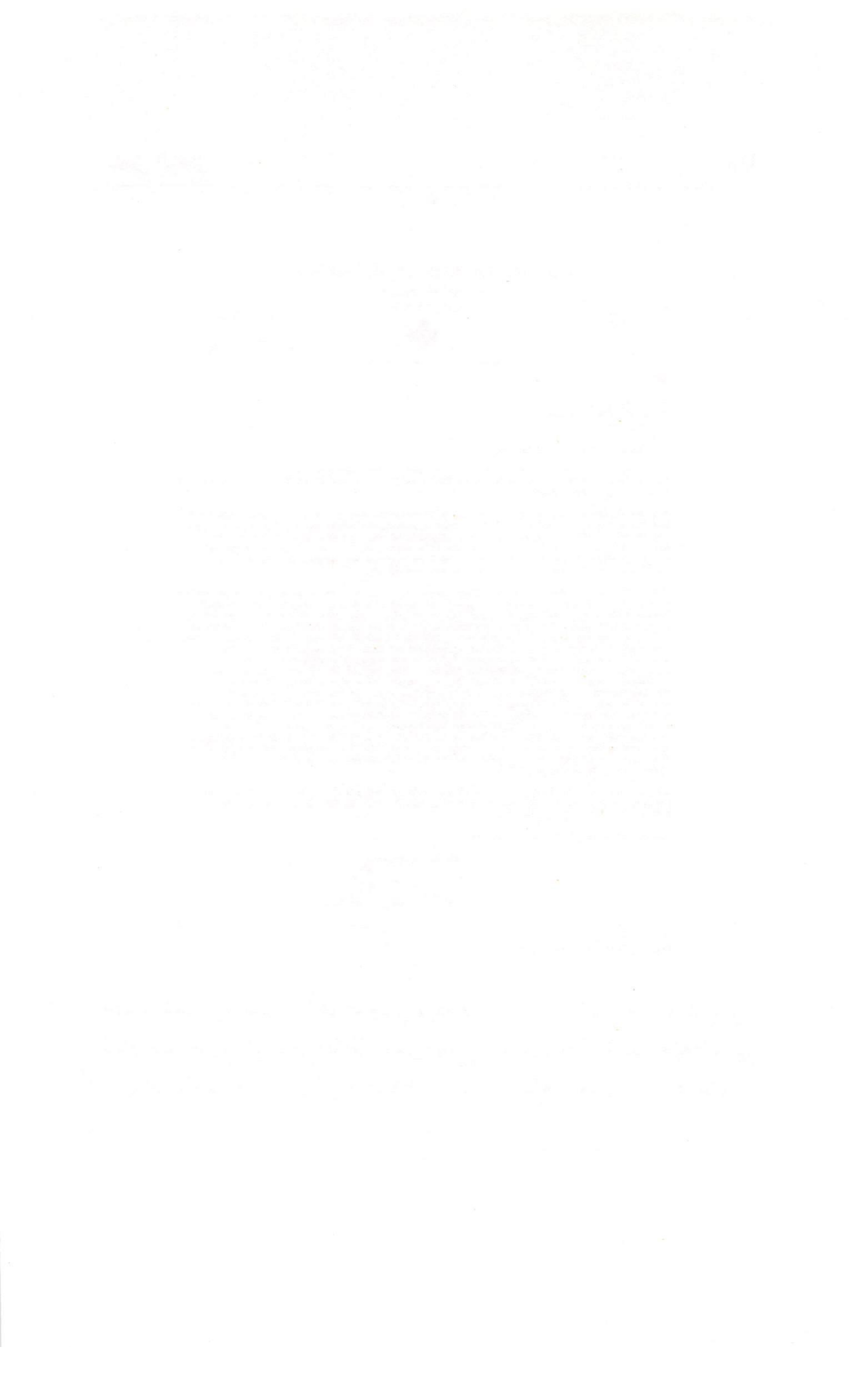
Yours sincerely,

Terry Palmer

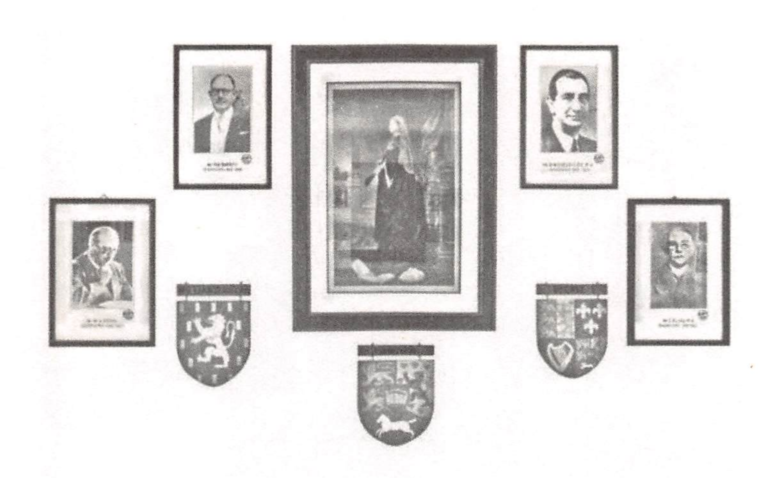
Col. J T Palmer
Head of International Division

28

خطاب شكر من الصليب الأحمر البريطاني لأحد قدامى الخريجين السيد جورج كاردوش، لقيام جمعية خريجي كلية فيكتوريا الإسكندرية بجمع تبرعات قدرها 13 ألف جنيه استرليني خلال الاجتماع السنوي لهم عام 1982 في لندن، لصالح ضحايا الحرب في لبنان.



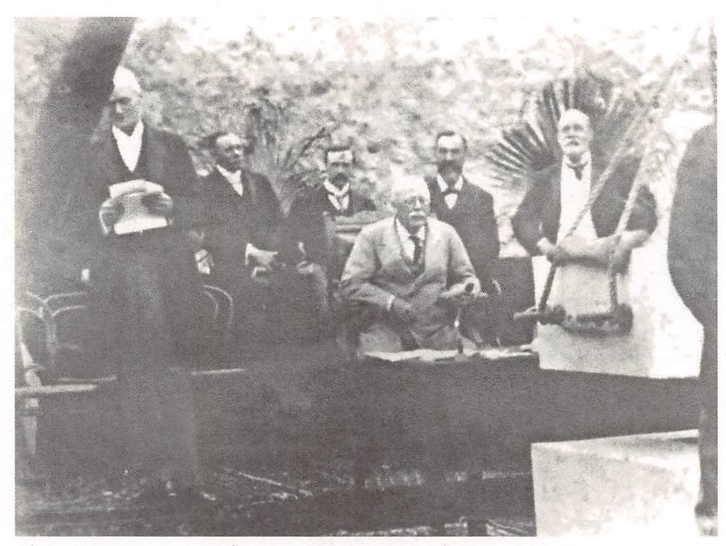
ملحق الصور



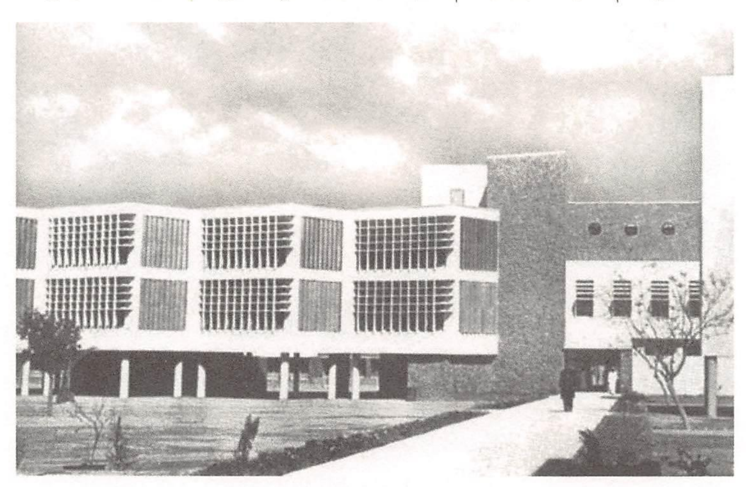
صورة كبيرة للملكة فيكتوريا تتوسط
مقر الجمعية وحولها صور لأول مدراء للكلية.



الكلية عام 1948



صورة تاريخية نادرة لإرساء حجر أساس كلية فيكتوريا بالأزاريطة في 15 نيسان/ أبريل عام 1901 ومن يسار الصورة إلى يمينها يظهر سير تشارلز كوكسون، ثم السيدان فورستر وتاريل، ثم اللورد كرومر، ثم سير ألدرسون، وفي أقصى اليسار السيد موس.



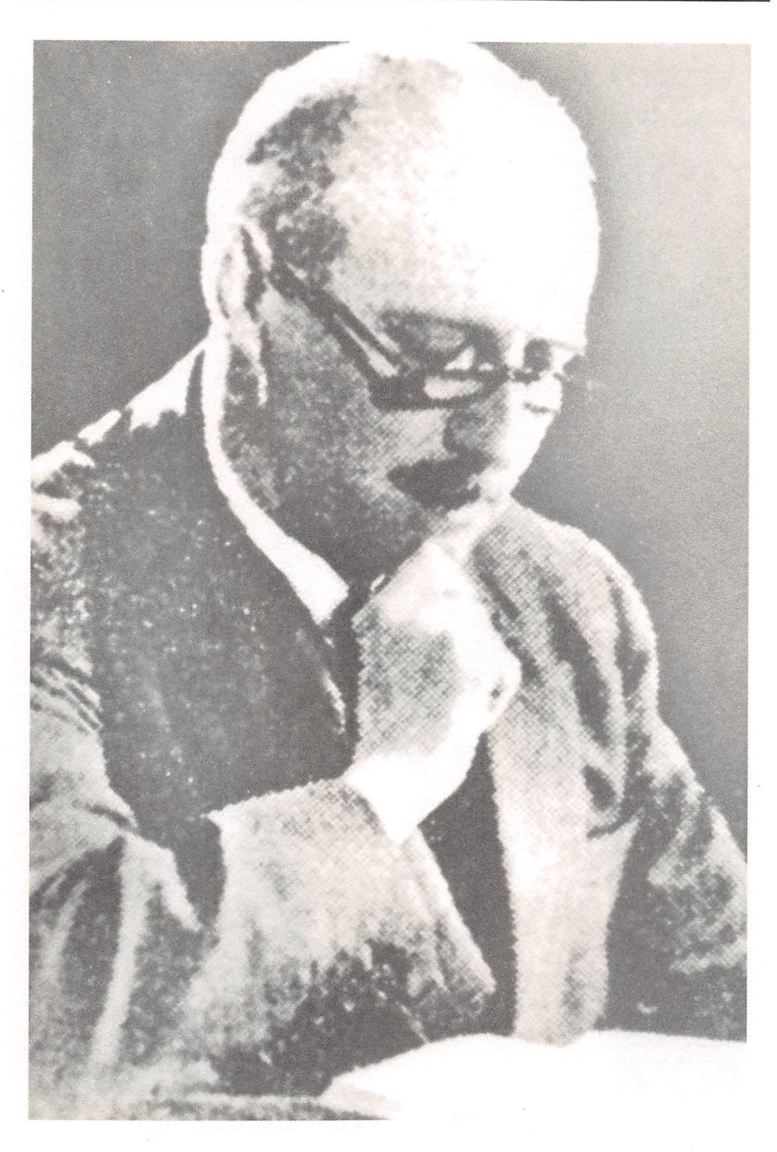
كلية فيكتوريا القاهرة بالمعادي



مستر لياس أول مدير لكلية فيكتوريا الإسكندرية
وتولى إدارتها من عام 1902 وحتى 1922.



مستر رالف رييد مدير كلية فيكتوريا من عام 1922 وحتى 1945.



مستر سكوفيل مدير كلية فيكتوريا من 1945 وحتى 1947.



مستر باريت، مدير الكلية من عام 1948 وحتى 1956.



صورة اللورد بادن باول مؤسس الحركة الكشفية العالمية والضابط بالجيش البريطاني أثناء زيارته لكلية فيكتوريا الإسكندرية يتوسط الصف الأمامي بزيه المميز وفي الصورة يظهر مستر بارك هاوس وعدد من معلمي وطلاب الكلية.



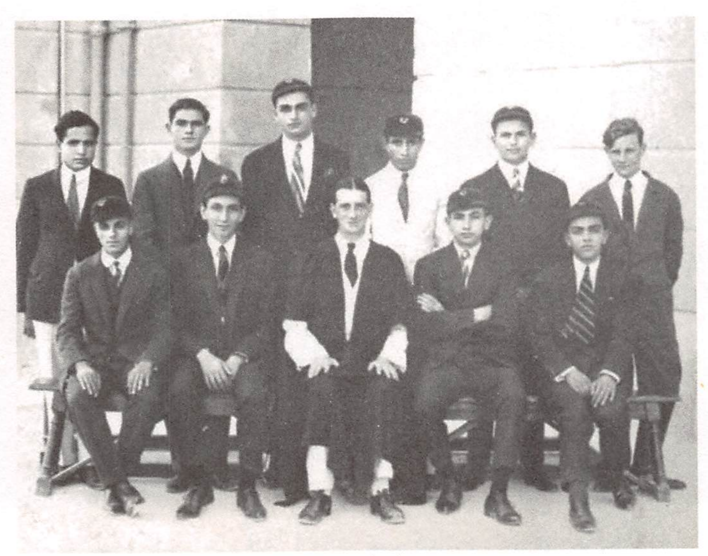
صورة فريق التنس بالكلية عام 1929.



صورة نادرة لكلية فيكتوريا في بداياتها وفيها طلاب من جنسيات متعددة عام 1923.



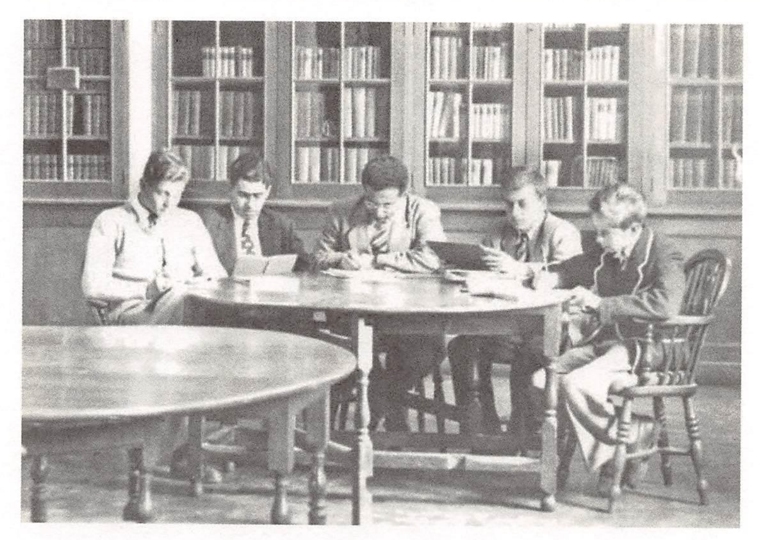
طلاب المرحلة الإبتدائية مع المشرفات الإنكليزيات1923 ـ 1924.



مستر ريد REED يتوسط طلاب كلية فيكتوريا الإسكندرية
حينما كان مدرسًا للتاريخ 1923 ـ 1924.



مستر ريد في مكتبه بالكلية وهو المكتب الذي يتعاقب عليه المديرون حتى الآن.



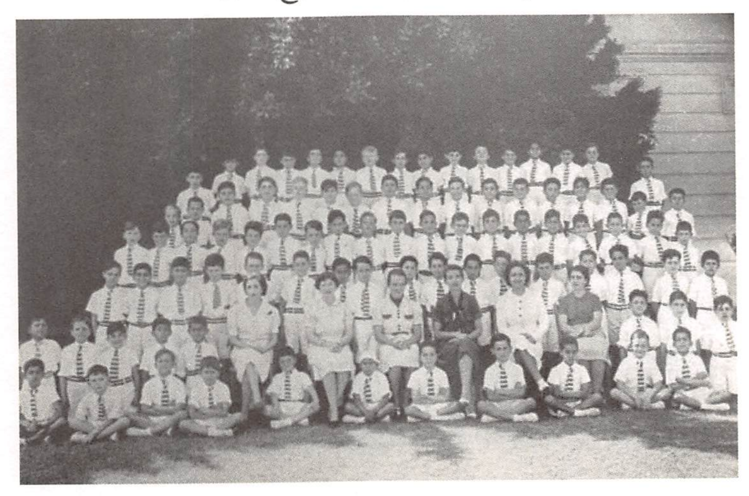
مكتبة كلية فيكتوريا عام 1930 والتي تضم كتبًا يعود تاريخها لعام 1904.



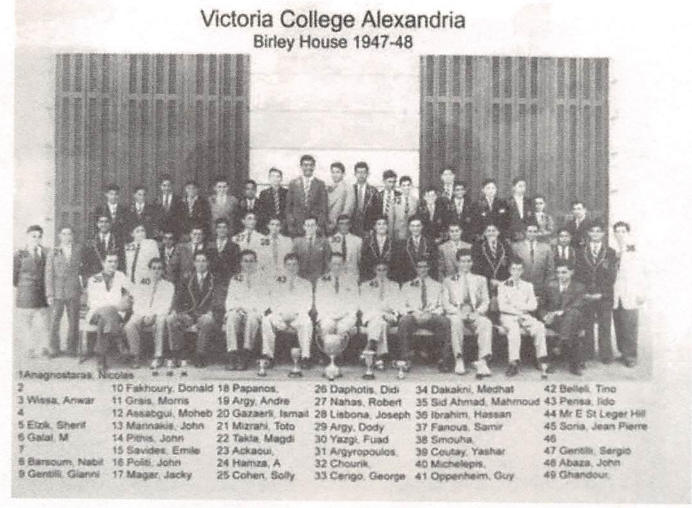
فريق المسرح عام 1930 وتبدو روعة تصميم ملابس الشخصيات.



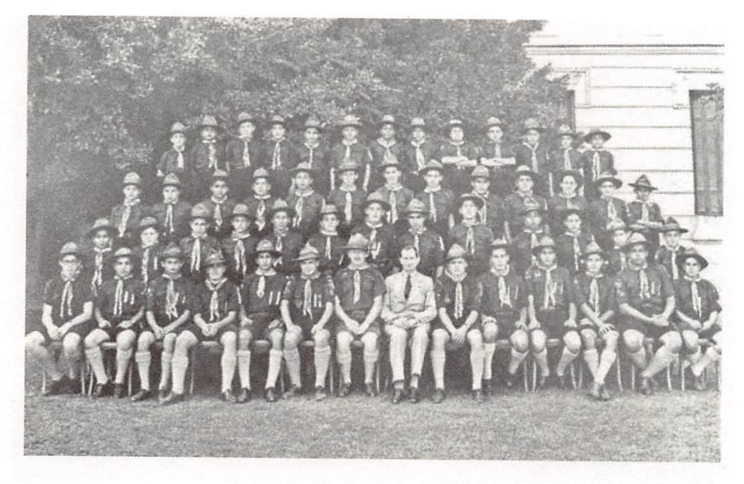
عشاء للفيكتوريين القدامى مقام بقاعة بيرلي هول عام 1930
وفي الخلفية تظهر خشبة المسرح العتيق.



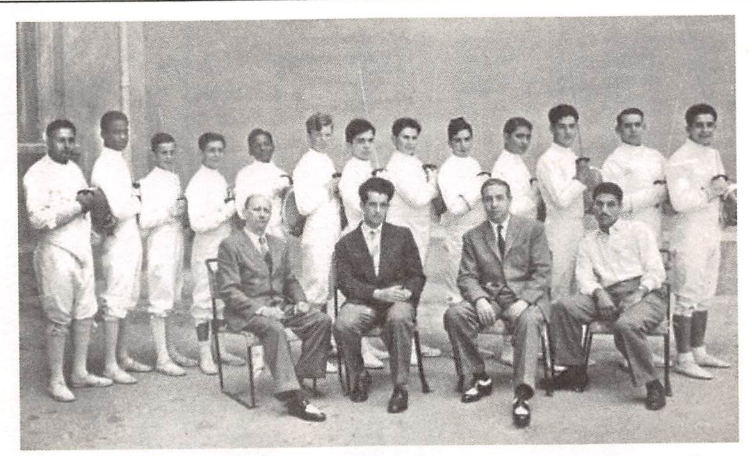
طلاب الحضانة بكلية فيكتوريا 1937 ـ 1938.



طلاب الكلية بالزي الكشفي 1937 ـ 1938.



طلاب بيرلي هاوس عام 1947 ـ 1948 بينهم يهود وشوام وأرمن وإنكليز ويونانيون وإيطاليون ومصريون.



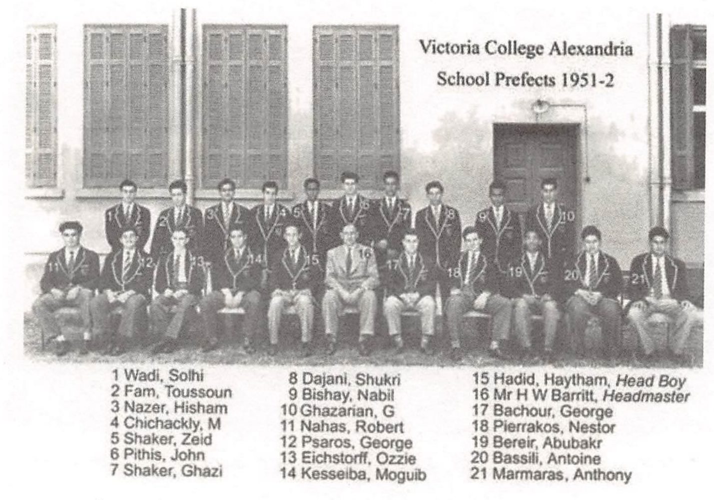
الملك حسين (7) يتوسط فريق السلاح «الشيش» بكلية فيكتوريا عام 1948 كما يظهر بها الصادق المهدي (5).



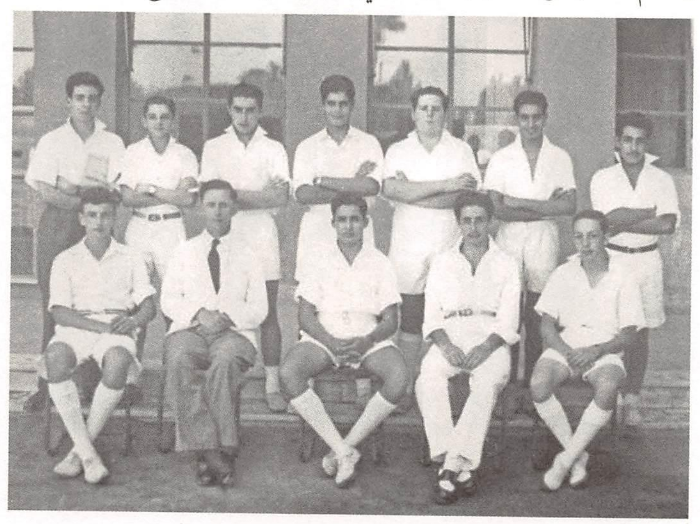
VC Alex - San Stefano 1942-43

1. Nicholas Diab, 2. Richard Axisa, 3. Ronnie Foster, 4. Dawson, 5. ?, 6. Youssef Gaby Chaheen, 7.?, 8. Hazan 9. Michael Yehia, 10. Donald Robertson, 11. Zaven Kutchukian, 12. Theodor Klat, 13. Arie Schlosberg

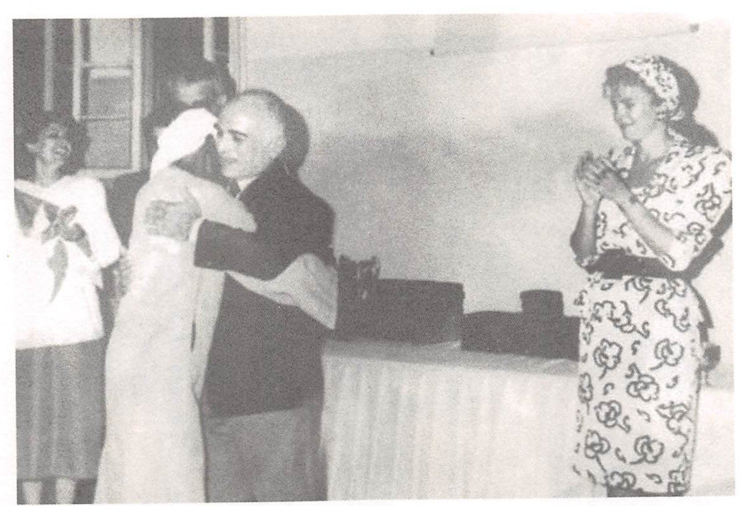
صورة يوسف غابي شاهين مع زملائه بفيكتوريا الإسكندرية على شاطىء سان ستيفانو عام 1942 ـ 1943.



صورة لطلاب البريفيكت لعام 1951 وبينهم زيد بن شاكر من الأردن، وهشام الناظر من السعودية، وصلحي الوادي من العراق، مع مستر بارييت.



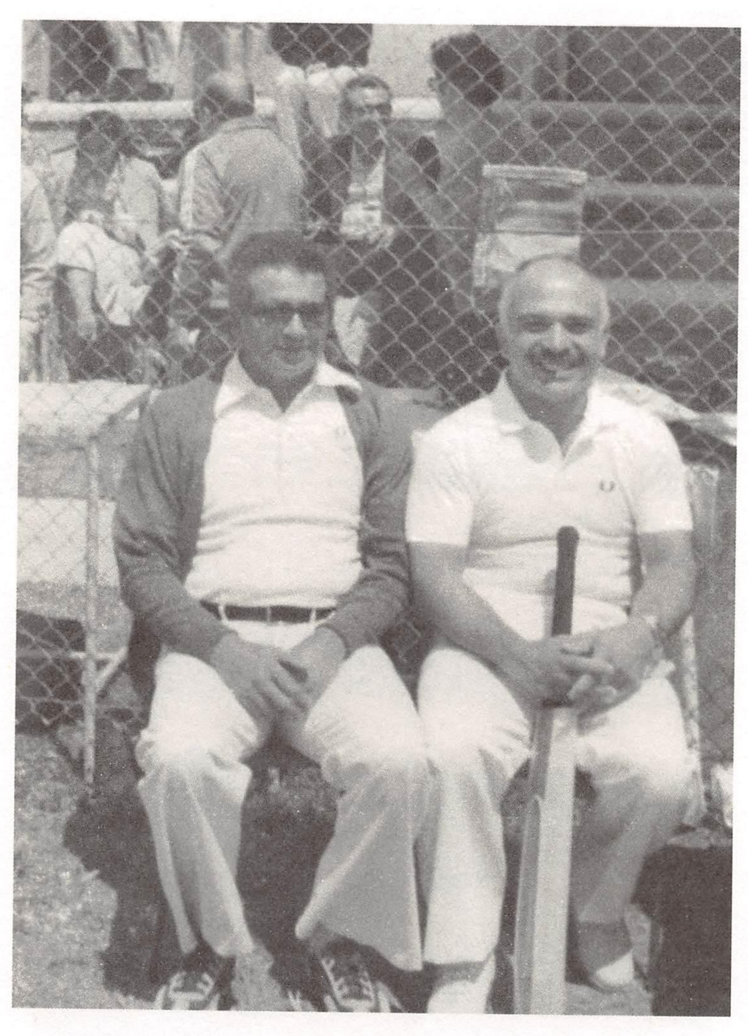
صورة فريق كرة القدم بكلية فيكتوريا القاهرة عام 1949 ـ 1950، ويتوسط الصورة مستر جريفيث، وفي أعلى الصورة الطالب رقم (4) هو عمر الشريف.



الملك حسين يحتضن عم حسن أبو خبير أقدم سعاة الكلية
حيث جمعت بينهما ذكريات جميلة في القسم الداخلي بالكلية.



صور تجمع خريجي كلية فيكتوريا الإسكندرية في الأردن بدعوة كريمة من الملك حسين.



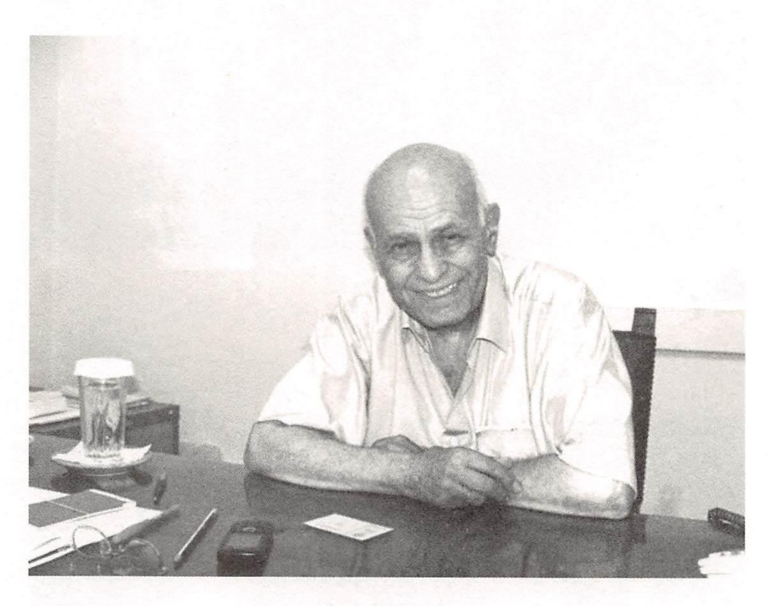
يمسك الملك حسين بمضرب الكريكيت وفي الخلفية يظهر المخرج العالمي يوسف شاهين مع أصدقاء الدراسة.



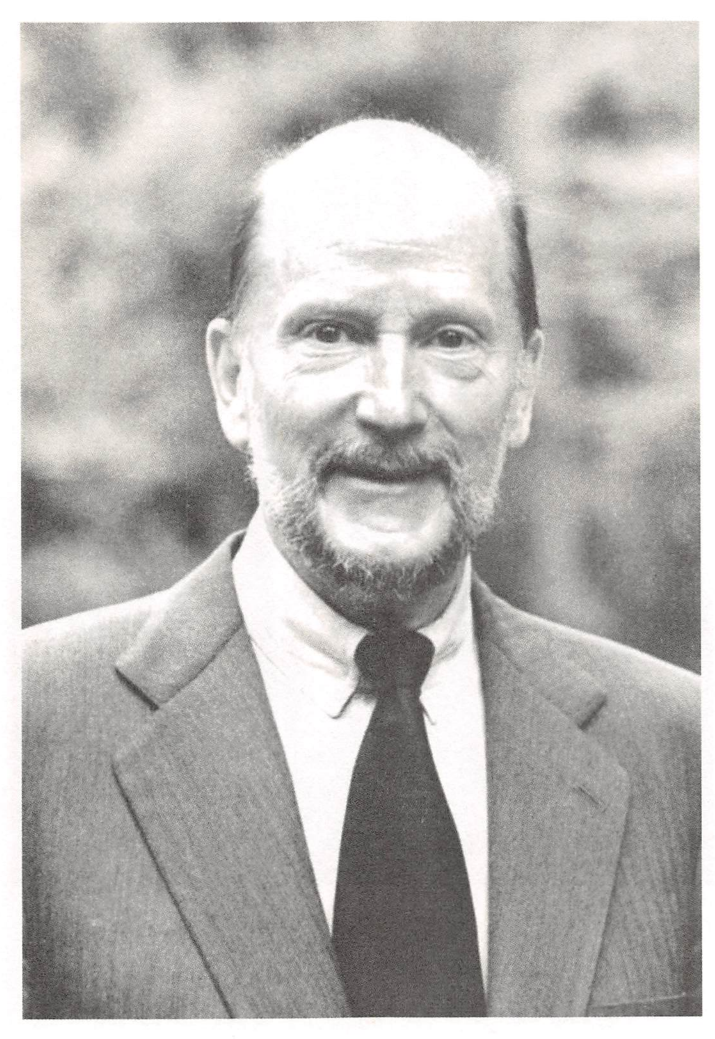
الفنان الكبير سمير صبري في لقاء مع خريجي كلية فيكتوريا.



يوسف شاهين في التجمع الدولي للخريجين بالإسكندرية مع منصور حسن.



ميشيل ماركو ذاكرة كلية فيكتوريا البشرية .



آخر ملوك بلغاريا الملك سيمون الثاني.



الفريق أول فؤاد ذكري قائد القوات البحرية في حرب أكتوبر 1973 م .
وهو المخطط لعملية المدمرة إيلات عام 1967م ويُعدّ من أبرز
قادة القوات البحرية في تاريخ مصر من خريجي كلية فيكتوريا .



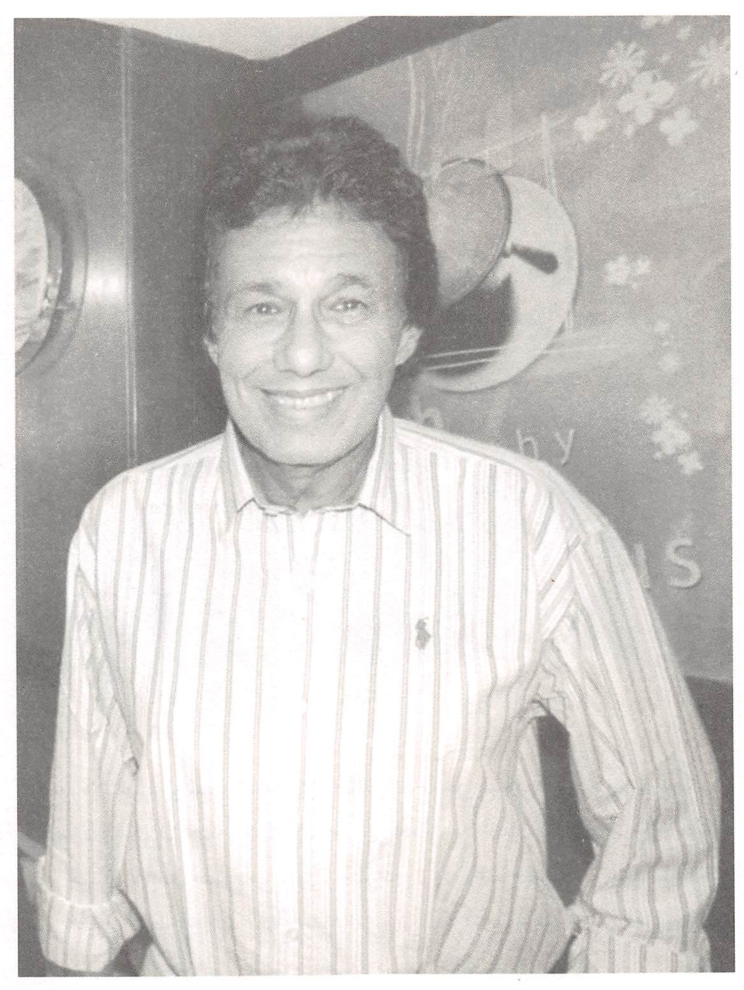
معالي السيد الصادق المهدي.



معالي السيد عبد اللطيف الحمد رئيس مجلس الإدارة والمدير العام للصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، أثناء زيارته لكلية فيكتوريا.



المحامي المرموق أكرم النقيب ابن الملكة ناريمان،
والمحامي مصطفى رمضان صداقة ممتدة مدى الحياة.



د. إبراهيم الكرداني.



صورة التقطها يوسف شاهين في احتفالية قرن على ميلاد كلية فيكتوريا بمكتبة الإسكندرية، وهو الاحتفال الذي جمع خريجي الكلية من مختلف أنحاء العالم وفي الصورة : منصور حسن، عدنان خاشقجي، وزير خارجية الأردن هشام نسيبة، وزير نفط السعودية الأسبق هشام الناظر، وعبد الفتاح طوقان، زكي الجزيري، ومنير دوس مدير الهيلتون، وغيرهم. والصورة إهداء من د. عبد الفتاح طوقان.